٣ قروش

المختار
من ريدرز دايجست

فى كل مقالة لذة دائمة

ديسمبر ١٩٤٦



ترقب فى مختار يناير سنة ١٩٤٧

فى هذه البلاد التى يجوبها المختار كلَّ شهر ، تجد **الزراعة مورد الرزق لمعظم سكانها** ، فكلُّ ما يزيد جنى الأرض ، وثمر جهاد الفلاح ، ويرفع مستوى معيشه ، يجدى عليها أعظم جدوى . فاقرأ إذن فى مختار يناير ١٩٤٧ ، مقال « **العلم يشنُّ حرب الكيمياء على آفات الزراعة** » . وأيضاً قصة ملهمة هى قصة المفتش الزراعى الزنجى الذى مهّد لقومه بآيات من العمل النافع كيف « **يخرجون من الأرض ما يكفل لهم العيش الرغيد** » ، فصاروا أحراراً .

أو لعلك تفضّل الرائع من قصص المغامرة والبطولة ، فى مغالبة الشدائد والتغلب عليها ، فاقرأ إذن قصة مغامرتين من أروع مغامرات السنوات الأخيرة أما الأولى فهى : « **أسبوعان من الهول على بساط من الجمد** » . وأما الثانية فهى : « **أحد عشر رجلا والقنبلة الذرّية النازية** » . والثانية على ما فيها من آيات الإقدام والجرأة ترفع الستار عن حادثة خطيرة من حوادث الحرب طويت أخبارها حتى اليوم .

والعناية بالصحة من أهم ما يستأثر باهتمام الناس ففى مختار يناير ١٩٤٧ تجد مقالين نافعين يكشفان لك عن أشياء خليق بك أن تعرفها وينفعك أن تعرفها فهذه مقالة : « **عوضٌ للسكتة القلبية** » تفسر علة خطيرة وتبين كيف تساعد الحمية على توقيها . ومقالة « **الأعصاب وسوء الهضم** » ، تقيم الدليل من التجربة على أن الخوف والهمّ وضعف الأعصاب الموروث ، هى الأصل فى نصف ما تقاسى المعدة من متاعب .

فصول فى الأدب الحىّ — « **فى حديقة صينية** » و « **من المدين** » و « **أنا عمياء** » ، « **عبرة الجورب القديم** » ، أربعة فصول تتجلى فيها العبر النافعة المستخرجة من تجارب الحياة ، فهى فى صميم الموضوع الذى ظفر بإعجاب قرّاء المختار — « هل أنت حىٌّ » .

AL MUKHTAR min Reader's Digest — Vol. 7, No. 40, DECEMBER 1946.

رؤساء التحرير : ده ويت ولاس ، ليلى أتشيسون ولاس — سكرتير التحرير : كنيث باين .
مدير التحرير : ألفرد داشيل — المدير العام : أ . ل . كول . — المدير المساعد : فرد طمسون .
مدير الطبعات الدولية : باركلى أتشيسون — المدير المساعد : مارڤن لوز .

الطبعة العربية

المدير العام ورئيس التحرير : فؤاد صروف . مدير التحرير : محمود محمد شاكر . مدير الإدارة ولم ف . جيلسى .
مصر والسودان : النسخة ٣ قروش . الاشتراك السنوى ٣٠ قرشاً — شرق الأردن وفلسطين ٣٥ ملا
العراق ٣٥ فلساً — سوريا ولبنان ٣٥ قرشاً . الاشتراك السنوى فى سوريا وشرق الأردن
والعراق وفلسطين ولبنان والمملكة العربية السعودية واليمن ما يعدل ٤٠ قرشاً مصرياً ،
وفى سائر أقطار العالم ما يعدل ٧٥ قرشاً أو ثلاثة دولارات أو ١٦ شلناً .

العنوان : ١٤ شارع القاصد ، القاهرة — تليفون : ٤٢٢٦٤

مطبعة مصر

المختار
من ريدرز دايجست
١٩٤٦

كان القلق يساور الأطباء حين يرون مريضاً عنيداً ينهض من فراشه ويمشى في عقب جراحة في البطن ، أما اليوم فقد صار ذلك خطة متبعة في المستشفيات .

انهض من فراشك واستمتع بالحياة

مريم زلر جروس

مختصرة من مجلة " ذى ستردای ایفننج پوست"

لم يكن هنرى فورد هو الذى ابتكر العلاج الحديث الذى يعالج به المرضى في أعقاب الجراحات ، ولكنه سبق إليه قبل أن يتمّ ببضع سنوات . ففى سنة ١٩٣٢ أجريت لهُ جراحة في بطنه ، فأفزع أطباءهُ حين أصرّ على أن يذهب إلى حمام المستشفى ، ولم تكد تنقضى على الجراحة ساعات قلائل . ثم ظلّ ، وهو يومئذ شيخٌ في التاسعة والستين ينهض من فراشه كلما طاب له في الأيام العشرة التى قضاها في المستشفى . بيد أنهُ أبلّ إبلالا مطرداً برغم خروجه على النهج المألوف بين الأطباء ، فعجب أطباؤهُ أشد عجب .

وأنت ترى اليوم أن النهوض من الفراش بعد انقضاء ساعات قلائل على جراحات البطن والولادة ، لا بعد انقضاء أيام وأسابيع ، قد صار أول شيء في الأسلوب الحديث المتبع في رعاية الناقهين ، وهو ما يسميه الجراحون : «التبكير في الحركة» .

وقد حدث بعد أن مضت ست سنوات على تجربة هنرى فورد ، أن نفرت ممرضة فزعةٌ إلى التلفون في مستشفى دترويت لتستدعى الدكتور دانيل لايتوزر ، فحفزته تلك الدعوة ، إلى نهج من العمل قدر له في آخر الأمر أن يحدث انقلاباً في علاج الناقهين من الجراحات . فقد أنبأته الممرضة أن المريض روبرت هوك الذى استؤصلت زائدته في ذلك الصباح ، كان يطوف بالماء على سائر المرضى في العنبر ، قالت : « ولما حاولنا أن نعيده إلى سريره قال : إنى

شعرت بظمأ فذهبت أطلب الماء ، فشربت فشعرت بالراحة ، فقدرت أن سواي من المرضى ينبغي أن يشربوا أيضاً » .

فهرع لا يتوزر إلى المستشفى فألفى هوك لا يزال واقفاً على قدميه ، فبيّن لهُ ما كان يراهُ يومئذ من أن الجرح حريٌّ أن ينشقّ ثانية ، وقد تسقط أحشاؤهُ إن لم يعد إلى سريره ، فأبى المريض أن يرتاع أو يرعوي .

قال : « هذه خرافة فيما أرى ، ويقيني أنه لن أُصاب بأذى وأنا في مثل هـذه العافية » .

وقد سهد كثيرون من رجال المستشفى في تلك الليلة ، ولكن المريض نام ملء جفونه ، ولم يزعجه ما يعقب استئصال الزائدة عادة من آلام انتفاخ البطن والغثيان ، واستيقظ مبكراً في اليوم التالي وطلب فطوره .

وقد قال هوك إنه يشعر بأتمّ العافية ، ولا يرى معنى لبقائه في المستشفى ، فركب سيارته وعاد إلى بيته . ورجع في اليوم التالي إلى دترويت فقضى بعض حاجاته وعمل في حديقته خلال اليومين التاليين . وفي اليوم الخامس قطع بسيارته أربعين ميلاً ، ليفحص أول فحص طبيّ بعد الجراحة ، فإذا حالتهُ أحسن كثيراً من سواهُ من المرضى الذين استؤصلت زائدتهم يوم استؤصلت زائدتهُ ، ولكنهم ظلوا ملازمين أسرّتهم في المستشفى .

كان هذا الحادث سبباً حمل الدكتور لايتوزر على أن يسأل نفسه : أثمة أسباب أصيلة معقولة لإبقاء مريض في سريره عشرة أيام بعد إجراء جراحة في بطنه ؟ وتذكر أن الأطفال الذين يشقّ إرغامهم على الإخلاد إلى السكينة ، ينقهون على الغالب برغم توفزهم وحركتهم . وقد رأى بعينه ولداً من أولاده يقفز في سريره بعد استئصال زائدته بيوم واحد ، فلم يصب بأذى . فأقدم هيّاباً في أول الأمر على الإذن لبعض المرضى بالنهوض من أسرّتهم بعد انقضاء يوم واحد على استئصال الزائدة ، ولكنّ إبلالهم السريع أذهب مخاوفه . وسرعان ما جعل يعالج كل من تستأصل زائدتهُ على هذه الوتيرة نفسها ، بل لقد أذن لهم أن يعودوا إلى بيوتهم في اليوم الذي يلي الجراحةَ ، إذا وجدهم قادرين وبخير . فما مضت ثلاث سنوات ، حتى نشر رسالة أذاع فيها النتائج الباهرة التي وفق إليها في علاج ٣٧٠ مريضاً على هذا المنوال .

ومضى بعد ذلك يطبق هذا العلاج على الذين أجريت لهم جراحات في البطن سوى استئصال الزائدة ، فكانت شكاة أولئك المرضى كذلك من آلام الانتفاخ ومن

الغثيان والضعف، أقل من شكاة الذين لازموا الفراش ، وأسرعت كلاهم فى العودة إلى القيام بوظيفتها ، ولم يحتاجوا إلى حقن فى الشرج ، ولم يعطوا من العقاقير المسكنة سوى نصف المقدار المألوف ، وكانوا يأكلون مريئاً وينامون هنيئاً ، وعادوا إلى مزاولة أعمالهم فى نصف الزمن الذى قدّر لعودتهم .

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، فالذين بكروا إلى النهوض من أسرّتهم لم يصب أحد منهم بالتهاب الرئتين الذى كان خليقاً أن يهدد حياة تُسع الذين استؤصلت زائدتهم ، وأكثر من تسع الذين أجريت لهم جراحات أخرى فى بطونهم . فعزم لايتوزر على أن يعرف : أهناك سندٌ من الأصول العلمية يؤيد مشاهدته ؟ فثبت لهُ من البحث المقارن أن المبكرين إلى النهوض يستعيدون قدرتهم على التنفس الطبيعى فى يومين إلى سبعة أيام، أما الذين يلازمون الفراش ويتأخرون فى النهوض فلا يستعيدونه إلا بعد سبعة أيام إلى أربعة عشر يوماً . وجعل الدكتور جون باورز الطبيب فى مستشفى باسيت فى كوبرزتاون بولاية نيويورك ، يقارن درجات ضغط الدم ، ومعدل النبض والحرارة فى ١٠٨ من المرضى الذين نهضوا ومشوا فى اليوم الأول، عما يقابلها فى مئة من الذين لزموا الفراش أسبوعاً إلى ثلاثة أسابيع عقب جراحات متماثلة للفتق والزائدة والتهاب المرارة وسواها . فاتضح من نتائج بحثه المبوّبة أن الذين بكروا إلى النهوض لم يعانوا ازدياد النبض ، أو الحمى ، أو انخفاض ضغط الدم ، ولم ينشقّ جرح من جراحهم . أما الذين أجريت لهم جراحة الفتق فقد كان الشفاء الدائم أكثر عدداً بين الذين بكروا إلى القيام فى اليوم الأول بعد الجراحة ، منه بين الذين لازموا الفراش .

إن انشقاق جراح البطن بعد خياطتها شيء مروّع ، يودى بكثير من المرضى . ويقول الدكتور توماس جلاسر ، أحد جراحى نيويورك ، إنه يحدث نحو مرة فى كل ٤٠٠ جراحة ، ويغلب أن يحدث فى اليوم الثامن أى فى الوقت الذى ألف فيه رجال المستشفيات أن يتيحوا للمريض قسطاً أوفر من حرية الحركة. ويذهب دعاة التبكير إلى النهوض بعد الجراحات ، إلى أن غُرزَ الجراح تكون أقوى ماتكون فى الأيام الأولى التى تلى الجراحة ، ويؤكدون أن حركة المريض تهيء للجرح مدداً أوفر من الدم ، فيُسرع إلى الالتئام . وقد تمَّ فى مستشفى واحد أكثر من ألفى جراحة فى البطن ، ونهض المرضى خلال الساعات

الأربع والعشرين الأولى ، دون أن ينشقّ جرح واحد .

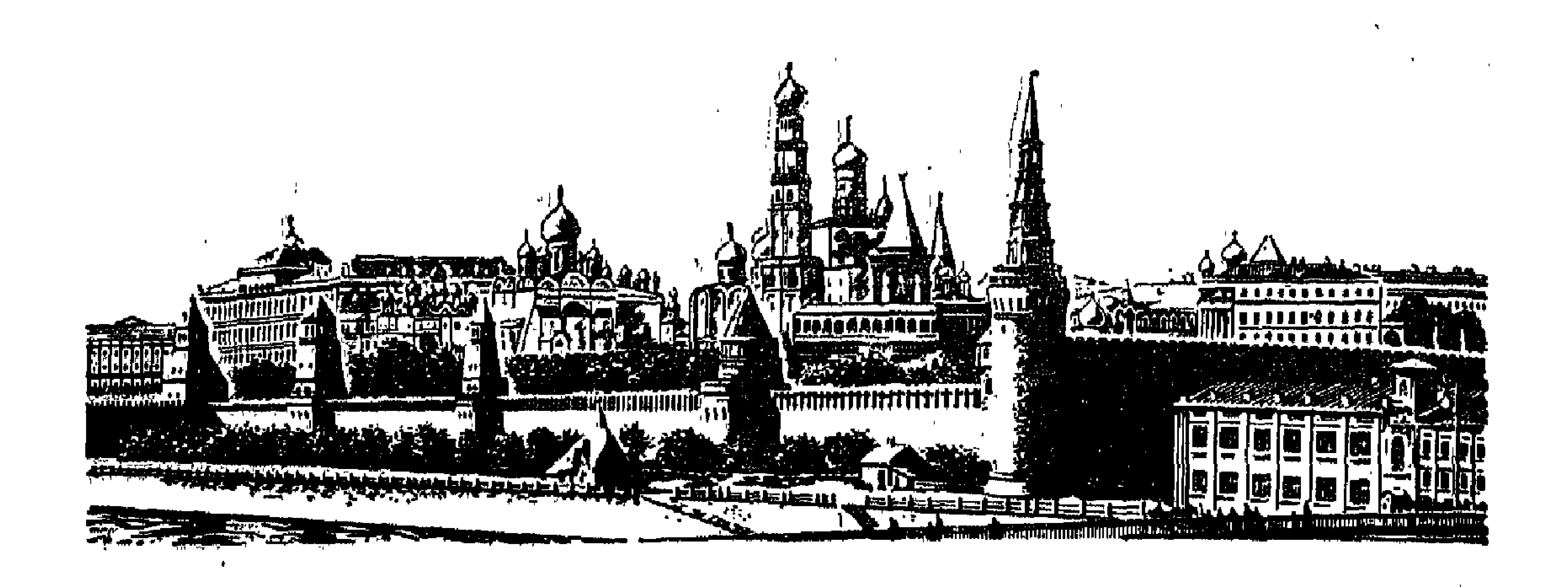
وقد اقتضت ضرورات الحرب أن يشيع أسلوب « التبكير فى الحركة » فى مستشفيات الولادة . ففى أثناء الهجوم الجوى الخاطف على لندن سنة ١٩٤٠ — ١٩٤١ كان يخشى أن تكثر الوفيات بين الوالدات فى المستشفيات ، فأعيدت والدات كثيرات منهن إلى بيوتهن بعد يومين أو ثلاثة أيام من الولادة ، ولكن قلق الأطباء عليهن خفّ حين علموا أنهنّ لم يصبن بأذى ، ودهشوا حين وجدوا أن التهاب الأوردة والموت من سُدّة الشرايين قد هبط بين هؤلاء الوالدات إلى معدل لم يعهد من قبل .

وبعد ذلك بزمن قصير واجه الطبيب المولد الدكتور موريس روتستاين أزمة فى قلة الأسرّة المتاحة ، فأخرج من المستشفى ١٥٠ نفساء كان نفاسهنّ ميسّراً وبغير مضاعفات ، فى اليوم الثالث واليوم الرابع بعد الوضع ، فكانت العاقبة خيراً .

وأراد ثلاثة من أطباء لوس أنجيليس — روزنبلوم وملينكوف وفست — أن يعرفوا أى الأشياء أجدى على المريض : أن ينهض فى اليوم الأول أو أن يبقى فى سريره ثلاثة أيام أو أربعة ، أو أن يمكث فيه أسبوعين جرياً على العرف المعهود . فقسموا جماعة مؤلفة من ٦٠٠ مريض إلى ثلاث طوائف متساوية تصح المقارنة بينها ، فاتضح من النتائج التى خلصوا إليها وبوّبوها أن المريض لا يجديه شيئاً أن يلزم السرير ثلاثة أيام أو أربعة أيام ، بدلا من يوم أو يومين ، وأن المدة القصيرة فى الحالين أجدى وأنفع من المدة الطويلة .

ويظن بعض المرضى أن رجال المستشفى يعجلون إلى إخراجهم منه لقلة الأسرّة المتاحة لطلاب العلاج ، والحقيقة هى أن خير المريض مقدّم على كل اعتبار آخر .

منذ نحو سنتين شاهد مئة من أطباء مدينة ديترويت أول فلم عرض فيه أسلوب « التبكير فى الحركة » وأثرهُ بعد الجراحات الكبيرة . وقد شاهدوا فى هذا الفلم جماعات المرضى يصعدون السلالم ، ويقومون بحركات رياضية ، ويخرجون من المستشفى خلال الزمن الذى كان مقدوراً فيه على المرضى أن يلازموا الفراش عاجزين تتولى الممرضات رعايتهم . وقد صنعت أربع نسخ من هذا الفلم ، بعد أن وافقت عليه الجمعية الطبية الأمريكية ، وترى جماعات الجراحين اليوم لا تكفّ عن طلبه لكى يعرض أمام أعينهم .



الرعب الجاثم على الكرملين

جون فيشر

مختصرة من مجلة "هاربرز"

نهلت بنا السيارة حتى وقفت على الربوة التي تفضى إلى أحد أبواب قصر الكرملين فأطبق علينا ضابط وثلاثة جنود يحملون البنادق السريعة وكلهم من صفوة رجال البوليس السرى — النيكفيدا — التابعين لحرس الأمن الداخلى .

رجال لهم السلطان المطلق على أكبر دولة فى العالم — بيد أنك تراهم فزعين كأنما أصابهم مس من الهلع ، فلم كان ذلك ؟

شرع الجنود فى تفتيش السيارة والضابط يراجع أرقام جوازاتنا على بيان فى دفتره ، ثم رفعها حيال الضوء ليرى الخطوط الشفافة المميزة للورق . ثم قرأ كل سطر فى تأشيرة الدخول السوفيتية ، وقارن بين الصور ووجوهنا ، وأخيراً أذن للسيارة بالسير فى طريقها .

وألفينا ستة جنود آخرين بأيديهم البنادق أيضاً وقوفاً عند نهاية المدخل ، وهو نفق يشق قلعة ضخمة بنيت على طراز قلاع القرون الوسطى ، ووقفت السيارة بجانب سور حديدى يمتد وسط الساحة ، فلما أخذنا ننزل من السيارة

جون فيشر — من محررى مجلة هاربرز ، ومنذ عهد قريب قضى شهرين فى روسيا وكان عضواً فى بعثة أوفدتها هيئة الإعارة والتعمير للإشراف على توزيع مواد الإسعاف فى أوكرانيا . وقد أبيح لأعضاء هذه البعثة ، بمقتضى اتفاق سابق ، قسط غير معهود من حرية التنقل والمشاهدة والحديث ، وكان يصحبهم مترجم أمريكى

جاء أربعة حراس وكلهم من الضباط المسلحين بالمسدسات وفحصوا أوراقنا مرة أخرى .

ووقف جندى من حملة البنادق على كل باب من أبواب البناء الأصفر الذى يحدّ الساحة من جوانب ثلاثة ، وسرنا إلى قصر آل رومانوف العتيق وهو الآن مقر المجلس السوفيتى الأعلى . فقابلنا عند مدخله ثمانية ضباط ، وبعد أن أعادوا فحص جوازاتنا أخذنا حراس آخرون إلى إيوان يطل على الردهة الطويلة حيث يجتمع المجلس السوفيتى الأعلى . وقد رافقنا إلى مقاعدنا أحد رجال البوليس السرى لا يختلف فى منظره وهو فى بزته المدنية ، عن أمثاله فى أرجاء العالم كله . ومن المستبعد أنه كان يعتقد فينا ونحن ثلاثة أمريكيون من ممثلى هيئة الإعانة والتعمير ومعهم مترجمهم ، أننا أشخاص خطرون ، ومع ذلك فقد ظل الوقت كله قابعاً وراءنا بالقرب منا وجلس من تحتنا ١٢٠٠ مندوب يتألف منهم المجلس الذى يصرف أمور الاتحاد السوفيتى طبقاً لدستوره . ومن التضليل الاستعانة بكلمة « مداولة » فى وصف ما يجرى فى اجتماعهم ، إذ وقف فى جوانب الردهة نفر من الحراس فى زيهم الرسمى الأزرق ، وجلس المندوبون تحت أسماعهم وأبصارهم صامتين ينصتون إلى خطب أعدت من قبل ، ثم يعطون أصواتهم بالموافقة كأنهم آلات دقيقة لا تتمهل ولا تتخلف ، فلا مناقشة ، ولا معارضة . ووقف نفر آخر من الحراس عند كل باب وفى نهاية كل رواق ، ولم أر قط مكاناً وضعت عليه الحراسة بمثل هذا الإحكام.

فليس بمبالغ من حكم بأن فى الكرملين قوماً يأخذ الرعب منهم كل مأخذ .

ولقد قضينا الأشهر الثلاثة التالية نجوب أرجاء روسيا الغربية ، فوقفنا على أمارات أخرى كثيرة تدلّ على هذا الرعب الغالب ، أوضحها هذا الجيش الأحمر الذى لا يزال يضم أربعة ملايين ونصف مليون من الجند برغم حاجة روسيا إلى الأيدى العاملة ، فأنت أينما سرت وجدت جنوداً مسلحين وليس من المستغرب أن تجد بجوارك فى السينما فتى يضع بندقيته على ركبتيه . وتزدحم الطرق بسيارات النقل الحربية . وتنطق بهذا الرعب أيضاً معسكرات الاعتقال المعدّة للمدنيين من الروس ، بالقرب من مطار خاركوف ، وكذلك السيارات المكتظة بحرس فى ثياب مدنية وهى تلاحق السيارات الفخمة التى يستقلها كبار الموظفين . ومن ذلك أننا دعونا أحداً من الروس إلى حجرتنا لنشرب الشاى ونتحادث فأبى أن يجيب وهو لا يدرى كيف يعتذر .

ومن الغريب أن تشعر حكومة بأنها فى حاجة إلى مثل هذا الحذر البالغ ، وبخاصة إذا كانت قد سحقت كل أعدائها الأجانب ، وفازت فيما يلوح بمحبة شعبها .

ومع هذا فإن الشعور بالرعب هو من الحقائق التى لها آثارها فى روسيا ، وهو الذى رسم — أو قل مسخ — سياستها الخارجية .

فمن الذى يساوره هذا الرعب كله ؟ ولماذا ؟

إن مرض الخوف الذى استشرى فى الشعب الروسى كله ينبعث من مصدر واحد هو المكتب السياسى الذى يحكم روسيا ويتألف من ١٤ عضواً تحت رياسة ستالين . فمن مقر هذا المكتب فى الكرملين — وقد أحيط مكانه بكتمان شديد — تصدر الأوامر التى تحرك كل شىء فى الإدارة الروسية من الدانوب إلى مضيق بهرنج .

ويعتقد بعض الأمريكيين أن الذى يفزع هؤلاء الرجال إنما هى القنبلة الذرية وحدها ، وأنهم لو عرفوا سرّها لزال رعبهم بين عشية وضحاها ، ولا جرم أن هذا اعتقاد على جانب كبير من السذاجة ، فليس يقوم الحرس على أبواب الكرملين لخشية القنبلة الذرية . ولا يستطيع الغريب ، إذا أراد أن يعرف نيات أهل هذا القصر ، سوى أن يعمد إلى الظن والتخمين ، ولكن الحقائق التى تحت أيدينا تدل على أن هذا الرعب هو فى الأغلب عِلّةٌ ذات خمس شُعَب على الأقل .

أولها الخشية كل الخشية على النفس . فهؤلاء الرجال القابعون وراء الجدران الحمر لا ينسون كيف وصلوا إلى الحكم ، فهم لا يريدون أن يفسحوا الطريق الذى سلكوه لغيرهم من المتآمرين ، وهم لا ينسون أن أكثر حكام روسيا قد ماتوا غيلة ، ولا كيف لقى سيرج كيروف حتفه .

فقد كان كيروف — حينما قتل غيلة رمياً بالرصاص فى مكتبه بلننجراد سنة ١٩٣٤ — أقرب المقربين إلى ستالين ، بل كان خليفته المنتظر ، والذى قتله هو الرفيق نيكولاييف من أعضاء الحزب الموثوق بهم ، وظل ستالين بعد القتل يومين كاملين يكاد لا يثق بأحد ما فى روسيا ، ثم سارع إلى لننجراد ليتولى بنفسه استجواب القاتل . وقبل أن يستقل قطاره أخليت من جميع الناس منطقة حول المحطة قطرها ميل .

وطال التحقيق ثلاث سنوات وأسفر عن كشف مؤامرة تمتد جذورها إلى الحزب الشيوعى والجيش الأحمر والبوليس السرى . ونمّت « التصفية » التى أعقبت هذا التحقيق عن هلع كبير ، ثم صدر اعتراف رسمى بأن بعض الأبرياء قد راحوا ضحية اتساع موجة

الإعدام . وخليق بمثل هذا أن يخلف في القلوب ندوباً وتصميماً على الأخذ بالثأر . أفمن العجيب إذن أن يندر خروج أعضاء المكتب السياسي بين الناس ، أو ركوبهم سيارات زجاجها لا ينفذ الرصاص منه . فإذا كان كيروف لم يجد أماناً ومنزلته هي ما هي ، فمن ذا الذي يجده بعده ؟

وثمة سر آخر له صلة وثيقة بالخلق الروسي وهو موقع روسيا الجغرافي ، فسهولها ممتدة شرقاً وغرباً لا تحميها حدود طبيعية ، وقد تدفقت الجيوش الغازية على هذه السهول ١٤ مرة منذ سنة ١٨٠٠ . ويذكر التاريخ أن منسك وقعت في يد الغزاة ١٠١ مرة ، ولا يحصي أهل كييف عدد المرات التي نهب فيها الأعداء مدينتهم لكثرة عددها . وكان يسبق كل من جاء غازياً جواسيسه وطابوره الخامس .

فنجم عن ذلك أن أصبح من الطبائع الأصلية في الشعب الروسي ارتيابه في الأجانب وقلقه على سلامته ، وقد زادت الحرب الأخيرة هذا القلق . ولقد سرتُ في مدن كثيرة تهدم ٨٠ ٪ من مبانيها لا بسبب الحرب بل بفعل جنود الألمان المدربين على التخريب ، وأقمت على مسيرة نصف ساعة من هاوية بابا يار التي ضمت ١٦٠ ألف جثة جمعت من معسكرات الإعدام الألمانية ، ووضعت طبقة فوق طبقة وسويت الأرض فوقها بالمسْلفة ، ولا تزال بعض العظام تتكشف كلما هبت عليها الرياح . فلا تدهشن إذا رأيت الشعب الروسي ينظر إلى العالم نظرة من اضطربت أعصابه وتملكته الريبة.

والسبب الثالث في مخاوف أعضاء المكتب السياسي هو تأخر بلادهم من الوجهة الاقتصادية ، إذ أن روسيا على رغم تقدمها الصناعي الباهر في السنوات الثلاث عشرة السابقة للغزو النازي، لا تزال أمة زراعية ، وهي على هـــذا متأخرة أيضاً في فنون الزراعة . ولم تحتمل غوائل الحرب وتخرج منها ناجية إلا بشق الأنفس ، وهذا بفضل خطل هتلر في رأيه ، ومعونة الولايات المتحدة . فقد فقدت روسيا جانباً كبيراً من مصانعها ومساكنها وآلاتها الزراعية وثروتها الحيوانية وعمالها المدربين ، وقد أخبرني أحد أعضاء المكتب السياسي أنه لا يمكن تعويض خسارة روسيا إلا بعد انقضاء جيل كامل ، ولا أحسبه مبالغا في تقديره .

وإصلاح مادمر سوف يسير بخطى وئيدة لما أبداه الالمان من براعة في تخريب العدد والآلات . ولم أر في أوكرانيا كلها إلا مركبتين للنقل ، وينقل الفلاحون التراب

على ألواح مستديرة من الخشب ، وكثيراً ما يحمل البناؤون الآجر تحت آباطهم ويضعون الملاط بأيديهم لأنهم لا يجدون دلاء لحمل الطين أو مساطر لتسوية الملاط .

وقاصمة الظهر هي خراب شبكة السكك الحديدية الروسية في النواحي الغربية كلها . ولا يزال القطار السريع من موسكو إلى كييف يتحسس طريقه فوق قضبان أعدّت على عجل ، ويسير بسرعة ١٥ ميلا في الساعة ، وتتكدس على جانبي طريقه مركبات محترقة وعتاد . وليس هناك وسائل أخرى للنقل تتمّ ذلك النقص ، فإن الطرق المرصوفة بالحجارة لا تمتد خارج المدن الكبيرة إلا أميالا قليلة ، ثم تفضي إلى طرق ترابية غير معبدة ، يملؤها الوحل والثلج معظم السنة . فوسائل النقل مشلولة أو تكاد وهذا مما يعوق الانتعاش الاقتصادى أيما تعويق .

ولو نظرنا إلى الأمر من الناحية الحربية لصحّ لنا أن نشبه روسيا بعملاق أصابه الإغماء لكثرة مانزف من دمه . فلو فرضنا أن القنبلة الذرية لم تكتشف ، فذلك لن ينجى الاتحاد السوفيتى من أن يظل عدّة سنوات قادمة عاجزاً عن مجاراة أمريكا فى مقدرتها العسكرية والصناعية . وهذه حقيقة تملأ رجال الكرملين فزعاً وارتياعاً .

والامريكيون يجدون من العسير عليهم أن يؤمنوا بأن فى الناس من يعتقد أن بلادهم مصدر خطر وتهديد ، ومع ذلك فأمريكا فى نظر كل شيوعى أشدّ من ألمانيا النازية خطراً ، هذا والشيوعى المخلص لحزبه لا يجسر منذ يوم ٩ فبراير الماضى على أن يرى خلاف هذا الرأى ، فقد أعلن ستالين فى ذلك اليوم أن لا مفرّ من وقوع حرب أخرى ، وصرح بأبين عبارة أن الهجوم سيأتى فى الأغلب من أمريكا .

ولا يصح هذا الرأى إلا فى عقل مشبع بمذهب ماركس كما يطبق اليوم . فمن مبادئه الأولى : أن العالم الرأسمالى قد كتب عليه أن يظل عاجزاً عن الإفلات من التراوح الدائم بين اليسر والعسر ، وأن كل عسر جديد أسوأ من سابقه ، وحينئذ تلجأ الطبقة الحاكمة الرأسمالية إلى النظم الفاشية واستثارة شهوة الاستعمار وشن حروب الاعتداء ، باعتبارها الوسيلة الوحيدة للخروج من الضائقة الاقتصادية . قال ستالين : « وهكذا جاءت الحرب الأولى نتيجة ناشئة عن أول أزمة بليت بها الأنظمة الرأسمالية للاقتصاد العالى ، كما أن الحرب الثانية كانت نتيجة للأزمة الثانية » .

وينبغى توقع أزمة ثالثة ، لأن تسوية المنازعات الاقتصادية بالطرق السلمية ، كما

يقول ستالين ، « أمر مستحيل تحت ظل الأوضاع الرأسمالية الراهنــة التى وضعت لتحسين الأحوال الاقتصادية العالمية » . وعلى هذا ينبغى للاتحاد السوفيتى أن يعمد إلى تنفيذ سلسلة من مشروعات السنوات الخمس لزيادة إنتاج الصناعات الهامة . وقال ستالين محذراً قومه : « وبهذه الشروط وحدها نستطيع أن نعتبر وطننا فى مأمن من كافة الحوادث المتوقعة » .

ومن المتوقع أن تأتى هذه الحوادث من قبل أمريكا ، لأنها حصن الرأسمالية والدولة الوحيــدة التى تستطيع أن تتحدى قوة السوفيت . ففى إبان الحرب، تعاونت روسيا مع حلفائها فى حدود ضيقة ، ولـكن موظفى الحزب فى روسيا وفى الخارج ظـلوا يتلقون التحذير بأن هذه الصداقة ذريعة مؤقتة ، وأنه لا يحتمل قيام تعاون دائم بين النظامين: الشيوعى والرأسمالى .

وقد وجــد الشعب الروسى أن هذا التحذير له ما يسوغه ، حين ألقى تشرشل خطبته التى طالب فيها بعقد تحالف بين إنجلترا وأمريكا . وقد ندد ستالين بهذه الخطبة ووصفها بأنها « دعوة إلى إثارة الحرب على روســيا » . فشنت الدعاية السوفيتية حملة عنيفة على تشرشل «وأصدقائه الفاشيين فى بريطانيا وأمريكا » ، فاستبد القلق بقلوب الشعب الروسى كله . وقد سألنى بلهفةٍ لفيف من أوساط الناس ممن سئموا الحرب ، وفيهم الفلاح والحمّال والموظف الصغير : « لماذا يحاول هؤلاء الرجال الأشرار أن يقذفوا بالعالم مرة أخرى فى أتون الحرب ؟ »

ولعلّ أبلغ مثل على مقدار رسوخ هذا الاعتقاد فى أذهان الشعب الروسى أن تلميذة فى السابعة من عمرها سئلت عن العمل الذى تطمح إليه فى المستقبل فأجابت : « أريد أن أكون ممرضة فى الجيش الأحمر ، لأعين ، على قتال الفاشيين الذين يحيطون بوطنى من كل جانب» . وستُعدُّ هذه الفتاة خير إعــداد ، فهناك معلمون من الجيش الأحمر فى كل مدرسة ، ويبدأ التدريب العسكرى للفتيان والفتيات من السنة الرابعة الابتدائية . وقد شاهدنا مراراً صــبية لا تتجاوز أعمارهم العاشرة، وهم يتدربون فى الملاعب تدريباً عسكرياً ببنادق من الخشب .

وربما كان رجال البوليس السرى ، الذين لا يدانيهم أحد من الموظفين فى السلطان ، هم الذين بثوا عن عمد هذه المخاوف فى قلوب الشعب الروسى . وقد ظلت هيئة البوليس السرى ربع قرن، سواء أكان اسمها التشيكا أم الأوجبو أم النيكفيدا — وهى تتمتع

بمكانة ممتازة ، فلموظفيها الحق فى الفوز بخير طعام وثياب وسيارات وراقصات ، ولها كل ما تطلب من مال الدولة ، وعتادها من أجود العتاد .

وأهم من ذلك كله أن حياة كل فرد فى روسيا ستالين ، رهن بمشيئة البوليس السرى ، وله أن يطالب فى أى وقت بالاطلاع على الملفات ومحتويات الخزائن والرسائل ، وله أن يفتش غرف النوم والمطبخ ورفوفه ، فحرية المسكن فى نظره محض هراء . وتضم محفوظاته تفاصيل أدق الأسرار فى حياة كل فرد له شىء من النفوذ فى روسيا ، وفيها أدق الأخبار عن حياة الآلاف من الروس فى الخارج ، أما معسكرات الاعتقال التى تضم المعارضين السياسيين فمنها تساق أكبر طائفة من العمال المسخرين .

وقد أنشئت تلك الهيئة لمحاربة خصوم الثورة فى داخل البلاد وخارجها ، وقد قضت قضاء سريعاً على خصومها فى الداخل ، ولكن لا يزال خصومها فى الخارج مصدر خطر كبير ، لاشك فيه . وقد ظهرت أول بوادره فى سنة ١٩١٨ حينما حاولت الدول الرأسمالية وقد ركبها الذعر ، أن تتدخل آملة أن تقضى على النظام الناشىء وهو فى مهده . ولما أخفقت هذه المحاولة بدا خطر اليابان وألمانيا ، وكلتاهما جائعة تستبد بها شهوة ابتلاع أرض جديدة . وقد اجتمع من الدلائل مالا يدع مجالا للشك فى أن ألمانيا والدول الصغيرة التابعة لها قد بذلت جهداً كبيراً لتأليف طائفة من الجواسيس والطابور الخامس فى روسيا ، وقد بذلت النيكفيدا جهداً مشكوراً فى إحباط هذه المحاولة .

ولما وضعت الحرب أوزارها وتم القضاء على كل عدو أجنبى ، رأت هيئة البوليس السرى أن تحافظ على ما تتمتع به من سلطان ومزايا ، بأن تجسم للشعب خطراً جديداً ، كالادعاء بأن حلفاء روسيا السابقين يتآمرون على تطويقها بنطاق رأسمالى . وقد انتشرت الإشاعات بأن أمريكا عبأت فى المنطقة التى تحتلها من ألمانيا جيشاً من أعوان الملكية فى يوغسلافيا ، وأنها تدرب مهاجرى أوكرانيا على التجسس ، وأن بريطانيا تحتفظ بجيش كامل العدد من أسرى الحرب الألمان ، فمثل هذه الإشاعات وغيرها كثير ، تقض مضاجع موظفى السوفيت ، فهم فى فزع دائم .

وهذه الإشاعات وإن تجلى بطلانها ، تجد آذاناً صاغية فى الكرملين ، لأن أعضاء المكتب السياسى يعيشون فى عزلة تامة عن العالم ، فهم قلما يخالطون الأجانب أو أى أحد سوى الحاشية التى تحيط بهم من كبار الموظفين . والنيكفيدا هى أحد المصادر الثلاثة

التي تأتيهم منها الأخبار ، أما الآخران فهما الحزب الشيوعي ووزارة الخارجية السوفيتية.

والحزب الشيوعي ، بفضل تنظيم صفوف أعضائه في كافة البلاد ، معدٌّ خير إعداد لاستقاء المعلومات. وتقارير الحزب ووزارة الخارجية تميل غالباً إلى تثبيت الصورة المشوهة التي ترسمها النيكفيدا للعالم الخارجيّ. فالقائمون بوضعها رجال قد طال تمرّسهم بمبادىء مذهب ماركس حتى أشربت به قلوبهم ، فهم يفسرون كل حادثة بما يطابق رأى حزبهم ، ويفعلون ذلك عن عمد إذ لا يجرؤ أحد من الشيوعيين على تقديم تقرير يخالف رأى البوليس السرى .

والراجح أن أمريكا لا تستطيع في السنين القليلة القادمة أن تزيل ريبة الروس ، فإن قادتهم لا يثقون بما تؤكده لهم الحكومة الأمريكية القائمة اليوم ، ويتوقعون أن يحلّ محل ترومان في البيت الأبيض رجل متعصب يصطنع له أعواناً من الفاشيين حين تحلّ الضائقة الاقتصادية التي يتوقع الروس مجيئها حوالى سنة ١٩٥٠ فيكون خصماً للسوفيت ، وآلةً في يد الماليين الرجعيين أصحاب السلطان الحقيقي في أمريكا، والروس لا يؤمنون كبيرَ إيمان بأن هيئة الأمم المتحدة تستطيع صد أمريكا عن العدوان ، كما لم تستطع عصبة الأمم أن تقف في سبيل هتلر.

فلا جدوى إذن من سياسة ترمى إلى تهدئة الروس ومصالحتهم . نعم إنه لما يسرّ ستالين وعصبة الأمم أن ترضى أمريكا بالإفضاء إليه بأسرار القنبلة الذرية، وبتحطيم أسطولها وتسليم قواعدها في الجزر التي تحتلها، وبانسحابها من أوربة ، ولكن هذا كله لا يعد عندهم ضماناً كافياً لحسن نية أمريكا بل أكبر الظن أنهم سوف يرون في هذا الرضى علامة أخرى على الرخاوة العمياء التي تتصف بها ، فيما يزعمون، كل الأنظمة الحرة في حكومات « الطبقة الوسطى » .

وليس هناك فيما أعتقد إلا وسيلة واحدة لإزالة مخاوف الروس من خطر الغزو ، وذلك بأن تتجنب الولايات المتحدة في السنوات الخمس عشرة القادمة ، أن تقع في براثن أزمة مالية كبيرة ، وأن لا تلجأ إلى الأنظمة الفاشية ، وليس يبالى ستالين ولا عصبته أقل مبالاة بالحجج المصبوبة في كلمات ، فلن يقتنع قادة السوفيت بإمكان التعاون الصادق بينهم وبين الدول غير الشيوعية ، إلا إذا أثبتنا لهم بالفعل أن هناك مجتمعاً من المجتمعات الحرة لا يزال قادراً على الثبات في الأزمات ، فلعلهم حينئذ يبدأون في جعل أمنهم معتمداً على هيئة الأمم المتحدة ، لا على الجيش الأحمر .

يوشك البشر أن يقهروا عدوًّا من أفتك أعدائهم

أنف الجرذان في الرّغام

الفريد سنكس
مختصرة من مجلة "ليبرتي"

« أراهن على أن الجرذان تكره أن تجتاز الطريق عَرْضاً » .

طالما الدكتور كرت بول رتشر يبحث حياة القوارض في عيادة العلاج النفساني بمستشفى جامعة جونز هوبكنز ، فلاحظ أنها لا تنفك تلوذ بجدران حظائرها في سيرها وتتجنب المكان المكشوف . فذهب به التفكير إلى أنّ الجرذان إذا كانت تكره عبور الطريق ، ففي الإمكان القضاء عليها بحملة تشنّ عليها في حيّ بعد حيّ في أية مدينة .

بيد أنه كانت هناك دوافع أخرى حملت الدكتور رتشر على مكافحة الجرذان . فقد وجد في معمله ذات صباح من سنة ١٩٤٠ ستة جرذان ميتة ، وكان كل منها قد أعطى مقداراً ضئيلا من عقار يسمى « فينيل ثيويوريا » ، كان الرأى فيه أنه مأمون العاقبة ، وكان ألوف من الناس قد ذاقوه فلم يؤذهم ، ومع ذلك فقد كان هذا العقار هو الذى فتك بهذه الجرذان . ولم يستطع الدكتور رتشر أن يدرك السبب . ومن ثم بدأ كفاح الجرذان ، وساعد على ذلك نشوب الحرب .

ارسلت إدارة المخابرات الأمريكية فى أوربة تقول إن النازيين يجدّون فى كشف وسائل جديدة لحرب الميكروبات ، منها إطلاق الجرذان المصابة بجراثيم الأمراض على الجيوش والأهلين ، فتهلك من البشر أكثر مما يهلك الرصاص والقنابل . فنشط مكتب البحوث العلمية الأمريكى إلى البحث عن سلاح فتاك بالجرذان . واكتشف العلماء بعد ١٠٨٠ تجربة أقتل سم عرف يومئذ من سموم الجرذان ، فسموه « ١٠٨٠ » ، ثم لزموا الحذر فى اختباره فدل على أن فتكه بها عجيب ، ولكنه يفتك بالبشر والدواجن أيضاً ، فمن أجل ذلك لن يباح للناس تداوله .

لم يكن ثمة عداء بين رتشر والجرذان ، بل كان يبحث فى الغرائز التى تعين الحيوانات المستوحشة على أن تحكم اختيار أنواع الطعام

ومقاديره التى تحتاج إليها لتنمو وتصح . وثمة أدلة كثيرة على أننا نبدأ الحياة بنفس الغرائز العظيمة الشأن التى فى الحيوان . وخطرت لرتشر فكرة فتن بها وهى : لو خفف آباؤنا قلقهم علينا وتركونا أحراراً كالحيوان نأخذ من الطعام ما نأخذ ، وندع منه ما ندع ، معتمدين على غرائزنا ، فلعلنا كنا خليقين أن نصير سلالة أقوى وأذكى من السلالة الحاضرة .

وناط رتشر أمله فى إدراك غريزة الذوق وكنهها بدراستها فى الجرذان ، وهى تكاد تستجيب لها كما يستجيب الناس .

إن طعم الفينيل ثيويوريا أمرّ من العلقم ، بيد أن الغريب فى أمره هو أن بعض الناس لا يجدون له طعماً البتة ، وهذه الخاصية يتوارثها الأبناء عن الآباء ، فأراد رتشر أن يعرف أيصدق هذا على الجرذان ، فمسّ ألسنة جرذان معمله مسًّا ببلورات الفينيل ثيويوريا ، فلم يبد أن أحداً من هذه الجرذان وجد لها طعماً ، ثم ماتت .

فحل رتشر هذه المادة فى ماء عذب وسقى منه جرذاناً أخرى، فشربته كما تشرب الماء القراح ، ولكنها ماتت جميعاً .

وازداد البحث غرابة كلما أوغل فيه، فقد تبين من تشريح جثث الجرذان الميتة أن ظواهر الموت من هذا السم كانت تختلف

كيف يستعمل الآنتو ؟

١ — الآنتو ليس سماً قاتلا لكل القوارض ولكنه سم قاتل للجرذ الشائع فى مصر ، والذى يبلغ تعداده ستين فى المئة من مجموع الجرذان ويكثر انتشاره فى الثغور والمدن . والآنتو لا يؤثر كثيراً فى الفيران المنزلية الصغيرة .

٢ — قد يقتل الآنتو القطط والكلاب والخنازير والدواجن ، إذا لم تتخذ الحيطة لوقايتها .

٣ — أكثر ما تأكل الجرذان بالليل ، فينبغى أن يوضع لها الطعم فى وقت الأصيل ، ويجب أن يكون ثمة سجل دقيق للمواضع التى وضعت فيها الطعوم ، وأن يجمع كل ما لم يؤكل من الطعم فى الصباح ، وأن تحبس القطط والكلاب حيث لا تجد إلى الطعم سبيلا . ويستعمل بعض مكافحى الجرذان صناديق ذات فتحات لا يزيد قطرها على خمسة سنتيمترات تتسع لدخول الجرذان دون القطط والكلاب .

٤ — ينبغى أن لا يرمى الطعم الذى لم يؤكل فى صناديق الزبالة ، فقد تأكلها الدواجن .

٥ — تحذر مصلحة الأسماك والحيوانات الوحشية بالولايات المتحدة من تداول الآنتو دون داع. فيجب أن لا يمس إلا لضرورة ، وأن تغسل الأيدى غسلا جيداً بعد مسه ، وأن لا يترك الطعم مكشوفاً حيث يخشى أن يلوث الطعام .

عن ظواهر سائر السموم ، فقد كانت الجرذان كلها مصابة بما يشبه ذات الجنب ، وكان الماء يملأ تجويف الصدر والرئتين ، حتى كأنها ماتت غرقاً .

فهذا إذن سرٌّ يتحدّاهُ . لقد دلّ البحث المتطاول سنين ، على أن للجرذان غريزة عجيبة تجنبها الطعام المؤذى أو المسموم، فظهر أن الفينيل ثيويوريا لا تجدى هذه الغريزة فى معرفته .

ولكن جرذان معمل رتشر كانت متحدرة من سلالات توالدت فى معمله ، فهل تجوز على الجرذان الوحشية من أبناء عمومتها من هذه الخدعة ؟ فأتى رتشر ببضعة جرذان حية من مزبلة المدينة، فأبت أن تمس أى طعام أو شراب مخلوط بالفينيل ثيويوريا.

كان أكثر الناس عندئذ حرياً أن ييأس ، ولكن رتشر كان يعلم أن الفينيل ثيويوريا مادة من مواد كيميائية قريبة النسب ، فاستحضر من شركة دوبون أكثر من ٢٠٠ مركب من شتى مركبات الثيويوريا ، فوجد أن واحداً منها يفتك بالجرذان الوحشية كما يفتك الفينيل ثيوريا بالجرذان الأليفة ، وكان اسم هذا المركب « ألفا ــ نافثيل ــ ثيويوريا » ، فاختصره رتشر للتيسير وسماه « آنتو » .

كان هذا العقار رخيص الثمن لا يزيد ثمن الرطل منه على جنيه واحد ، ولكنّ جزءًا واحداً من ٢٠٠ ألف جزء من الرطل كان كفيلا بهلاك أعتى جرذ عرفه رتشر . وتحمس رجال الحكومة حين قرأوا تقرير رتشر ، فأمدته بالمال ليمضى فى تجاربه .

كانت كبريتات الثاليوم حتى ذلك اليوم أقتل سم للجرذان ، فوجد رتشر أن أثر الآنتو ضعف أثرها .

ثم كانت التجربة الحاسمة . قد يكون سمُّ الجرذان شديد الفتك فى المعمل ، ولكن أيفتك بها خارجه ، ولعل رتشر كان أيضاً مشوقاً إلى أن يمتحن ما كان يراه من « أن الجرذان تكره أن تجتاز الطريق عرضاً » . كانت المدينة مصابة يومئذ بذعر من الجرذان وكانت المنطقة التى تحيط بالمستشفى تزخر بهذه القوارض ، وقد جىء إلى المستشفى بأربعة وتسعين مريضاً أصيبوا بعضة الجرذان، وكان ٦٠ فى المئة منهم أطفالا رضعاً لم يتجاوزوا الحول الأول . فضجت المدينة مطالبة بعمل شىء حاسم للقضاء على الجرذان ، فاستعان رتشر بذلك على الظفر بما يبغى من معونة .

وقسَّم مكافحى الجرذان — وكلهم متطوعون — إلى فرق ، كل فرقة منها اختصت بربع من ربوع المدينة ، والتمست العون من فرد واحد على الأقل فى كل بناء .

ووزعت الفرق طعومها المسمومة فى أصيل أحد الأيام ، ثم انتشرت فى اليوم التالى تسجل ما حدث ، فوجدت مئة من الجرذان الميتة فى أحد الربوع .

وظل العمل جارياً إلا فى بعض الربوع ، فقد تركت عمداً حتى يعرفوا أتهاجر الجرذان المعفاة إلى الربوع المجاورة ؟ فلم تفعل . ومنذ سنتين ونصف لم ير سكان الربوع التى عولجت منذ البداية جرذاً واحداً ، على رغم وجود الجرذان حية على الجانب الآخر من الطريق .

كان رتشر يعرف أن الجرذان تحرص على إبقاء أبدانها نظيفة . فأخذ المتطوعون يستعملون رشاشات تنفث الآنتو فى جحور الجرذان وترشه فى مساربها ، ممزوجاً بالدقيق ، فإذا وجدت الجرذان على فرائها مادة غريبة ، أخذت تلعقها ، فتموت .

فإذا أتموا ما شرعوا فيه ، بقى ثلاثة من الرجال المدربين فى الربع ثلاث ساعات ليراقبوا النتائج ، ثم يذهب أولئك المتطوعون إلى الربع التالى ، وهكذا حتى ينتهوا من الحى كله . وبعد أن أثبت رتشر نجاح طريقته ، تولت عنه العمل إدارة المدينة ، فجمع منها فى عام واحد ١٥٦٫٢١٠ من الجرذان الميتة ، ويعتقد مبيدو الجرذان أن ما قتل من القوارض يبلغ ثلاثة أضعاف ذلك العدد .

إن الجرذ الذى يستطيع بعد اليوم أن يتحدى رجلا عنده الآنتو ، لجرذ قوى واسع الحيلة .



النعاس

من الخير أن تستلقى على فراشك وتدع ريح النوم الوهنانة تطفىء شموع عقلك . [إرنست بكلر]

أمر الحجاجُ ابنَ القِرِّيّة أن يأتى هندَ بنت أسماء فيطلقها بكلمتين ويمتّعها بعشرة آلاف درهم ، فأتاها فقال : إن الحجاج يقول : كنتِ فبنتِ ، وهذه عشرة آلاف متعةٌ لك . فقالت : قل له : كنا فما حمدنا ، وبِنّا فما ندمنا . وهذه العشرة الآلاف لك لبشارتك إياى بطلاقى .



الشخصيات التي لا تنسى :

سيدة صينية

بقلم بيرل بك
الفائزة بجائزة نوبل
ومؤلفة "الأرض الطيبة" وغيرها

حفلت حياتي بشخصيات لا تنسى ، ولكني حين أكر الطرف في لوح الذاكرة ، أرى على أوضح صورة وجه امرأة صينية وقوامها هي السيدة هسيانج .

وقد جاورتها في نانكين سبعة عشر عاماً وبيني وبينها حائط ، وكانت جدراني تحيط بمنزل وحديقة وأسرة فيها أربعة أشخاص ، وجدرانها تحيط بمنزل ذي طابق واحد فيه خمسون غرفة ، كل اثنتين أو ثلاث أو أربع معاً ، وسلسلة من الأفنية تصل الأروقة ما بينها ، وكان السكان كلهم أسرة واحدة — هي أسرتها — وعدتها اثنان وسبعون شخصاً .

وكنت أجدها دائماً في مكانها المألوف حين أزورها ، وكانت تقيم في قلب البيت في ثلاث غرف جنوبية تطل على رحبة مرصوفة بحجارة كبيرة ملساء ، وفي وسطها بركة ملأى بالسمك الذهبي ، وكان لها قطة ضخمة صفراء تقضي الساعات رابضة بجانب البركة تنظر إلى السمك ، وقد تمد مخلبها فجأة في بعض الأحيان ، فسرعان ما تلمح السيدة هسيانج هذه الحركة ، فقد كانت ترى كل شيء ، وإن كانت تبدو غير ناظرة إلى شيء ما .

فتقول بصوت واضح حازم : « أيتها القطة ! » فترد القطة مخلبها .

وقد سألتها مرة : « ألم تسم قطتك اسماً ؟ »

فقالت وهي تبتسم : « حسبي تسمية أحفادي »

وكان لها من الأحفاد اثنان وعشرون ، وكان لها أيضاً بنتان ، ولكنهما تزوجتا وانتقلتا إلى أسر أخرى ، فهي لا تستطيع أن تعدها من أسرتها . وكانتا تزورانها مرتين في العام ، وتقصان عليها أحوالهما ، وتصغيان إلى رأيها ونصيحتها .

وكانت السيدة هسيانج يندر أن تبرح غرفتها وفناءها أو كرسيها الأسود الكبير المحفور ، وكان مقعده أملس كالزجاج ، وقد ذهب الدهان عن ذراعيه اللتين تريح

يديها عليهما ، وكانت دقيقة الجسم خرعة حتى لقد كانت تبدو كأنها لاتزن شـيئاً ، وكانت تقضى معظم الوقت جالسة تقرأ — الشعر والـكتب والمقالات القديمة والتعليقات.

ولم تعلم بنتها القراءة ، فسألتها ذات يوم عن السبب .

فقالت كالمتهربة : « النساء لا يكن أسعد بالقراءة » .

قلت : « ولـكنك أنت ... » .

قالت بصوتها العـذب الواضح : « أنا أسرف فى القراءة ، وهذا عيب فىّ ، وقد مات أخى الوحيد وأنا صغيرة ، وكان أبى عالماً فعلمنى القراءة ليجد من يحدثه ويفهم الحكمة » .

فسألت : « هل النساء لا يفهمن الحكمة عادة ! ؟ »

فقالت : « ليس ضرورياً » .

وكانت قليـلة الـكلام ، فالحديث معها ليس بالسهل ، ولقد اصطحبت أصدقاء لى ليروا السيدة هسيانج ، فـكنت أراهم تثقل عليهم فترات صمتهـا وسكينتها ، ولـكنى أنا كنت أحب هذه الفترات ، لأنها تتيح لى أن أشعر بوجودها وأنعم به .

وقد رأيتهـا أول مرة فى عيد ميلادها الخمسين ، وكنت قد ذهبت لزيارتها كما تقضى بذلك العادة لما جاورتها ، فلم تستطع أن تقابلنى ، ولـكنى فى اليوم التالى تلقيت دعوة إلى حفلة عيد ميلادها . فلما دخلت وجدت الضيوف مجتمعين حول الموائد ، ودخلت السيدة هسيانج بين اثنتين من خادماتهـا ، فنهض الضيوف ، ونظرنا جميعاً إليها ، وكانت امرأة ذات حسن وجلال — شاحبة اللون ، ضئيلة الجسم ، معتدلة القوام كالسهم ، وعليها ثوب من الحرير الفضى ، وشعرها الأسود الناعم المصقول مشدود إلى الوراء على العادة الصينية القديمة ومجتمع فى عقيصة يمسكها دبوس ذهبى كبير ، وعليه خمار كالشبكة من الحرير الأسود الرقيق . ومازلت أذكر جمال كفها الصغيرة وهى قابضة على رأس عصاها السوداء المصنوع على هيئة التنين .

وانحنت قليلا ، وأشارت بيدها لتجلس ولم تبتسم ، ولـكن عينيها الطويلتين كانتا صافيتين ملتمعتين حتى لقـد بدا وجهها مشرقاً ، وكانت من الجمال بحيث خيل إلى أنها مثال السيدة المـكسال من بنات الأسر الصينية الثرية ، ولم يكن هـذا صحيحاً كما عرفت فيما بعد .

وتمهدت صداقتنا بطاقة من الورد من حديقتى بعثت بها إليها ، على أنى تبينت أنها لاتحفل بالورد وتعده سوقياً ، وتؤثر زهر الجاردينيا ، وكان فى حديقتى عدة شجيرات منه ، فحملت إليهـا بعض أزهاره ، ومنها تعلمت أن هذه الأزهار ينبغى أن تقطف

وندى الفجر عليها ، وقد قالت لى برقة : « إن الشمس تفسد عبيرها ، فيجب أن تقطع عند الفجر وتقدم على الفور » .

فقلت : « ولكنك تكونين نائمة ! »

فقلت : « جربى » .

فنهضت بصعوبة فى بكرة صباح وقطفت ملء كفين من هذه الأزهار وهى مطاولة ، وغلائلها القاتمة تلتمع ، وكان صحيحاً أن أريجها لا نظير له، ومضيت بها إليها ، وكانت جالسة فى فنائها وبين يديها كتاب ومعها خادمة تقدم لها فطورها البسيط وهو من الأرز والخضر المملحة ، وقطعتين صغيرتين من السمك المملح . فلما قدمت لها الأزهار نضح وجهها بسرور قلبها ، ورفعت عينيها البديعتين وقالت : « أرأيت ؟ »

فقلت : « أنت على حقّ »

وعرفت على الأيام الأسرة التى تتولى أمرها ، وكان سلطانها فى البيت مطلقاً ، وكان المستر هسيانج — وهو صاحب ثلاثة من أكبر متاجر الحرير فى المدينة — يقضى أيامه فى مشرب الشاى أو فى أحد دكاكينه ، وكلما نشأت صعوبة ما ، قصد زوجته فى فناء دارها وحادثها .

ولم يتخذ قط خليلة ، فظلت زوجته له كما كانت دائماً ، وكان لا يستطيع أن يخفى حبه لها ، فكان إذا اقترب منها يتغير كل مافيه ، وكان رجلا طيباً وفيه كبرياء ، وقد ألف أن يأمر ، ولكنه كان معها مخلوقاً آخر ، فإذا تكلمت كفّ عما كان يفعل أو يقول ، وأرهف سمعه ، وكان على حذقه ونجاحه فى عمله التجارى ، يعتمد على حكمتها .

وكثيراً ما يقع الشجار فى الأسر الصينية الكبيرة ، فإن كبيرة الأسرة (وهى دائماً امرأة) إذا كانت سيئة الخلق أو عاجزة ، تستطيع أن تحدث المتاعب ، فإن البيت من صنعها، ولكن السيدة هسيانج كانت تستطيع أن تدبر شئون الأمة . وكانت تجلس هناك تقرأ كتبها وتعيد قراءتها، وتستقطر روح القدماء ، وتدبر شئون بيتها الكبير من أولها إلى آخرها .

وعلمت زوجات بنيها كل وجوه التدبير المنزلى ، وكل ماله صلة بالعلاقات الإنسانية داخل البيت . وكانت فى ليلة رأس السنة تدعوهم جميعاً إليها وتعين لهم واجباتهم فى السنة القادمة ، وكانت هذه الواجبات تتغير كل عام ، فلا يمل أحد ماعليه أن يفعل . وما من واحدة من هؤلاء النساء الصغيرات خطر لها أن تبدى رغبة فى تولى عمل ما ، لأن هذا لم يكن ضرورياً ، إذ كانت السيدة هسيانج تعرف كل شيء ، وتستخدم معرفتها فى توجيههن ، فيتفق مثلاً أن تكره إحدى النساء الإشراف على المطبخ ، فإذا

كانت مطيعة وأمينة فى العام السابق ، فإنه لايوكل إليها فى العام التالى ، أما إذا كانت لم تكبح ماهو معهود فيها من سرعة الغضب، فإن المطبخ يوكل إليها على التحقيق .

وكانت السيدة هسيانج لاتؤنب أحداً ، ولكنها تعمل كالقدر بلا رحمة. وقد حدث مرة أن أحب أكبر بنيها فتاة فى مشرب شاى ، وإذا بالفتاة فى إقليم ناء . ولم يقل أحد شيئاً ، وظل الابن شارداً زمناً ، وزهد فى الطعام ، وكان قد أدرك ماحدث ، ولكن ماخير أن يقول شيئاً ؟ وفى أثناء ذلك أمرت السيدة هسيانج بأن يقدم إليه ما يؤثر من ألوان الطعام ، وابتاعت له شيئاً طالما تمناه — فونغراف — وفى هذا العام ولدت له امرأته ابناً ، ونسى الفتاة .

وقد تساءلت زمناً عن بنيها وأحفادها أتراهم يحبونها ؟ ثم تأملت شعورى نحوها فألفيتنى أحبها مخلصة فلماذا ؟ لأنى كنت على يقين من عدلها . فما كان لها هوى ولا فيها تحيز ، وكل ما تفعله كان فى سبيل غيرها لالنفسها ، وكان عدلها لايتفاوت مع الصديق أو الطفل أو الخادم أو الغريب .

ومن الممكن أن يكون العدل « بارداً » حتى إذا بلغ حد الكمال ، ولكن السيدة هسيانج لم تكن باردة ، فقد كان قلبها عظيم المروءة كبير العطف، وإن كان يندر أن يظهر.

وأتذكر أنه حدث ذات يوم أن وضعت إمرأة متسولة فى شارع صغير قريب منا ، وكانت تستجدى فى الشارع الكبير فجاءها المخاض ، واجتمع حولها نفر من الغوغاء كالحيوانات ينظرون إليها ، وذهب بعضهم فأخبر السيدة هسيانج ، فخفت إليها ، وقد روت خادمتها القصة لخادمتى فيما بعد .

قالت الخادمة : « لكأنما كان للسيدة هسيانج أجنحة فى رجليها وعلى كتفيها ، وخاطبت هؤلاء الرجال بصوت من السماء ، فذهبوا يعدون أمامها ، ثم أمرت أن تحمل المرأة والطفل إلى بيتنا » . وقد رأيت الطفل فيما بعد ، لأن المرأة استخدمت فى البيت ، وهو بيت كبير جداً فزيادة شخصين على من فيه لا ضير منها .

وقد جرب كل من فى البيت عدل السيدة هسيانج ، وكان كل من فيه مخلصاً لها على طريقته ، ولكنها لم تتقاض هذا الإخلاص شيئاً قط ، وكان هذا هو مظهر عدلها الأسمى ، وكانت لاتتذكر أعمالها الطيبة ، وتنفر من الشكر .

وتعلم الأولاد أن يصدقوها لأنها كانت تعمل وفق مايقولون ، وكانت تعمل أحياناً وهى تعرف أنهم كذبوا . وأمرت مرة بعقاب حفيدها الرابع وهى تعلم أنه لايستحق ذلك ، وكان أخوه الأكبر قد زعم غير

صادق أنه سرق قطعة نقود ، فتركت الحفيد الأكبر يشعر بخطيئته وتبعته عن عقاب أخيه ، وعلمت الصغير أن يتحمل عقاباً لا يستحقه وأن يتجمل بالصبر ، فأحبها كل من الولدين بعد ذلك .

وكان كل امرىء في المدينة يتطلع إليها . وقد وقعت مجاعة في الشتاء إلى الشمال في نانكين ، فامتلأت الشوارع باللاجئين يحملون أمتعتهم وأطفالهم في سلال مشدودة بالحبال إلى ظهورهم ، فقصد شيوخ المدينة إلى السيدة هسيانج ، كأنما كان هذا أمراً طبيعياً ، فأمرت بأن تصنع مساكن صغيرة من حصير الخيزران إلى جانب أسوار المدينة ، وأن يفتح مطبخ أرز للجمهور في المعبد البوذي ، وقالت بلطف ولكن بحزم : « إن الكهنة لا يكادون يصنعون شيئاً » .

وتبرعت هي بأول خمسمئة غرارة من الأرز ، وفي الوقت نفسه أثنت على المشهور من جود عشر أسر أخرى غنية في المدينة ، فبادرت كل أسرة منها إلى تقليدها والتبرع بمثل ما تبرعت به .

وكنت أرى أن عيبها الوحيد هو قسوتها على زوجات بنيها — بل على النساء جميعاً على الأرجح . وواجهتها بهذا يوماً فقلت : « إني أرى بنيك أحب إليك من زوجاتهم ، أو كأنك تفضلين الرجل على المرأة » .

فتلقت هذا بالمعهود من تفكيرها في صمت ثم قالت : « صحيح أني قليلة الصبر مع النساء أحياناً ، ولكنه ليس صحيحاً أني لا أحبهن » .

فسألتها : « لماذا تضيقين بنا ؟ »

فقالت : « إن للنساء سلطاناً عظيماً » .

ولن أنسى هيئتها حين قالت هذا ، وكان يوماً قائظاً من أيام أغسطس ، وكان صوت الحشرات في الأشجار كصوت الماء إذ يغلي في أباريقه ، وكان الجو ثقيل الوطأة ، ولكن كان هناك شيء حولها كأنه العبير الرقيق الحادّ المسكر ، وكانت ترتدي ثوباً صيفياً من الحرير الأبيض ، وكان الأطفال في الفناء عُراةً يلعبون في بركة السمك ، وكان فناؤها يغص عادة بأحفادها الصغار ، بل بأبناء أحفادها — وهم في الشتاء يبدون ذوي بدانة بفضل الثياب الشتوية الكثيفة — أما في الصيف فهم عراة لوّحتهم الشمس .

وكانت كأنها لا ترى الأطفال ، وقلما كانت تكلمهم ، وإن كانت تراقبهم جميعاً . وكثيراً ما كانوا يقبلون عليها فتضع يدها عليهم فيتكشون عليها لحظة ثم يكرون راجعين إلى لعبهم ، وكانت دائماً هناك ، ولكنها تتركهم أحراراً ، فإذا فعل أحدهم ما لا ينبغي أن يفعل — إذا نزل مثلا إلى ماء البركة أو مص أصابعه — فإنها لا تزجره أو تنهره ، بل تدعوه إليها بلطف ، وتمسح له أصابعه

بمنديلها ، وتسقيه رشفة من فنجان الشاى ، وتقول له : « إذا عطشت فتعال إلى » وتصرفه.

فقلت لها : « تقولين إن للمرأة سلطاناً ؟ »

فقالت : « نعم ، أعظم سلطان على الأرض » .

فقلت ملحة : « كيف هذا ؟ »

فقالت : « سلطانها على الحياة » .

فانتظرتُ ولكنها لم تزد ، وأدركت فيما بعد ، أنها قالت مافيه الكفاية ، بل قالت كل شىء .

ولما جاء اليابانيون أول مرة فى ١٩٣٢ ذهبت إلى السيدة هسيانج ببعض البواكير من الأزهار وسألتها : « ألست راحلة ؟ »

فقالت : « سأبعث بالنساء إلى الريف . أما أنا فلست أخشى شيئاً ، ولم أخف حين اقتتل سادة الحرب ، فما هم إلا رجال ، ومثلهم اليابانيون ، وما أعرفنى خفت الرجال قط » .

وبقيت .

ولم أسمع عنها شيئاً منذ سنوات ، ولكنى لا أتصور أنها ميتة ، فإنها عندى مازالت حية ، ومركز الدائرة فى بيتها ، وفى المجتمع ، وفى قومها ، وفى الصين . على أنها فى جوهرها امرأة — مركز دائرة الحياة نفسها .

انج بنفسك !

إذا سرّك أن تعيش بمنجاة من النقد ، فاحرص على أن لا تقول شيئاً ، وعلى أن لا تفعل شيئاً ، وعلى أن لا تكون شيئاً مذكوراً .

هدية مفاجئة !

كان أحد المؤلفين المشهورين يوقّع اسمه على نسخ رواية جديدة من رواياته فى مخزن كبير ، إكراماً لمريدى أدبه ، فأتاه رجل يحمل نسخة من الرواية الجديدة ، وأيضاً نسختين من روايتين قديمتين أعيد طبعهما لكى يوقّع عليها جميعاً . فسرّ ذلك المؤلف وأثلج صدره .

وقال الرجل كالمعتذر : إن زوجتى تحبّ مطالعة ما تكتب ، فرأيت أن أقدم لها « هذه النسخ الثلاث ممهورة باسمك ، هدية لها فى عيد ميلادها » .

فقال المؤلف : « أتريدها أن تكون مفاجأة لطيفة ؟ » فقال الرجل : « طبعاً ، إنها لمفاجأة ، فقد كانت تنتظر أن أقدم لها سيارة فخمة » . [بنيت سيرف]

اضحك يضحك لك العالم

مختصرة من كتاب "بنيت سيرف"

عاد أحد سماسرة الممثلين في هوليوود إلى بيته على غير انتظار، فوجد أحد موكليه الكبار جادًّا في مغازلة زوجته، فصاح به سخطاً ونبزه بأبشع الألقاب، فلم يأبه له صاحبه الآثم، ولكنه قال: «خفف من غضبك، وكف عن التسخط كأنك تمثل في فلم من الطبقة الثانية، ولنتحدث في هذا الأمر حديث رجل لرجل. أنت تحب زوجتك وأنا أحبها أيضاً. فلنلعب لعبة كونكان، ومن فاز منا ظفر بها. ثم ... ما رأيك في أن نتراهن على كل نقطة بقرشين، لكي يكون للعب شيء من الروعة؟!»

اشترك جون باريمور مرة في تمثيل رواية ظلت تمثل في سان فرانسيسكو مدة أسبوع، فاختار لنفسه يوم الاثنين مطعماً بدا له وافياً بمرامه، فأعجبه كل شيء فيه ما عدا الخبز، فقال للخادمة: «أنا أفضل دائماً الخبز الأسمر»، ولكنها جاءته بخبز أبيض. فذكرها بما يريد يوم الثلاثاء، ولكنها أتته بالخبز الأبيض مرة أخرى، وارتكبت الخطأ نفسه في يوم الأربعاء، وأيضاً في يومي الخميس والجمعة. فلما كان يوم السبت أخذت منه الطلب فقال لها: «أظنني أفضل الخبز الأبيض اليوم». فقالت: «هذا أمر غريب، ألست الرجل الذي يطلب الخبز الأسمر دائماً!».

أخذ القطار يتحرك من المحطة، وإذا شاب يعدو وراءه ويلقي بحقيبته في مؤخرة عربته الأخيرة ويتعلق بحاجزها ثم يقفز إلى القطار، وهو يلهث تعباً، ولكنه بدا كأنه فتح فتحاً مبيناً.

ورآه رجل شيخ يفعل ذلك فنظر إليه كالمزدري وقال: «أنتم شبان هذا العصر لا تحافظون على أسباب العافية. فيوم كنت في مثل سنك كنت قادراً أن أحمل بيدي فنجان قهوة وأن أعدو نصف ميل لألحق بقطار الساعة الثامنة والربع، ثم أحس كأني زهرة غضة». فقال الشاب وهو يلهث: «لعلك تعذرني يا أبتاه، إذا علمت أن هذا القطار قد فاتني اللحاق به في المحطة السابقة!»

أصلب الأحياء عوداً



بقلم برترام ب. فاولز

مختصرة من صحيفة "بلتيمور صنداى صن"

قال فك إنجرام : « الإنسان هو أعسر الأحياء كلها قتلاً ، فهو إذا طوى ضلوعه على إرادة الحياة ، فلن تجد وسيلة لقتله إلا أن ترميه برصاصة فى قلبه » .

وفك إنجرام يتكلم عن ثقة ، وقد عرف صدق ما يقول من حادثة عجيبة حدثت له فى فيافى المنطقة المتجمدة ، فقدّر له أن يخرج منها حياً . ذهب إنجرام شمالاً فى سنة ١٩٢٢ ، وكان شاباً مفتول العضل مرح النفس ، سمع قصصاً عن الذهب الذى يكثر وجوده فى الأرض الشمالية الغربية ، فأذكت نار خياله وألهبت عزيمته . والرجل الذى يطمح إلى البحث عن الذهب ، كان عاجزاً فى ذلك العهد عن أن يستأجر طائرة خاصة يستقلها ثم يهبط فى غير مشقة على إحدى البحيرات التى تحف بتلك الهضبة الواسعة التى تحتوى الركاز النفيس . هذا على أن إنجرام لم يكن يملك مالاً يضيعه على طائرة ، وكذلك مضى فى عربة تجرها الكلاب فشق طريقه فى فياف لم يرتدها الرواد إلى بحيرة الدبّ الكبير ، وهناك اقتنى مركباً صغيراً وجعل ينقل ما تيسر له من شحن .

أنشأ إنجرام فى السنوات العشر التالية عملاً موفقاً ، وضم إليه ستيوارت كرى شريكا له ، وفى سنة ١٩٣٣ كان الرجلان على زورق لهما فى بحيرة الدب الكبير ، وكان الزورق يقطر مركباً مثقلاً بالمؤونة وأحد عشر رجلاً ، وكانت غايته « بورت راديوم » . ولن تجد رجلاً يقدم على رحلة كهذه الرحلة إلا أن يكون كصاحبنا إنجرام شدة بأس وصلابة عود . فهذا هو اليوم السادس والعشرون من شهر أكتوبر ، وهو بدء فصل الشتاء فى الدائرة القطبية ، حيث الحرارة دون الصفر ، وهى تهبط بعدئذ هبوطاً مطرداً .

وبحيرة الدب الكبير بحيرة كبيرة ، وهذه عاصفة عاتية تدفع ماء البحيرة أمواجاً عالية ، فخاطر إنجرام بهذه الرحلة ، عسى أن ينقل المدد الذى تشتد الحاجة إليه قبل أن يجمد سطح الماء .

وكانوا كلما ملأوا الخزانات بالبنزين من براميله ، ينسكب بعضه على ظهر الزورق القاطر الذى تتقاذفه الأمواج ، وصدمه الموج بغتة فماد ، فاندلق بعض البنزين على الأنبوب المتوهج الذى يخرج منه العادم ، وما هى إلا ثوان حتى كان الزورق شعلة متأججة من مقدمة إلى مؤخره .

فأخذ كرى فأساً وضرب بها الحبل الذى يصل الزورق بالمركب المقطور حتى لا تمتد النار إليه ، فالريح كفيلة بأن تدفع المركب إلى الشاطىء ، وحتى يتاح لرجاله أمل فى الكفاح فى سبيل الحياة . واندفع إنجرام إلى حجرة المحرك فى الزورق لكى ينقذ الرجلين اللذين فيها ، فرده جحيم مستعر إلى ظهر الزورق وقد نالت الحروق من يديه ورجليه .

وقبيل أن ينفجر الزورق ويغرق ، نزل كرى وإنجرام فى البحر فى رَمَث يتسع لرجل واحد ، وقد ظلا طافيين نهارين وليلة فى الريح العاصفة الزمهرير ، قبل أن يشرف بهما الرمث الواهن على الشاطىء . وكان الشاطىء منحدراً إلى حد الماء ، وكانت تغشاه على مسافة مئات من الأمتار طبقة من الجمد الذى يبهر الأبصار ، تكوّن من رذاذ الأمواج الذى جمّده البرد ، فطفق الرجلان يحاولان التصعيد رويداً رويداً فى ذلك المنحدر المائل ساعات متوالية ، فلا يكادان يشرفان على بر السلامة حتى ينزلقا مرة بعد مرة إلى حيث كانا . وأخيراً بلغاه ، وقد بللهما الماء إلى الجلد ، وكادا يسقطان من الإعياء .

كانت درجة الحرارة قد هبطت خلال ذلك إلى ٣٥ تحت الصفر بميزان سنتجراد ، فلا بد لهما من نار يصطليانها إذا قدر لهما أن يظلا على قيد الحياة . وكان الثلج يتساقط فيغطى الشجر وعيدانه ، ولكن كان فى جيب إنجرام قطعة من شمعة ، وقلم وعلبة من صفيح فيها عيدان ثقاب ، فعنيا عناية بالغة بجعل خشب القلم قطعاً رقيقة دقيقة ، ثم أشعلا الشمعة وبها أشعلا خشب القلم ، وجمعا أجفّ ما وجداه من حطب ، وتعهدا النار الضعيفة حتى صارت ناراً مستعرة . وأقاما ثلاثة أيام بغير طعام قرب النار يتناوبان النوم ، فقد كانا يعلمان أنهما إذا ناما جميعاً خمدت النار ، ولن يستيقظا بعد ذلك من رقدتهما أبداً .

وقد أدركا بعد الأيام الثلاثة أن رجاءهما الوحيد مرتبط بوجود المركب المحمل بالطعام ، فأقدما مترددين على ترك النار المحبية ، ومضيا على محاذاة الشاطىء فى رحلة عجيبة ، فقد كانا فى منطقة خالية من الأحياء كأنها رقعة على سطح سيار ميت . وكان على خمسين ميلا أمامهما لسان من الأرض داخل

فى البحيرة ، فإذا كان المركب الطافى قد أخطأ هذا اللسان ، فإنه خليق أن يكون طافياً على مئات الأميال منه ، فلا أمل فى الوصول إليه . وكل ما يستطيعانه الآن هو أن يجهدا فى الوصول إلى ذلك المكان عسى أن يكون المركب هناك .

فى اليوم الأول من هذه الرحلة تجمدت قدما إنجرام اللتان أصابتهما النار ، ولكنه مضى متعثراً على قدمين قد أصبحتا حقاً قطعتين من جمد. وقد ظل يسير فى الليالى القطبية الطويلة الداجية ، والأنهر القطبية القصيرة الكالحة ، كأنه آلة تتحرك من تلقاء نفسها ، فلو توقف لغلبه سلطان النوم ، ولو نام لكانت نومة الأبد . وكاد إغراء النوم يغلبه على أمره أحياناً ، ولكن إرادة الحياة العمياء كانت أقوى من البرد الفظيع ومن الجوع .

ثم أصيب كرى بعمى عابر، فصار لزاماً على إنجرام أن يقوده من يده وهما يجاهدان فى المسير . وصار جوعهما عذاباً مبرّحاً ، وخَدِرا من التعب ، ولكن ليس معهما طعام ، ولا سبيل إلى الراحة. ثم لاحظتهما العناية بعيونها لأول مرة ، فقد وجدا المركب على الشاطىء قبيل اللسان وفيه رجاله الأحد عشر ، قد لبد بعضهم إلى بعض حول نار موقدة وراء قماش شمع استذروا به . بيد أن كل الطعام الذى كان فى المركب كان قد غرق ساعة صدم المركب حافة الشاطىء، واستطاع أحدهم أن ينقذ بندقية، ولكن الأمل الذى علق بالبندقية كان أملا ضعيفاً . فالوعول قد هجرت الشمال إلى الجنوب منذ زمن ، وليس فى تلك الأرض البلقع حيوان آخر يمكن أن يصيدوه .

ثم لاحظتهم العناية مرة أخرى . فهناك فى تلك الفيافى الخاوية وجدوا وَعِلا واحداً قد تخلف عن جماعته المهاجرة فصادوه وأكلوا لحمه مسلوقاً . ولا يزال إنجرام إلى يومنا هذا يقول إن رحمة الله عز وجل هى التى ساقت هذا الوعل إليهم.

وعمد الرجال إلى إنجرام وهو بين الموت والحياة ، فدثّروه ، ولكنه لم يفقد وعيه ، فظل يعانى آلامه المبرحة .

كان الزورق قد انفجر يوم ٢٦ أكتوبر، وفى يوم ١٣ نوفمبر ، أى بعد انقضاء ١٨ يوما ، شاهدهم رجال طائرة كانت تبحث عنهم ، فنزلت على سطح البحيرة ، وحملت إنجرام إلى مستشفى فى بلدة أكلافيك عند مصب نهر مكنزى ، فظل هناك معلقاً بين الحياة والموت، ينقلون له الدم ، ثم يوالونه بالجراحة فى إثر الجراحة ، وفى الربيع نقلوه بالطائرة إلى مدينة منيابوليس ليجروا له جراحات أخرى .

فلما مضت سنة ونصف سنة ، كان الجراحون قد بتروا ساقيه تحت الركبة ، وبتروا أيضاً العقد الأولى من ثلاث أصابع في كلتا يديه . وكان قد خسر كل ماله ، فاو عمد إلى بيع الأقلام على قارعة الطريق لما أنحى عليه أحد بلائمة .

ولكنّ إنجرام كان صلب العود ، فقد اتجه إلى الشمال مرة أخرى على عكازتين دون أن ينتظر حتى يتعلم كيف ينتفع برجليه الصناعيتين . لقد كان طموحه راسخاً لم يتزعزع ، وهو لن يرضى أن يذلّ عزة نفسه ، فلا بدّ له من أن يعود لكن يقيم الدليل على أن شياطين الصقيع والجمد لم تغلبه . فتولى عمل وكيل لشركة نقل في بحيرة الدب الكبير .

وفي سنة ١٩٣٧ وجد الباحثون عن الذهب منجماً غنياً في بلدة يلونيف ، فانتشرت أخباره ووفد الناس عليه من كل حدب . وفي غمرة هذا الإقبال استدبر إنجرام عملاً مضموناً في شركة لكي يبدأ عملاً حراً جديداً .

فأنشأ متجراً وأقبلت الدنيا عليه ، فبنى أول فندق صغير في يلونيف ، فلما كثر الناس عليه في المنطقة بنى فندقاً أكبر منه ، وهو يبني اليوم فندقه الثالث ، وهو فندق حديث النظام شيّده على الرقعة التي اتخذت لبناء المدينة . وقد ادخر إنجرام في عشر سنوات أو أقل ثروة كبيرة . وهو الآن صاحب شركة تسير قوافل من السيارات وقطراً من الجرارات ، ويشاركه شقيقه في توليد الكهرباء وتوزيعها ، ولهما نصيب في تعدين الذهب وأعمال الاحتطاب .

وفي تلك الفترة نبذ إنجرام عكازتيه . وجاء يوم فهبط ميزان الحرارة إلى ٤٠ تحت الصفر ، ويومئذ لحق به شقيقه فألفاه يسوق سيارة نقل ضخمة ليقطع بها مئتي ميل فوق سطح البحيرة المتجمدة ، فأنّبه ، فرد عليه إنجرام : « أنا أحسن حالاً منك فرجليّ لن يتجمّدا » .

وهو يقول عن يديه : « إن الأصابع الطويلة لاتصلح لشيء ، اللهمّ إلا للضرب على الآلة الكاتبة وحسب . أما فيما عدا ذلك فيغلب أن تعوقك عما تريد » .

وفي الصيف الماضي مرّ أحد جيرانه بداره فوقف ليحدق فيه ، وكان إنجرام جالساً على الدرج أمام بيته ، وهو ينظر إلى قدميه ويضحك ملء شدقيه . قال : « انظر إلى هذا البعوض اللعين ، إنه يحاول أن يلسع ساقيّ الصناعيتين . إنني والحقّ يقال قد غلبت هذه الملاعين على أمرها » .

وحين أسمع رجلا يتحدّث عن ضعف

الإنسان ، يكرّ بى الفكر إلى ڤك إنجرام . ولو صحّ كلُّ مايقال ، لما قدّر له أن يعيش ، أما وقد ظلّ على قيد الحياة ، فكان ينبغى أن يكون هيكل رجل مهدّم . ولكن القاعدة التى جرى عليها فى الحياة ، لن تجدها فى أى كتاب . إنها القاعدة التى تسيطر عليها روح الإنسان التى لاتقهر ، والتى تحيل البنيان الإنسانى الواهى شيئاً لايغتاله الهلاك.

وقد قال لى أحد أصدقاء إنجرام : « أود أن أملأ سفينة بالذين يحسّون بالعجز لعاهة أو ضعف ، وأنقلهم شمالا إلى يلونيف ، وأروى لهم قصة ڤك إنجرام ، ثم أدعهم ليروا ذلك الرجل وهو يعمل ، وأظن أن ذلك خليق أن يكون أوقع فى نفوسهم وأبلغ أثراً فى حياتهم من كل موعظة أو نصيحة تسدى إليهم » .

نوادر من صميم الحياة

عاد أمريكى من موسكو فروى لأصحابه أن باب السفارة الأمريكية هناك لايوصد أبداً ، فسأله أحدهم دهشةً واستغراباً : « أليس فى موسكو لصوص ؟ »

فقال : « فيها لصوص كسائر المدن ، ولكن عقاب من يُشاهد داخلاً السفارة الأمريكية أشدُّ من عقاب اللصّ » .

كانت مركبة الترام مزدحمة بالركاب ، وكان أمامى بحّار قاعد وعلى ركبتيه قعد بحّار آخر . وإذا بفتاة ساحرة الجمال قد دخلت المركبة ، فما كان من البحار الأول إلاّ أن ربّت على كتف صاحبه الجالس على ركبتيه ، وقال : « هاى جورج ، كن كريم الأخلاق ، قف وتنحَّ عن مقعدك للفتاة » .

ظلّ الشيخ تبز سنين كثيرة مشهوراً فى قريته بأنه رجل عنيد جهم لايرضى عن شىء أو إنسان ، وإذا به ينقلب من الضدّ إلى الضدّ بين عشيّة وضحاها ، وصار آية فى اللطف والدماثة والتفاؤل والرضى . فدهش الناس .

فسئل : ما الباعث على هذا الانقلاب المفاجىء ؟

فقال : ظللت أسعى طوال حياتى وأجاهد حتى أظفر بالعقل الحليم والنفس الساكنة فلم يُجدنى ذلك شيئاً ، فعزمت أخيراً أن أكون راضياً بغيرها .

مختصرة من
مجلة "كوزموبوليتان"

ما سر خيبة الزواج

ليليث وايلى

> ينبغى للفتيات والفتيات الذين يتشوقون إلى الزواج ، أن يدركوا أن الأبوة هى الغرض الأصيل

يدل الإحصاء على أن معدل الطلاق بلغ مبلغاً كبيراً ، وأنه يزداد ازدياداً مطرداً. فما هو سرّ الخيبة فى الزواج؟

لقد أخذ الزواج يتحطم على صخرة فلسفة سخيفة مناقضة للحقيقة والواقع ، أساسها « الحب الخيالى » والمبالغة فى تعظيم شأن « فتنة الجنس » . فحين يبعد الشبان عن بيوتهم ، فى عمل أو حرب ، أتراهم يتخذون مثلهم الأعلى للمرأة نساء هن شطر الأسرة ، أو نساء هن أمهات محسنات ، أى إناثاً يلدن ويشاركن أزواجهنّ فى عمل البيت ومهامه ؟ أم تراهم يعلقون على جدران حجرهم أو ثكناتهم ، صور غوانٍ فاتنات — وخيرُهنّ أفتنهن ؟

وأين صور الأطفال من صور الفاتنات ؟ إن مجرد التفكير فى الأطفال كفيل أن يضايق « الذكر » ، فيقول إن الأطفال يجيئون فى المقام الثانى ، وهم على كل حال من اختصاص النساء دون غيرهنّ . فهو يجهد نفسه ليتمّ له مايفضى إلى الأبوة — ثم تراه يخجل من الأطفال . فالحب الجنسىّ والحب الخيالى ، قد اصطلحا على حجب فطرة الأبوة المتأصلة فى طبيعة الرجل ، حتى لترى معظم الرجال لايعرفون من عاطفة الأبوة أكثر من دعوة بعض أصحابه إلى وليمة حين يرزق بولد .

فمن الواضح أن أول أسباب خيبة الزواج هو أنه ليس للناس من يعلمهم الأبوة ، ومع ذلك فإن الأبوة هى الأصل فى حياة الذكور .

وإذا أردت أن تعرف هذه الغريزة المتأصلة وكيف تطبَّق ، فسبيل ذلك أن تتلقاها من التجربة ومن الملاحظة ومن نشأة الصغير فى كنف أب شديد الحياطة لولده . ولكن الرجل لايكاد يولد له ولد ، حتى ترى كأنه قد نسى أنه أب ، فهو يقضى طول يومه فى مكتبه أو متجره أو مصنعه ، فإذا جاء الليل تراه قد خرج هو وزوجته لسهرة عند صديق أو ذهبا إلى سينما ، وتنوب عنهما فى

رعاية الطفل خادمة أو دادة . فإن لم يكن ذلك وبقى الأب فى البيت ، رأيتـه قد دعا بعض أصدقائه لقضاء السهرة معه ، وإلا فهو منهوك القـوى لا همّ لهُ إلا أن يأوى إلى فراشه . فهو غريب عن صغاره ، أما حب الأب لصغاره وعطفه عليهم ، وإرشاده لهم ورعايتـه الكاملة لأمورهم ، فذلك شىء لا يشغله ولا يعنيه .

وقد عمد أهل الحضارة الحديثة إلى أن يسـتبدلوا بالأبوة والأمومة ، ضروباً لا تنتهى من أسباب تسلية الأطفال ، كالراديو والقصص المضحكة والسينما ورياض الأطفال ، لتكون للطفل بدلا من أبويه . أما مهمة التعليم على عظيم شأنها ، والتى كان يتولاها الرجل إلى عهد قريب ، فقد ألقى عبئها على المرأة .

وكذلك ترى الطفل يقضى ٩٠ ./. من حياته تربيه المرأة، وتعلمه المرأة ، وتراه يقضى نصف هذا الزمن فى كفالة نساء لم يتزوجن ولا حملن أطفالاً . أما الأب فيبلغ من إهماله أداء الواجب عليه ومن جهله عظم الشرف الذى ألقى إليه ، حتى لتراه يتجنب مهمة الأبوة وتبعاتها . ترى كم من رجل فى عشيرتك يبذل بعض نفسه وجهده ووقته وماله مع غيره من الآباء فى تحقيق الغرض الأصيل من الأبوة فى الجماعة ؟ كم رجل منهم يراقب عمل المدارس فى جماعته مراقبة اليقظ المعنى بالأمر ؟ وكم منهم يشارك مشاركة مجدية فى حلّ مشكلات الأطفال الأشرار ؟ وكم منهم يكافح فى سبيل الفقراء والمحرومين من الصغار ؟

وهـذا هو ما هيأته الطبيعـة ليتولاه الذكور فى البيت والجماعة . إنها الأبوة . فإذا ما افتقدت الزوجات بين الأزواج هذا الشعور بالأبوة وتبعاتها ، دبّ فيهن القنوط أو سعين إلى الطلاق .

والتبعة فى خيبة الزواج وانحطاط حياة الأسرة لا يقع على الرجل من جريرتها سوى النصف ، أما المرأة فقد لا تتخذ من فتنة الجنس مقياسـاً للرجل الذى تتزوجه فى الأعم الأغلب ، ولـكن الحب الخيالى يبعث الخفقان فى قلب كل فتاة . ولا نـكاد نرى فلماً أو قصة لا نجد فيها البطلة تطلب هذا الضرب من الحب ، فإذا وجدت ما تطلب كان الزواج ثمّ الخاتمة السعيدة . فالبنات ينشأن على الاعتقاد أنهن متى تزوّجن بلغن الخاتمة السعيدة ، لاريب فى ذلك ولا شك ، وأما البطل فى معظم هذه الروايات فتراه فتى من أصحاب الثراء .

وهـذه الأسـطورة تُغْفِلُ حقائق كثيرة واضحة . فأول ذلك أنك لن تجد وفرة المال ذات أثر فى أخلاق الفتى أو

حسن معاشرته ، بل يغلب أن يكون الزوج الغنيّ مدللا حادّ الطباع . والثانى أن الزواج غاية فى ذاته وهو قول يجافى الحقيقة ، فالزواج كالتخرّج من الجامعة ليس سوى بداية . والثالث أن الزواج لا يكون حافلا بروعة الخيال ، إلا فى عرف الذين نشأوا فى بيئة ترّبى فيهم هذا الضرب من التخيل ، مهما بلغت بهم الخصاصة ورقة الحال .

ما أكثر الفتيات اللواتى يتوقعن أن تكون الحياة بعد الزواج كما كانت فى أيام الخطبة ! فهن يرين أن الزواج يجمع بين روعة أيام الخطبة ، وبين الحب الجنسى والترف المادى . أما الأطفال فأمر هين ينظر فيه فيما بعد . وهذا وهم كأوهام المصاب بالهذيان .

إن الزواج الرشيد يحلّ الرويّة فى بلوغ هدفه محل مرحلة الخطبة والألفة . فالزوجان يدركان أن إنجاب الذرّية وإنشاء الأسرة ، لا ينبغى أن يُعدّ ضرباً من ضروب المغامرة قد يقدمان عليه فى المستقبل ، بل هو السبب الأصيل للزواج . فالحبّ الجنسيّ لا يصلح أساساً للزواج ، والزوج الذى يختار زوجته لأنها فتنته بأنوثتها ودَلالها لن يلبث حتى يجد — إن لم يكن لها خصال سوى الأنوثة والدلال — أن الجمال سرعان ما يستحيل شيئاً مألوفاً مملولاً .

والزنا سببٌ فى كثير من الطلاق ، غير أن الزواج الذى ينتهى إلى الطلاق من جراء ذلك ، لهو زواج بلغ مرحلة الطلاق قبل اقتراف هذه الفاحشة لعناد أو خطل فى أحد الشريكين أو فيهما كليهما .

ثم هناك وهم آخر عن الزواج يتسلط على عدد وافر من الفتيان والفتيات ، ذلك هو اعتقادهم أن لكلّ فتى فتاة خُلقت له وخلق لها . وهذا خطلٌ ولا ريب . فلو كان الأمر كذلك ، لكان احتمال التقائهما أدنى إلى المستحيل على أساس الإحصاء .

وهذه الأسطورة تؤود الزواج وتحمله عبئاً ثقيلا ، لأن الذى يصدقها يتخيل لنفسه زوجاً منشوداً ، ثم يتزوّج ، ثم يقارن ، وهو لا يدرى ، بين الصورة المتخيلة والزوج الحى . فإذا تبين فى صورة زوجه نقصاً عن الصورة التى رآها بخياله ، صار ذلك النقص سبباً يحملهُ على أن يعتقد أن التوفيق أخطأه فى اختيار الزوج ، لأنه لم يظفر بالذى تمناه وتصوره . وكذلك ترى ملايين من الناس يحتملون زواجهم احتمال الصابر المتصبر، مع اعتقادهم أنهم أخطأوا فى تزوّج من تزوجوهم . والحقيقة هى أن الخطأ واقع فى نظرتهم إلى الزواج . وبعض هؤلاء الناس يحوّل خيبة أمله إلى نِقار مستمر ، أو إلى إصرار على ارتكاب الفاحشة ، ولكن

ألوفاً وألوفاً منهم يطلبون الطلاق ، ثم ينطلقون يبحثون ثانية عن الزوج الموهوم الذى خلق لهم وخلقوا له .

ومجمل هذه الآراء فى الزواج يدلّ على أن الناس لم يبلغوا بعد تمام الرشد . فالذكور الذين بلغوا مبالغ الرجال دون أن يتملكهم العزم على أن يصيروا آباءً ، ليسوا رجالاً حقاً . والنساء اللواتى ينتظرن أن يبقين عرائس مدللات ، وأن يصرن أمهات دون أن يكن زوجات أيضاً ، لايزلن فى مرحلة الصغار الغريرات . فالزوجة هى قبل كل شيء شريكة لأب حق ، فهى ليست صديقته ولا أَمَةً ولاصاحبته ولاسيده المطاع .

وإذا كان البيت هو أساس الأمة والجماعة ، وهو أمر لاريب فيه ، فخليق بالناس أن يبدأوا منذ الآن فى إنشاء بيوت حقة وأسر حقة . وقد شاع بين الناس أن الصغار مجلبة للضجر ، وصاروا يتلمسون كل وسيلة للفرار من صحبتهم . فالذين يربيهم أزواج يعتقدون هذا الرأى يصيرون حتما رجالا ونساء يضجرهم من الزواج كل مافيه ، سوى المتعة الحسية . بيد أن الحياة الصالحة ليست طلباً للمتعة . وإذا ماأردنا أن نكون سعداء وجب أن نبحث عن السعادة لا عن اللذة .

وإذا قدر لنا أن نمهد للزواج أن يسلك الطريق المفضى إلى التوفيق ، وجب أن نغير آراء الذين يطلبون الزواج وتقديرهم لمعانى الحياة . فالسؤال الذى يوجهه الفتى إلى نفسه ينبغى أن لايكون : «من أفتن فتاة أعرفها؟» أما الفتاة فلاينبغى أن تسأل : «من هو الرجل الذى يظل يعاملنى ما عشت كأنى عروس ؟» أما السؤال الخليق بأن يفضى إلى الجواب الصحيح مدى الحياة فهو هذا :

« هل هى خير أمٍّ لأولادى ؟ هل هو خير أبٍ لأولادى ؟ »

فإذا أفرغ السؤال فى قالب آخر كان :

« أكان يسرُّنى أن أكون ابنها ؟ أكان يسرُّنى أن أكون ابنته ؟ »

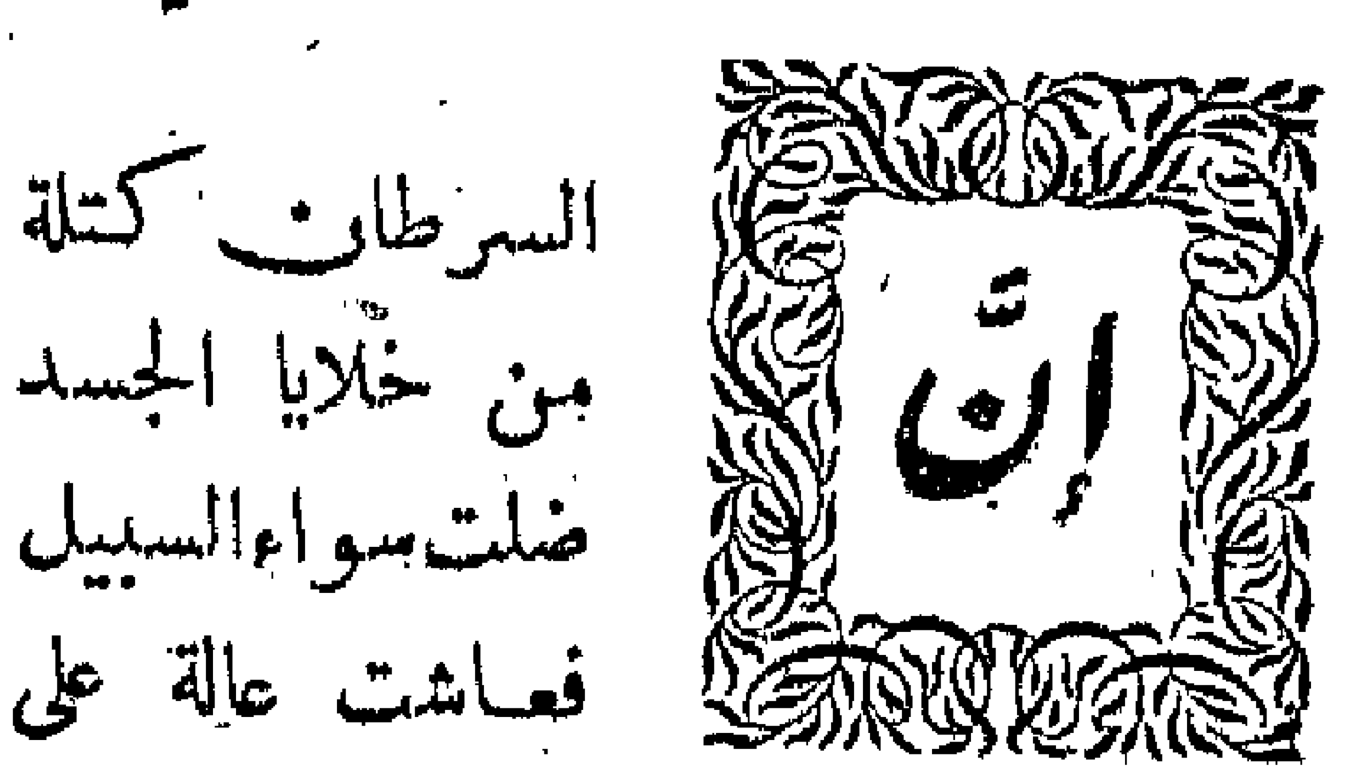
حربٌ !

لو كان لى ولد ، وأراد أن يصير معلماً لاستودعته الله كأنه ذاهبٌ إلى الحرب ، فما أرتاب فى أن الحرب التى تشنّ على التعصب والجشع والجهل هى حربٌ لا تخمد لها نارٌ . وأنا أرى أن الذين يلقون بأنفسهم فى غمارها هم كالجنود فى حومة الوغى ، ربما كتب لأحدهم أن يعيش حتى يرى ساعة نصر فى هذه المعركة الدائرة الرحى .

[جيمس هلتون]

بيان عن السرطان

روسكو ر. سبنسر دكتور في الطب
مدير معهد السرطان



إنّ السرطان كتلة من خلايا الجسد ضلت سواء السبيل فعاشت عالة على الجسم لا تنفعه شيئاً ، أو هو عصبة من قطاع الطرق يتطفلون عليه ، فما الذى دفعها إلى سلوك هـذا الطريق ؟

الخلية هى جوهر الحياة ، ولا حياة إلا فى خلية . والبكتريا ليست سـوى نباتات كلّ منها خلية مفردة ، أما « البروتوزوا » فليست سوى حيوانات من خلية واحدة . وأنا وأنت وكل كائن بشرى تنسم أنفاس الحياة ، قد كنا فى بدء حياتنا خلية واحدة . ولم يكن وزنك وأنت نطفة أكثر من ١٥ جزءاً من عشرة ملايين جزء من الجرام ، كما يقول الدكتور جورج واشنطن كورنر عالم الأجنة الممتاز بمعهد كارنيجى ، فزاد حتى صار يوم ميلادك ثلاثة كيلوجرامات — أى بليونى ضعف ، وأصبحت الخلية الواحـدة ٢٠٠ بليون خلية . ويحتوى بدن البالغ من الناس على ألوف الملايين من الخلايا . وفى أبداننا حكمة خفية تقسم خلاياها ببطء إلى جماعات شتى ، لكل جماعة منها وظيفة تؤديها ، وكل جماعة منها تختلف عن الأخرى قواماً وتركيباً ، ولكنها كلها أمة واحدة يسلكها نظام دقيق فى بنيان مرصوص .

وليس فى الطبيعة شىء أعجب من هذا قط أو أشد منه إعجازاً . ومع ذلك فإن هذه الحكمة تضلُّ السبيل أحياناً ، فلم ذلك ؟ هذا هو لغز السرطان المخيف .

إن قطاع الطرق من البشر هم فى العادة أفراد شذّوا عن الجماعة ، إذ نشأوا فى بيئة فاسدة أرضعتهم لبانها . وثمة كثير من الأدلة على أن خلايا السرطان إنما يعينها على النموّ وعلى الفتك بنا ، شرّ يصيب البيئة التى تنشأ فيها ، والحرب التى نشنها على السرطان لا غرض لها إلا اكتشاف هذا الشر الطارىء ، والفتك بهذه العصبة من اللصوص قبل أن تفتك بنا .

فى كل ثلاث دقائق يودى السرطان بواحد من الناس فى الولايات المتحدة ، وهو

سبب الوفاة فى ثمن الذين يموتون جميعاً ، وفى ربع اللواتى يمتن من النساء بين سن الخامسة والأربعين والخامسة والخمسين . بيد أنك لا تجد جماعةً ما لا تصاب به ، حتى جماعة الأطفال . وفى الولايات المتحدة ١٧ مليوناً من الناس يغدون اليوم ويروحون وقد قضى عليهم أن يكونوا فريسة له ، إذا لم يكتب لنا النصر فى الحرب التى شننّاها عليه.

لقد بلغت نفقات القنبلة الذرية الأولى بليونين من الريالات ، وقد تألب على إنتاجها رجال الجيش وعلماء الطبيعة والكيمياء الممتازون وعدد كبير من المصانع ، واشترك فى صنعها أكثر من ١٠٠٫٠٠٠ عامل . وتم عملها فى نحو سنتين ونصف ، فكانت نصراً يجلّ عن التصديق .

فلم لا نبذل فى كفاح السرطان جهداً كهذا الجُهد ؟ لا شيء ! سوى أننا نعالج فى هذه المشكلة خلايا هى جوهر الحياة ، بدلاً من الذرات وهى جوهر المادة ، وأننا لم نبلغ من إدراك كنه الحياة ما أدركه علماء الطبيعة من إدراك كنه الذرة فى سنة ١٩٤٠ ، فقد كانوا يعرفون شيئاً كثيراً عن الذرة قبل أن يبدأوا جهادهم ، ولكن ماأتفه مانعرفه نحن عن الخليـــة ، وكيميائها ، وعملها ! فنحن لا نعرف عنها أكثر من أن تركيبها أشد تعقيداً من تركيب الذرة بكثير ، وأن الخلية تحتوى على عدد عظيم من المواد العضوية المعقدة وبلايين من الذرات ، ثم إننا نجهل كل شيء عن القوة التى تسيّر الخلية : وهى جوهر الحياة .

أى داعٍ يدعوها للانقسام وإلى إنتاج خليـة أخرى من جنسها ؟ وكيف تعرف خلايا الجسد متى ينبغى لها أن تكفّ عن النمو والتكاثر ؟ وأى يد تهيمن على تحوُّل الخلايا إلى شتى أنواعها فى الأعضاء ؟ وكيف اتفق لخلايا السرطان أن تتحرر من سيطرة الجسم عليها ؟ هذا كله بعض مايجب أن نصل إلى إدراك كنهه .

إن الرأى الذى يزعم أن السرطان مرض معدٍ رأى باطل ، ولكن نزعه من الأذهان عسير . فما عرف قط أن السرطان انتقل من مريض إلى طبيبه أو ممرضته أو أحد من ذوى قرباه . وإنى لأعرف طبيباً واحداً على الأقل أخذ بُضْعة من ورم سرطانى من أحد مرضاه ، فزرعها تحت جلده ، فلم يصب بأذى قط . ولقد قضى باحثو السرطان أكثر من ثلاثين عاماً يجرون التجارب فى عـدد عظيم من الجرذان والفئران ، فما شاهدوا واحداً منها سرت إليه العدوى . فعلينا أن نلتمس سـبيلا آخر غير العدوى لمعرفة منشأ السرطان .

وطالما سمعت قائلاً يقول : « لا يعرف

أصل السرطان أحد »، ولكن ما نسمع ليس هو الحق كله ، فأي سرطان تتحدث عنه ؟ وفى أى عضو هو ؟

هذا سرطان الجلد . إن حدوثه فى السمر أقل كثيراً منه فى الشقر وذوى البشرة البيضاء . وأكثر ما يكون فى الأجزاء المكشوفة — الأيدى والوجوه والأعناق . ومعدل الوفيات من سرطان الجلد فى الجنوب الغربى من أمريكا حيث الهواء جاف ، والغيم نادر يبلغ ضعفيه فى الشمال الشرقى ، وهو منتشر بين البحارة والذين يتعرضون للرياح وعوادى الجو عدداً من السنين .

ويمكن إحداث سرطان الجلد فى فئران المعامل بتعريضها مراراً فى الأسبوع للأشعة فوق البنفسجية (وهى التى تلوح البشرة) ومع ذلك فسرطان الجلد يمكن علاجه والشفاء منه قبل أن يمتد إلى الأحشاء ، هذا إذا بكر المريض فى التماس العلاج عند طبيب قدير . فليس هذا النوع من السرطان من الأنواع الفاتكة .

أما سرطان المعدة والأمعاء ، فهو على نقيضه قاتل فتاك ، ولا يعرف أحد سبب سرطان المعدة . قد يكون سببه أنواعاً خاصة من الأغذية أو عادات معينة فى الطعام ، وقد يكون ناشئاً عن إدرار بعض الهرمونات بغزارة تؤدى إلى إثارة خلايا المعدة فتفرط فى النمو ، وقد يكون مرده إلى نقص فى الفيتامينات ، أو إلى اجتماع سببين أو أكثر من هذه الأسباب ، أو لعله يحدث لعلة نجهل عنها كل شىء .

ولنلق الآن نظرة على سرطان الكبد : إنه أكثر أنواع السرطان شيوعاً فى باتافيا وسنغافورة ومانيلا ، ولكنه على نقيض ذلك فى أمريكا ، حيث تقل وفياته عن سبعة فى المئة من مجموع الوفيات من السرطان . ولعل مرد هذا التفاوت إلى اختلاف الغذاء ، وإن لم نكن من ذلك على يقين .

إن سرطان الكبد يمكن إحداثه فى الجرذان بالمعامل ، وذلك بإضافة بعض الأصباغ إلى الطعام ، ولكن هذه الأصباغ لا تؤثر فى الأرانب والدجاج . ومع ذلك ترى الجرذان تأكل بعض المواد الكيميائية كالكلوروفورم ورابع كلورور الكربون دون أن تصاب منها بأذى ، فى حين أن الفئران إذا أكلت مثل هذا الطعام أصابها سرطان الكبد . فلماذا ؟ وكيف تمر مثل هذه المواد فى معدة الجرذ والفأر دون أن تؤذيها ، ومع ذلك تورث الكبد العلة التى ندعوها بالسرطان . ولن تجد اليوم بين علماء الكيمياء الحيوية من يستطيع تعليل ذلك .

إن علة السرطان كما يبدو لنا الآن تتخذ سبلاً متعددة ، وما من ورمين من أورام

السرطان يتشابهان قط ، وليس ثمة سبب واحد يعقب كل أنواع السرطان . ويكاد يكون من المستحيل فى الوقت الحاضر أن نعرف أثر الوراثة والهرمونات والغذاء فى إحداث السرطان .

أترانا نتقدم نحو هذه الغاية ؟ أجل ، نتقدم ببطء من عام إلى عام . وقد زادت معارفنا عن السرطان زيادة كبيرة بالنجاح الذى أصابه علماء معهد السرطان فى تحويل الخلايا الطبيعية إلى خلايا سرطانية خارج جسم الحيوان . وقد تم هـذا التحويل بزرع الخلايا فى قوارير ، وإطعامها طعاماً صناعياً (عصارة أجنة الدجاج ومصل دم الخيول) ، ثم بعلاج الخلايا الطبيعية النامية بعد ذلك بقليل من أحد مشتقات قطران الفحم ، وهو مادة اشتهرت بقدرتها على إحداث السرطان . فاكتسبت الخلايا المعالجة بعد بضعة شهور قدرةً على إحداثه ، إذا وضعت تحت جلد حيوان من فصيلة الحيوان الذى أخذت منه ، ولكنها عجزت عن إحداث السرطان فى غير فصيلتها . وقد دلتنا هذه التجربة على ما لأنواع السرطان المتباينة من خصائص ، كما دلتنا على أن تحول الخلايا الطبيعية إلى خلايا سرطانية يمكن أن يحدث فى الخلية ذاتها . ويبدو أن هذه التجربة قد أخرجت البكتريا وغيرها من الطفيليات من نطاق الأسباب المؤدية لهذا النوع من السرطان .

ويعتقد الطبيبان جون بتنر وروبرت جرين من جامعة مينسوتا أن نوعاً بعينه من أنواع سرطان الفئران ، كان يحوى دائماً مادة تشبه الفيروسات . وقد يكون لهذه المشاهدة يوماً ما قيمة عظيمة ، بيد أنك لا تجد حتى اليوم دليلا قاطعاً على أن للفيروسات علاقة بسرطان الإنسان .

وقد ألقت أبحاث الدكتور كلارنس ليتل كثيراً من الضوء على الدور الذى تقوم به الهرمونات فى تكوين بعض الأورام السرطانية فى الأحشاء . فقد استأصل الغدد التناسلية من الفئران الوليدة ، فاستطاع أن يحدث اضطراباً بين العوامل التى تساعد على النمو ، فكانت العاقبة أن حدث السرطان فى إحدى الغدد الصمّ الباقية . وتدل مشاهدات الدكتور ليتل على أن حدوث بعض الأورام السرطانية فى الأحشاء قد يكون وثيق الصلة بجهاز النمو .

وعلى نقيض ذلك تستطيع أن تقف نمو بعض الأورام السرطانية فى الأحشاء البشرية ، بالتحكم فى توازن الهرمونات التى فى الجسم . وقد بين الدكتور تشارلس هجنز من جامعة شيكاغو أن إعطاء هرمونات الإناث التناسلية للمصابين بسرطان البروستاتا من

الرجال ، يؤدى إلى ضمور هذا السرطان .
واستطاع الدكتور ماكس كتلر ، مدير معهد الأروام بشيكاغو ، أن يزيد من قوة الراديوم والأشعة السينية على كفاح السرطان بطريقة تدعى طريقة العلاج المركز بالإشعاع. وقد عالج بها أكثر من ٢٠٠ مريض بسرطان الحنجرة فى دوره المبكر ، فكانت العواقب محمودة ، ولكن هذه الطريقة لا يحسنها إلا المهرة من الأطباء الذين طال تدربهم عليها .

وقد بين الدكتور كورنيليوس رودز ومعاونوه فى المستشفى التذكارى بنيويورك ، أن ثمة اضطرابات جوهرية فى التمثيل الغذائى توجد فى مرضى السرطان . واتضح من بعض الأبحاث الكيميائية الحيوية الدقيقة أن سرطان المعدة يصحبه شذوذ فى الكبد والغدد الكظرية : كثرة فى سكر الدم وقلة فى مواده الزلالية وفى فيتامين ا . وقد تؤدى هذه الأبحاث إلى السيطرة على نمو سرطان المعدة بالكيمياء ، ولكن ما من أحد يستطيع أن يقول إنها تؤدى إلى حل لمشكلة السرطان فى سائر الأحشاء ، لأن الأنسجة تختلف بعضها عن بعض فى وظائفها وتركيبها الكيميائى .

وعلينا الآن أن نستكشف أسباب السرطان فى شتى الأحشاء عضواً عضواً ، وليس هذا بيسير ، ولكنه ليس بالمستحيل. ولكى يكتب النصر لنا فى هذه الحرب يجب أن نتوسل بثلاثة أشياء : الوقت والمال والذكاء . فبالمال نستطيع أن نعلم الناس كيف يترددون علينا كل ستة أشهر — مرضى أو أصحاء — لاستكشاف السرطان الكامن . ولو فعل كل امرىء ذلك لاستطعنا بما فى أيدينا اليوم من وسائل أن ننقذ ثلث من يهددهم السرطان بالموت على الأقل .

ولكننا فى حاجة إلى كثير من المستشفيات والمعامل ، وكثير من الآلات العجيبة الحديثة كالمجهر الكهيربى والمطياف الرسام الذى يبين وزن الأشياء التى تفحص به ، ونستطيع أن نتوسع فى استعمال النظائر الذرية التى تنطوى على كثير من الاحتمالات الباهرة . وتذكر أننا فى ارتياد خلايا السرطان إنما نحاول أن نرفع القناع عن لغز الحياة الذى أضل أسلافنا جميعاً . وهذه المخترعات الجديدة هى أملنا الوحيد فى النجاح .

سئل رجل لم لا تثور أعصابه أبداً مهما يكن ما يلقاه من الكريهة فقال : « المسألة مسألة بيئة وعادة . فأنا متزوج ، وعندى خمسة أولاد وكلبان ، وأيضاً قداحة للسجاير ! »
[صحيفة « بوسطن جلوب »]

قد يكون الغضب أو الهم أو الخوف أو الفرح أيضاً مجلبة للخطر .

اضطراب العواطف قد يهلك

جيمس بين
مختصرة من مجلة " فيوتشر "

في سنة ١٩٤٠ وهي آخر سنة قبل فرض قيود الحرب على قيادة السيارات ، قتل في الولايات المتحدة ما يقرب ٤٠،٠٠٠ شخص ، وجرح ١،٥٠٠،٠٠٠ ، وتحطمت ١،٠٠٠،٠٠٠ سيارة . ويتوقع الخبراء بحركة المرور أن سيكون عدد تلك الحوادث أكثر وأسوأ في سنة ١٩٤٦ .

و ٩٨ في المئة من السائقين أصحاب الحوادث في سنة ١٩٤٠ كانوا من مهرة السائقين ، ووقعت حوادثهم في الأغلب والجوّ صافٍ والطرق جافة . فما الذي كان يدفعهم إلى تجاوز حدّ السرعة المقررة ، أو إلى عبور التلال ومنعرجات السبل ، أو إلى اقتحام إشارة الضوء الناهية عن المرور ، أو إلى العدوان على حقّ الطريق لسائق آخر ، أو إلى مسابقة القطارات عند مفترق الطرق ، أو إلى تحدّي الموت بأساليب مختلفة أخرى ؟

ويعتقد الدكتور هربرت ستاك ، مدير معهد قيادة السيارات ، أن معظم حوادث القيادة المهلكة ينشأ من قلق يساور نفس السائق ، فإن قيادة من يساوره انفعال شديد ، كالخوف أو الهم أو الغضب ، وبيلة العاقبة .

ويذهب علماء النفس إلى أبعد من ذلك إذ يعتقدون أن الحوادث تقع لكثير من السائقين لأنهم يتعمّدونها تعمداً وهم لا يشعرون . « فالحوادث » في الواقع محاولات يحاولها المرء وهو لا يشعر ، لكي يقتل نفسه أو يقتل غيره . فهذه السيدة (س) مثلا كان من عادتها أن تقود بحذر بالغ ، ولم تقع لها حادثة قط ، فانطلقت ذات صباح إلى المدينة لتستشير محاميها في أمر طلاقها ، فلما غادرت مكتبه ، غادرته باكية مبلبلة النفس ، وكان عليها وهي في طريقها إلى بيتها أن تجتاز قضيب سكة حديدية . ولقد اجتازت هذا الطريق مئات من المرات ، وكانت تعرف مواعيد القطارات ، وكانت القضبان واضحة تمام الوضوح ، وأطلق سائق القطار صفارة الإنذار ، ومع ذلك فقد اندفعت السيدة مارة أمام القطار مباشرة ، ثم حاولت في اللحظة الأخيرة بجنون أن تفلت منه ، ولكنه أودى بحياتها على المكان . فالهمّ إذن مهلكة للسائق .

أما الغضب فيورث الحماقة : مثال ذلك

أن جريجوري تشاجر هو وزوجته ذات صباح ، فلما غادر منزله صفق الباب بعنف ووثب إلى سيارته ، وجعل يزمجر وهو منطلق بها إلى الطريق ، فاصطدم بسيارة نقل . وقد نجم عن ذلك خسارة بلغ قدرها ٤١٥ ريالاً ، ولزم فراشه أسبوعاً ، وكاد ذلك يودي بحياته. ولقد كان جريجوري سائقاً بارعاً ، وكان الجو صحواً ، وكان يعلم أن السور يحجب عنه الطريق ، فعلى رغم ذلك كله اندفع بسيارته لشدة ما غضب، ولو أنه انتظر خمس دقائق حتى تنطفىء نار غضبه لما وقع له هذا الحادث .

وهذا بيرت خرج هو وزوجته وابنته بسيارته بعد ظهر يوم أحد، فلما قفلوا راجعين إلى المدينة كان الطريق غاصاً بالسيارات ، وكان بيرت حينئذ منهوكا آذاه الحرّ ، فلمح ثغرة من السيارات الزاحفة إلى مرتفع في بعض الطريق ، فسوّلت له نفسه أن يفلت من بين السيارات ، وألح ذلك عليه حتى أعمى بصره عن سيارة مقبلة من الناحية الأخرى للمنحنى ، فما كاد يندفع بسيارته حتى أطبقت عليها سيارة نقل كبيرة، فوقع بينها وبين السيارة التي كان يريد أن يسبقها ، فلقي هو وابنته حتفهما لساعتهما ، وجرحت زوجته جرحاً بالغاً .

وهذا الفتى فيليب ، قال له الطبيب يوم الاثنين إنه مصاب بالسرطان ، فوقع له حادث في يوم الثلاثاء ، وفي يوم الخميس وقعت له حادثتان ، ولم يكن قد وقع له حادث قط قبل ذلك . لقد تسلط عليه الخوف من جراء ما عرف من خبر مرضه ، حتى لم يعد صالحاً لقيادة السيارات .

ومن المتعذر أن نتصور أن يكون الفرح وبالاً على المرء ، ولكن ذلك يحدث أحياناً . فقد كان جرادي في طريقه إلى منزله في الساعة الثامنة صباحاً ، وهو يكاد يطير فرحاً لأن صاحبته رضيت به زوجاً . وكان يعلم أنه يسير بسرعة هائلة ، ولكنه كان يحس في نفسه بأنه يريد أن يسرع ، بل يحس بأنه يريد أن يطير. ولعله كان يسير بسرعة ٦٠ ميلا في الساعة حين صدم عربة اللبن ، فمات السائق ولم يصب جرادي بسوء ، ولكن لاريب في أنه إذا تذكر ليلة خطبته فلن يتذكرها بسرور خالص من الشوائب .

والعواطف إذا ثارت جاءت عواقبها المهلكة على صور شتى ، فأول ذلك أنها تشد العضلات شدًّا ، وتدخل الاضطراب في قدرة المرء على التوازن . والثانية أنها تجهد البدن إجهاداً سريعاً حتى يجد المرء نفسه بعد دقائق من الخوف كأنما قضى يوماً مرهقاً في العمل ، وأخطر ما يكون الإجهاد إذا توليت قيادة سيارتك ليلاً .

والثالثة أن ثورة العواطف إذا قويت مزقت ما في طبيعتك من الحذر والاحتراس، فالغاضب يجازف لأنه عندئذ لا يبالي بشيء، والذي يستولي عليه الخوف لا يدرك أنه يخاطر بنفســه . ومن استحوذ عليه الهم كانت قيادته مفضية به إلى الخطر ، لأن الحزن يجثم على سمعه وبصره . أما الذي يستطيره الفرح فهو كالشارب الثمل ، يخيل إليه أنه بمنجاة من كل سوء .

وليس في وسع المرء ولا شك أن يكفّ عواطفه عن العمل ، ولكن يدخل في طاقته أن يتعلم كيف يفعل إذ أحس بأن عواطفه قد بدأت تتحرك . فإذا أثار غضبك شيء وأنت تقود السيارة ، فقف ثم امش على رجليك ، أو اضرب مقعدك حتى تشفي غليلك ، أو اقذف عمود التلفون بالحجارة حتى تهدأ نفسك ، ولكن احذر أن يحملك الغضب على الولوج بسيارتك في ثغرة ضيقة في منعرج لا تعرف ماوراءه . وسر ببطء إذا ما اعتراك خوف . وإذا كنت قد تفاديت لساعتك حادثاً ولما تكد، فانثن عن الطريق وقف حتى تهدأ نفسك . وإذا استولى عليك الحزن فتذكر أن الحزن يضعف قدرتك على الإبصار ويوهن قدرتك على السمع، ولا تخجل من المبالغة في الحذر عند مفارق الطرق أو في أي مكان تشمّ من قبله رائحة خطر.

وإذا سرّك أن تُبْقي على نفسك وعلى الناس ، فاتبع هذه القاعدة الجديدة في المرور : « إذا ثارت عواطفك فاضطربت ، فضاعف حذرك واحتراسك » .

رهينة البيت !

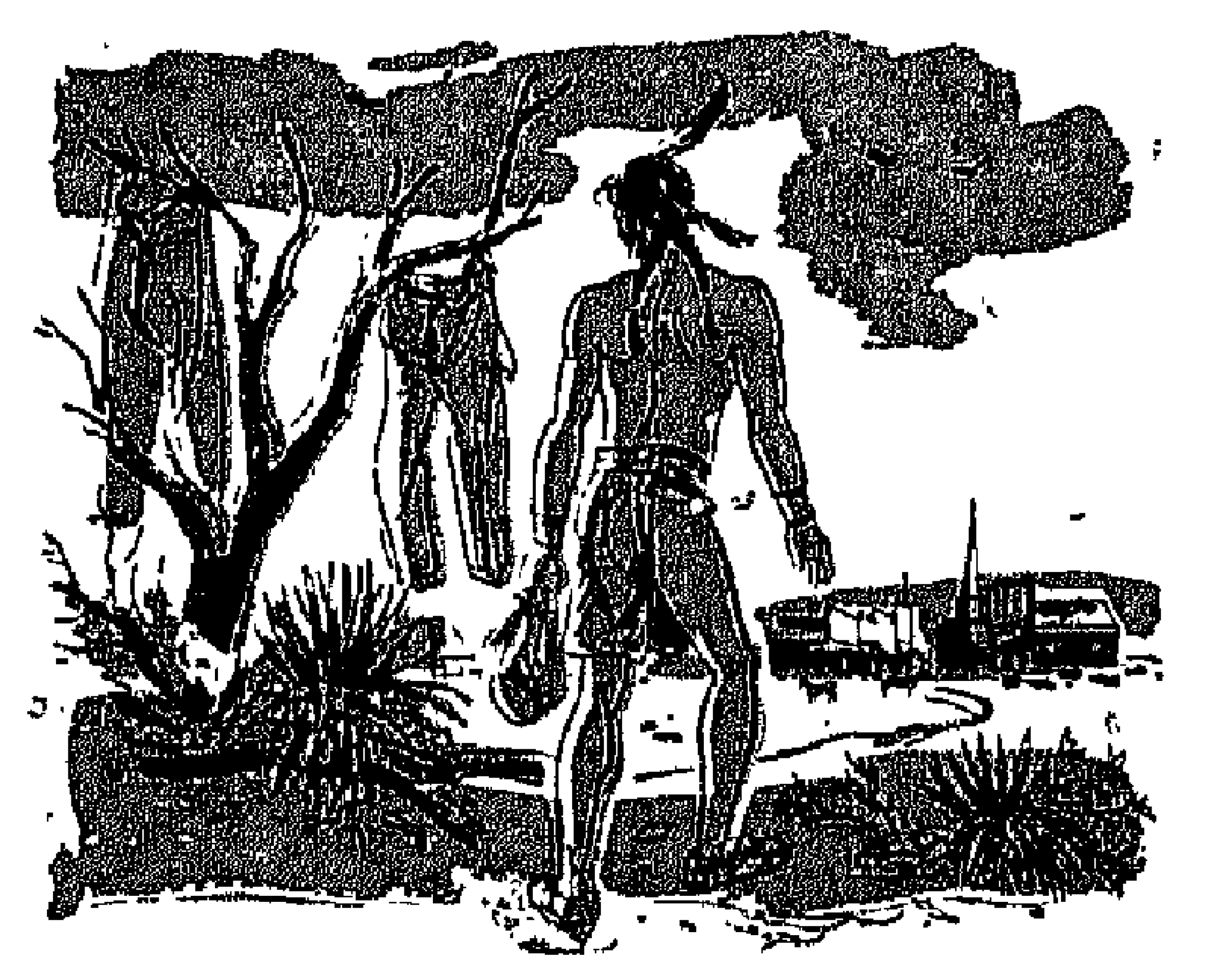
ذهب عروسان أمريكيان إلى سان باولو في البرازيل ، فنزلا في شقة مفروشة في بيت تتخذ الشقق فيه كالحجرات في الفندق . وفي أحد الأيام كلمت السيدة بالتلفون مدير البيت ، لكي يرسل إليها خادماً معه مفتاح يفتح باب شقتها ، فقد ذهب زوجها إلى المكتب وأوصد الباب وأخذ معه خطأ مفتاحه ومفتاحها كليهما ، فهي عاجزة عن الخروج. ومضى نصف ساعة ثم كلمته بالتلفون مرة أخرى وتوسلت إليه أن يفعل ماطلبت. وقد كررت طلبها مراراً خلال ساعتين ولا مجيب ، فكلمت زوجها بالتلفون في مكتبه فهرع إليها، وما كاد يدخل البيت حتى لقي المدير، فعنّفه طالباً منه أن يبين له لم فعل مافعل.

فقال المدير غير آبه : « الشأن شأن السنيور . فإذا أراد السنيور أن يحبس زوجته في الشقة ، فستظل حبيسة فيها حتى يطلق سراحها بنفسه » .

[هوارد كاسبل]

امرأة ثابتة الجنان قهرت برارى فسيحة وصارت أم ولاية بأسرها .

رائدة الروّاد وأخت الرجال



أرين آرنولد

مختصرة من مجلة "أريزونا"

في صبيحة يوم من سنة ١٩٢٩ نزلت طائرة خطأ قرب بيت مزرعة خارج مدينة فينكس بولاية أريزونا ، فرأتها سيدة نحيلة عجوز ، كانت قد خرجت من بيتها دون أن توقظ أهلها لكي تتعهد مهراً وليداً . وكانت حافية القدمين ، وعليها ثوب حمام رثّ بال يكشف عن تطريز القميص الذى تلبسه للنوم ، ولكنها زحفت تحت سلك شائك ممدود وهرعت إلى قائد الطائرة المتحيّر .

فحيته وقالت متلهفة : « أمن الممكن أن يطير المرء في هذا الشيء ؟ لو تمّ لى ذلك لكان احتفالا عظيماً . فهذا يوم ميلادى الثالث والثمانون » .

ونظر في وجهها الذى غضّنته صروف الأيام ، فرأى شعرها أبيض كالثلج منفوشاً قصيراً كشعر الصغار ، ولكنه رأى ببصيرته النار التى لا تزال تضطرم في جوانحها ، وقال : « أنا أعلم الآن أين نزلت . فهذه دار جراى ، وأنت أدالين جراى ولا ريب » .

وكذلك تمّ لهذه السيدة ، التى أقدمت يوم زواجها على أن تركب عربة مقفلة لتقطع بها ألفي ميل إلى الغرب ، أن تطير أول مرة في حياتها وآخر مرة فوق وادى الشمس في ولاية أريزونا . فهذا احتفال في محله . لقد نظرت من علٍ إلى هذه الواحة الغنية التى كانت بين روّادها الأوائل . فهذا نصف مليون فدان من الأرض الصالحة للزراعة قد نزعت من براثن الصحراء ، وهذا واديها الذى تحفّ به جبالٌ حمرٌ وأرجوانية ، تراهُ زاخراً بالحبوب والثمار .

وقد رأت النهر كأنه خيط هبط على البسيطة من السماء ، والترع التى يبلغ طولها ٥٠٠٠ ميل ، كأنها مشبك من حبال الفضة ، أما الدور المتمعة على البساط السندسى فهى المدن . فمدينة فينكس التى أنشأتها وحكمتها

بيد من حديد منذ أربعين عاماً ، قد صارت مدينة نادرة الجمال . ثم نزلت من الطائرة متهللة كأنها طفل فى العاشرة .

وستظلُّ « العمَّة أدالين » فى نظرى رمزاً لجهاد الروّاد وما صنعوا ، فقد كانت الصلة الأخيرة بين عهدنا وذلك العهد الذى اصطلحت فيه أحلام الروّاد البواسل وجرأتهم على فتح قارة . وهذه السيدة لم تقنع بأن تنشىء بيتاً لأسرتها ، فقد كانت عاقراً ، ولكنها صارت أمّ ولاية بأسرها .

كان معظم سكان أريزونا من الهنود والحيوانات المستوحشة حين نزلت بأرضها ، فلما شرع الرجال يكشفون الأرض لكى ينشئوا قرية فينكس فى سنة ١٨٧٠ وقفت فى جمع منهم وقالت : « ينبغى أن تكون المدرسة أول بناءٍ عامّ تشيّدونه ، ثم جيئوا بمعلم فطن وادفعوا له مرتباً حسناً » .

كانت عروساً يومئذ ، ولكنها صنعت ما جعل الرجال الروّاد يقدّرون رأيها حق قدره . فعيّنوا مدرساً ، وجعلوا مرتبه مئة ريال فى الشهر ، يوم كان مرتب معظم المعلمين لا يزيد على ١٥ ريالا إلى ٤٠ ريالا .

وظلت خلال عقدين من الزمن بين ١٨٧٠ و ١٨٩٠ تمتطى صهوة جوادها وتنطلق للتفتيش ، فإذا بلغت مدرسة مبنية بالطين، سألت : « هل حطب النار قليل ؟ وهل بليت كتب التهجئة وصارت رثة ؟ وهل المعلم ضعيف ؟ » ولا تزال مطالبتها بأعلى درجات الكفاية سنَّةً متبعة، وترى مدارس فينكس اليوم بين خير مدارس الأمة .

فلما تمَّ سقفُ المدرسة الأولى جمعت الناس من حولها للدعاء والصلاة ، فقال أحدهم ليس فينا إمام واعظ فردت :

« ولكن كل من فى الوادى يستطيع أن يدعو الله » .

ويوم أخذ اللصوص والمقامرون والسفاحون يفدون على بلدة فينكس الزاخرة بالرخاء ، انطلقت أدالين جراى تعمل . فقد حاول لصٌّ فى ذات ليلة أن يسرق أحد جيادها، فابتدرت البندقية ، ورمته برصاصها على مسافة ٢٠٠ ذراع فى ضوء القمر فأردته ، ثم عالجت جرحه ، وأطعمتهُ ، ودلته على الطريق . وقالت بلهجة الآمر : « اذهب، وإذا رأيتك مرة أخرى فى أريزونا فسأرميك ولن أعالجك يومئذٍ » .

وفى ذلك الأسبوع سرق مال رجلين من الفلاحين وقتلا، فلم يُعْنَ أحد بالأمر ، فدعت أدالين عشرة من رؤوس القوم وقالت لهم وهى تتحداهم : « ألا تجدون أيها الرجال شجاعة تدفعكم إلى تطهير البلد ؟ أتريدوننا نحن النساء أن نتسلم الزمام بأيدينا فى هذا الوادى ؟ »

فركبهم الجزىُ ، فهمّوا وألقوا القبض على خمسين من الخارجين على القانون ، وعرفوا الرجلين اللذين قتلا الفلاحين ، فشنقوهما على شجرة . وجيء بسائر المجرمين إلى حيث علقت الجثتان ، فالتمس كلٌّ منهم الرحمة ، فأعطوهم زاداً وماءً وأمروهم أن لا يكفّوا عن العَدْوِ حتى يعبروا حدود الولاية ويفارقوها .

نشأت أدالين فى خفض من العيش فى مزرعةٍ قبل نشوب الحرب الأهليـة الأمريكية، فلما وضعت تلك الحرب أوزارها كان الدمار قد لحق بالمزرعة ، وصارت الولايات الجنوبيـة جميعاً كئيبة مقطوعة الرجاء . وكانت أدالين نوريس يومئذٍ فى التاسعة عشرة من عمرها .

وجاء يزورها ذات يوم صديق قديم يدعى هاريسون جراى ، بعد أن عزم أن ينطلق غرباً نحو كاليفورنيا ، فهمس فى أذنها : « ما أجملك وما أعظم كبرياءك ! كل شىء فى الغرب صافٍ حافلٌ بالأمل والرجاء ، وفى وسعى أن أجمع بعض البغال . . . وعربةً . . . لو . . . »

ومضت بهما العربة فى قافلةٍ انفصلا عنها بعد أن دخلت وادى الشمس سنة ١٨٦٨ ، وكان جراى قد سمع عن الثروة المعدنية فى أريزونا ، فأراد أن يبحث ، ولكن أدالين التى نشأت فى مزرعة قالت : « إن التربة أوفر ذهباً من الجبال . ثم انظر إلى هذه الترع القديمة المهجورة — إن سكان هذه الأرض كانوا ، ولا ريب ، يروون مئات من الأفدنة هنا » .

والحقيقة أن القدامى كانوا يروون ألوفاً من الأفدنة ، وهذه ترعهم التى طال عليها الجفاف تبلغ سعتها ٣٠ قدماً ، وعمقها ست أقدام ، وتمتدُّ مسافة عشرين ميلا من النهر — نهر سولت . ويوم عاد جراى مخفقاً من رحلة رحلها ليبحث عن الذهب ، كانت الخضر التى زرعتها أدالين قد صارت دانية القطوف ، فربط جراى بغالهُ إلى محراث وشرع يعمل .

كان قد سبقهما إلى الوادى رجل عَزَب مغامر يدعى جاك سويلنج ، وكان يعيش فى كوخ من عشب ، وكان كسولاً يدمن الخمر ، ولكنه تبين ما يبشر به ريٌّ هذه الأرض . فتعاونا معه على تطهير ترعة قديمة . وكان جاك لا يعمل فى تطهير الترعة إلا قليلا ، ولكنه كان يذهب إلى الصيد فيعود بالأيايل والسمانى والحمام ، وكان يعزف على القيثار .

وكذلك تعاونت بغال جراى وبندقية سويلنج وقيثارهُ على تحويل ماءِ ذلك النهر إلى مزارع ناضرة .

وقد سخر منهم المارّة أولا ، ثم بدأوا يعنون بما يفعلون ، فصاروا يحطون رحالهم هناك . فما مضت سنة حتى راجت البلدة وعظم شأنها ، وفى نهاية السنة الثانية كان فيها مطحنة ومدرسة وكنيسة وحانتان وحدّادٌ وحانوتىٌّ وفندق ومتجران وجزّار .

وذهبت أدالين إلى الجزار فحملته على أن يستأجر غلاماً هنديًّا ليذُبَّ الذباب عن اللحم بمروحة ، وتواضعوا على أن يأخذ كل منهم بيده ما يريد من اللحم . فكان الجزار يعلق اللحم أمام داره ويغرز فيه سكيناً ، فإذا جاء رجل يطلب لحماً اقتطع بيده ما أراد ، ثم يصيح بالجزار من الباب : « قيِّد على ثمن سبعة أرطال » .

وقد أعدت مئات من الأفدنة للزرع بمجرد تحويل الماء من الجبال إلى الأرض الظامئة ، فحسنت حال السكان ، وآن الأوان لكى يطلقوا اسماً على قريتهم . وإذا أحدهم ، وهو إنجليزى مثقف يخطبهم فيقول : « جاء فى الأساطير أن طائر الفينكس نهض من رماده ، ومن رماد الحضارة البائدة فى هذه الأرض ستنهض مدينة عظيمة ، فقد كفل هذا الوادى فى الزمان الغابر عيش ألوف من الناس ، وسيكفله مرة أخرى . فليكن اسم المدينة فينكس » .

فقال أحد الفلاحين : « هذا هراء » .

فقالت أدالين آمرة : « اسكت ، إنه على حقّ ، وأنا مستعدة أن أراهن بكيس من البطاطس على أن سوف يمتدُّ بى أجلى حتى أرى سكانها عشرة آلاف نسمة » .

ويوم حلقت أدالين بالطائرة ، كان سكان فينكس مئة ألف وعشرة آلاف نسمة ، وهم اليوم نحو ٢٠٠ ألف نسمة .

وقد حدث ذات ليلة ، وكان زوجها غائباً فى سفر ، أن جاءت عصابة من الهنود الحمر لتسرق بغالها ، وكان إسطبلها حجرة طويلة مبنية بالطوب ، وسطحها مسطحاً تحفّ به جدران كجدران الحصون . فظلت من الساعة العاشرة مساء إلى أن أسفر الصبح جالسة وبندقيتها فى يدها .

قالت : « وكنت أرمى أحدهم فى ناحية ، ثم أرمى الآخر فى ناحية أخرى . ولم أدر كم قتلت منهم ، فقد كانوا يحملون قتلاهم وجرحاهم ويذهبون بهم . فلما عاد زوجى كانت البغال جميعها حيث تركها » .

ثم شرع الفتيان من الهنود يفدون على المدينة من أجل التجارة وهم عراة إلا مما يستر العورة ، فساء ذلك النساء البيض ، فجعلت أدالين تزور كل بيت وتأخذ منه ضريبة : سراويل قديمة . ثم دعت فتاة من الهنود لتترجم لها ، فقالت :

« قولى لفتيان الهنود الحمر إنه إذا سرّهم أن تظلّ جلودهم سليمة لم يمزقها الرصاص ، فخيرٌ لهم أن يستروها ساعة يسيرون فى شوارعنا » .

وقد علقت السراويلات على شجرة عند حدود المدينة ، فصار الهنود العراة يقفون عندها وهم فى طريقهم إلى المدينة ، فيلبسونها ثم يخلعونها ويعلقونها على الشجرة بعد انصرافهم .

وباع جراى ذات يوم منجماً له بستين ألف ريال قبضها نقداً ، فحملتهُ أدالين على أن يبنى لها بيتاً فخماً باللبن الأحمر من طابقين ، وجعل ارتفاع حجره ١٤ قدماً ، وكان يضمُّ سبع حجرات للنوم ، غطيت جدرانها بخشب البلوط الفاخر ، وركّب فى الكُوى التى فوق النوافذ والأبواب زجاجاً ملوّناً ، وأنشأ فى الأرض التى تحيط بالبيت بركة للسباحة وأخرى للزوارق ، وزرع نخيلا باسقاً وبساتين من ورد ، وبسط بسطاً من الحشائش السندسية لشتى الألعاب ، وبنى إسطبلات وجاء لها بجياد كريمة .

فكان كلُّ هذا توطئة لفنادق أريزونا الفخمة الحديثة التى تتقاضى ٦٥ ريالا فى اليوم . ولكن « العمة أدالين » كانت مضيافة ، وكانت تعلم أن الروّاد يتوقون إلى مناعم الحضارة ، فعزمت على أن تتيحها لهم ، فصار بيتها مَثابةً لحياتهم الاجتماعية والسياسية .

وقد تزوج فى هذا البيت مئات ، فلا يأخذك العجب حين ترى فى أريزونا مئات من الفتيات والنسوة تسمين باسمها . وقد عمدت الفتاة الهندية التى ترجمت لها يوم إنذار العراة ، إلى إطلاق اسم أدالين على ابنتها . وقد سميت به أيضاً حفيدتها وابنة حفيدتها ، ذلك بأنه يوم دنا ولاد الهندية أخذتها العمة أدالين فى بيتها ووضعتها فى سرير بين ملاءتين من أنصع الكتان بياضاً ، ثم استقبلت طفلتها بيديها . وقد أرسل حاكم المقاطعة مرةً فتاة حاملاً فقطعت مسافة ٢٤٠ ميلا حتى تلد فى بيت أدالين ، « لأن ذلك سيكون مفخرة لها فى قابل الأيام » .

قالت : « وقد أتت علينا أيامٌ كان عدد ضيوفنا أربعين أو خمسين ، وكنا نغتبط بذلك ، فإذا ما امتلأت أسرّتنا كان بعض الرجال ينامون فى الشرفة أو فى فناء البيت ، وكانوا يجيئون ومعهم لحم الجاموس والغزال والديكة الرومية ، وكنا نعالج مرضانا وندفن موتانا ، ونجمع بين الأحباب فى حفلات كبيرة حتى نعينهم على الزواج . وكان الحكام ورجال المجلس النيابى وصغار الساسة المغفلين يرسمون خططهم حول مائدتنا . وكان

رعاة البقر وعمال المناجم وصيادو الحيوان والجنود، يجلسون ساعات متواصلة ينظرون فى داخل البيت ، وكنت أراهم يلمسون قطعة من الكتان المطرز كأنها توشك أن تتحطم من مسهم، أو يأخذون بأيديهم كتاباً كأنه سفرٌ مقدَّس . وكنت أعزف لهم وكانت عيونهم تلتمع كأنها عيون النمور . وقد دنا منى مرة رجل ذو لحيـة كثة من رجال الجبال ليشكر لى ضيافتى ، فقال متلعثماً : « مسزجراى ، يسرّنى أن أخلع من ثروتى حتى أظفر منك بشمّة » .

وأنا أقدّر شعوره فقد وجدها طيّبة الشّذا فى خصالها وأخلاقها ، كما وجدتها أنا بعد نصف قرن من الزمان .

ويوم شيّخت صار الجميع يدعونها : « العمّة أدالين» ، وكانت تجلس فى كرسيها ساعات متوالية شاخصة إلى الأفق البعيد . فقد بدأت ناطحات السحاب تشيد حيث حملت أدالين الرجال الأوائل على بناء المدرسة الأولى . ولا ريب فى أنها كانت تستعيد الماضى فتعيش فيه كما يفعل كثيرون من الشيوخ . وقد تجرأت على أن أسألها ذات يوم : «فيم تفكرين ؟ »

فردّت على الفور : « أفكر فى أمر هذا الماء . فنحن ننتفع اليـوم بكل ماء نهر سولت ، ولكنّ نهر كولورادو أعظم وأوفر ماء ، وأنا أراهن على أنهُ فى وسعنا أن نشق ترعة يجرى فيها ماء الكولورادو إلى أرض وادينا ، فالناس فى حاجة إلى قدر أوفر من الخضر ، ولو كانت لى قوتى الماضية . . . » .

أهى تستعيد الماضى لتعيش فيه ! كلاّ فقد كانت ترود آفاق المستقبل ، حتى يوم كانت فى الثمانين من عمرها . وهذه صحيفة ملقاة أمامى ، فأقرأ فيها عنواناً : « ستضاعف مساحة أرض الوادى الصالحة للزراعة بريها من ماء نهر كولورادو » ، فقد تحقق حلم أدالين الثانى فى بسط ظلال العمران .

ويوم مات زوجها نسيت العمة أدالين حزنها فيما أخذته على عاتقها من واجبات ، وهذه هى الطريقة التى لا طريقة غيرها لنسيان الحزن . وقد كانت تحبُّ الناس ، ولا سيما « الأشرار » الذين كانوا أعظم الناس حاجة إلى الحبّ .

وقد جرّبت أن تشفى سويلنج من إدمانه الخمر والمخدرات ، ومرضته فى بيتها . وهذه المرأة التى كانت لا تحبُّ الهنـود جماعة واحدةً ، كانت تحبهم أفراداً أفراداً . ويوم سرقت إحدى الهنديات ثوباً من متجر فى فينكس ، مضت إليها أدالين على جواد وقطعت مسافة ٣٢ ميلاً ، وزارتها فى كوخها ، وحملتها على أن تعيد الثوب المسروق ، ثم

أهدت إليها ثوبين جديدين وحذاءين أيضاً.

وفى يوم من أيام سنة ١٩١٥ دنا منها فى بستان وردها راعٍ وفى يده قبعتهُ ، ولبث ساعة طويلة يحدق ، ثم قال : «اسمى لا يهمُّ يا سيدتى ، ولكنَّ أبى جاء بى إلى هنا سنة ١٨٨٥ بعد أن ماتت أمى ، وقد حملتنى أنت فى حضنك وكلمتنى ذات صباح . وهذا شىء لم يقع لى ، لا قبل ذلك ولا بعده ، وقد ألحت علىّ رغبتى فى أن أجىء لأزورك » .

كان قد اقتصد مئة ريال فأهداها إليها ، فقبلتها وقالت : « متى أراد امرؤ أن يوفى ديناً من ديون القلب ، فدعهُ يفعل ، فقد كان الراعى فى حاجة إلى أن يعطينى ، وكنت أنا فى حاجة إلى أن أنال شكرانهُ ، فأحسسنا كلانا بالحرية والرضى » .

وقد ماتت أدالين منذ عشر سنوات ، فقيرةً معدمة لكثرة ما بذلت من مالها ، كما بذلت من عطفها وذكائها ، ولكنها ماتت غنية بنفسها ، وقد قالت لى فى آخر كلماتها التى أضنُّ بها كأنها كنز :

« اسمع يا بنىَّ ، إن السبيل الوحيد المفضى إلى السعادة ، هو أن تجيل نظرك فى الناس بغير أن تنظر إلى ثيابهم أو ظاهر أعمالهم ، بل انفذ ببصرك إلى باطنهم وغَيْب قلوبهم ، ويومئذ ترى أنه فى وسعك أن تحب كل امرىء منهم كما تحب نفسك » .

نهجٌ عربىٌ للحياة

قيل لخالد بن صفوان : مالك لاتنفق فإن مالك عريض ؟ فقال : الدهر أعرض منه . قيل له : كأنك تأمل أن تعيش الدهر كله ؟ قال : ولا أخاف أن أموت فى أوله .

قال رجل لعمرو بن عبيد : إنى لأرحمك مما تقول الناس . قال : أفتسمعنى أقول فيهم شيئاً ؟ قال : لا ؟ قال : إياهم فارْحم .

قال الأصمعى : رأيت أعرابياً قد أتت له مئة وعشرون سنة ، فقلت له : ما أطول عمرك ! فقال تركت الحسد فبقيت .

الوليد بن مسلم عن الأوزاعى عن بلال بن سعد قال : أخٌ لك كلما لقيك أخبرك بعيب فيك ، خير لك من أخ كلما لقيك وضع فى كفك ديناراً .

ولادة الحيوان وأولاده

ريموند دتمارز

مختصرة من مجلة "التاريخ الطبيعي"

تضع الحيـــوانات أولادَها وتتعهّـدها بأساليب مختلفة متباينة، حتى يخيل للمرء أحياناً أن الطبيعة تأتى ما تأتى على غير هُـدًى وبغير عقل. أفرأيت إلى ولد الجاموس وولد الغزلان كيف ينزل من بطن أمه ساعياً على قوائمه، على حين ترى ولد الدببة والسباع تولد عمياء عاجزة كل العجز عن الحركة؟ أفيكون عفواً واتفاقاً أم تقديراً وتدبيراً أن يتمّ نموُّ جنين الفيل فى ٢١ شهراً وأن يتم نموّ الفأر فى ٢١ يوماً؟ أو أن ترى أنثى عجل البحر التى يبلغ وزنها ١٠٠ رطل تضع جنيناً وزنه ٢٠ رطلا، على حين ترى أنثى القَـنْـقَـر التى هى أضخم منها تضع جنيناً هو أضأل من خنصرك؟

دخلت ذات مرّة حديقة الحيوان فوقف بى الحارس على وَبْرٍ لم يمض على ولادته أسبوع، (والوبْر حيوان كالأرنب الهندى)، فإذا هذا الصغير يبلغ ربع أمه فى الجسم، وإذا هو متوقّـد يتوثب هنا وهنا. فانصفق الباب فقفزت أمه إلى مكان يعلو على الأرض متراً، وإذا صغيرها قد فعل كما فعلت. ورأيت بالقرب منه أنثى قَـنْـقَـر فى مثل ارتفاع قامة الإنسان، وقد أطلّ من الجراب الذى عند بطنها رأسُ وليدها الذى صار عمره أربعة أشهر ولم يزل عاجزاً عن الحركة. كان طول هذا الوليد حين وضعته بوصة واحدة، وكان وزنه جزءًا من ثلاثة آلاف جزء من وزن أمه، فما أبعد الفرق بينه وبين ولد ذلك الوَبْر!

وذوات الحافر والظلف لا تلد صغاراً عجزة، ولا صغاراً عمياناً، وبعضها تضع أولادها فتمشى لساعتهـا، أما آكلة اللحم فالأصل فى أمر أولادها أن تولد عاجزة كل العجز عن الحركة. وأنثى الدبّ التى يبلغ وزنهـا ٣٠٠ رطل تلد فى البطن من وليد واحد إلى أربعة، كلها أعمى أمرط لا شعر عليه كأنه قطعة لحم لا تزيد فى حجمها عن مواليد القطط.

وقد يظن المرء أنه كلما كان الحيوان أضخم كانت مدة تمام نموّ صغاره أطول، فولد الفيل مثلا تحمله أمه جنيناً نحو سنتين، وهى أطول مدة فى ذوات الثدى، ويكون وزنه حين يولد ما بين ١٥٠ رطلا إلى ٢٠٠ رطل، على حين أن وزن أمه يبلغ

٨٠٠٠ رطل ، ثم لا تفطمه إلا بعد الثالثة أو الرابعة ، ولا يبلغ الحلم إلا بعد الخامسة عشرة إلى الثامنة عشرة . بيد أنك ترى الحوت وهو أضخم ذوات الثدى جثة ويبلغ وزنه ٤٠ طناً ، تحمل أنثاه جنينها زمناً لا يزيد عن سنة ، ومع ذلك فوزنه حين يولد يزيد عن سبعة أطنان ، ويبلغ غاية نموّه فى زمن لا يتجاوز خمس سنوات .

والخفاش (الوطواط) ، وهو من ذوات الثدى القادرة على الطيران ، فإناثه أمهات شديدة الرعاية لصغارها ، تراها تضمّ أجنحتها على فلذات أكبادها عند أقل ما يروعها ، وكثيراً ما تحملها وتطير بها ليلاً فى مسابحها . ولم أرَ من الوطاويط مصّاصة الدم التى تعيش فى خط الاستواء ، ولا فى الوطاويط الضخمة التى تقطن أمريكا الجنوبية أنثى تلد أكثر من ولد واحد . وترى الوليد متعلقاً بصدر أمه حين يكون صغيراً ، فإذا كبر رأيته متعلقاً بجنبها قريباً من جناحى أمه لكى يحمياه عند المخافة . وكان عندى وطاويط ضخمة بلغت تمام نموّها بعد خمسة أشهر ، وبلغ امتداد جناحيها إذا بسطتهما نحو قدمين . وهناك ضرب آخر من الخفافيش تضع ما بين ولدين إلى أربعة أولاد ، ومن أعجب العجب أن ترى إحدى إناث الخفافيش محلقة فى الجو قد تعلقت بها أربعة من صغارها ، يكاد مجموع وزنها يكون مثل وزن أمها .

والقوارض من الحيوان هى أقصر ذوات الثدى حملا — فالفئران والجرذان لا تزيد مدة حملها عن ٢١ يوماً . وصغار الفئران التى تولد عمياً مُمرطاً لا شعر عليها تدلّ على أثر هذا القصر فى مدة الحمل . أما الأرانب الهندية فهى على نقيضها ، إذ تحمل أجنتها فى بطونها نحو ٧٠ يوماً ، ثم تضعها وافرة الشعر صافية العيون ، فلا يمضى يوم أو نحوه حتى تراها وهى تعدو خلف أمهاتها .

والشَّيهم (وهو حيوان كالقنفذ ولكنه من القوارض) ، فهو يلد صغاره مفتحة العيون ، فلا تمضى أيام قلائل حتى يتم ظهور شوكها الذى تدفع به عن نفسها عادية كل عدوّ . والشيهم الكندى يضع صغاراً أكبر جثة من صغار الدببة ، وإن كان وزن الشيهم لا يزيد عن جزء من ثلاثين جزءاً من وزن الدبّ .

أما الحيوانات ذوات الجراب كالقنقر والأبسوم الأمريكى ، فلا تجد عنتاً فى الولادة ، فمدة حملها تبلغ ٤٠ يوماً أو أقل ، وما هو إلا أن تضع أجنتها التى لم يتم تمامها بعدُ وتنقلها إلى جرابها حيث تحضنها . وأما أنثى الأبسوم الأمريكى فتضع فى البطن الواحد ١٢ صغيراً ، فى وسعك أن تضعها

جميعاً فى تجويف ملعقة فلا تضيق بها .

وأغرب الحيوان شأناً فى كل ذلك هو قنفذ النمل الذى يعيش فى أستراليا ، فهو حيوان من ذوات الأربع له شوك كأشواك الشيهم ، ولسان كلسان آكل النمل ، ومنقار كمنقار البط . وتضع أنثاه بيضة أو بيضتين عليهما غشاء كالجلد الرقيق وتحضنهما فى جرابها . فإذا انفلقت البيضة عن الجنين الصغير المبهم الشكل الأمرط الذى لا شعر عليه ، أرضعته من لبنها !

أما حياة الطير وولادتها ففيها عجائب شتى . فأنثى الحجل التى تكون فى غانة الأمريكية تلقى بيضها ثم تطير عنه وتدعه للذكر يتولى حضانته، وذلك نحو ٥٦ يوماً ، والأغلب أنها تعود إلى ذكرها وهو قائم على تعهد صغاره التى لم يكتمل نموها ، فتلقى إليه ببيض آخر ، وتنيبه عنها فى أن يتولى العملين جميعاً — حضانة البيض ورعاية الصغار .

ويناقض هذا كل المناقضة ما ترى من سيرة الطائر المسمى بُوقير ، فإن أنثاه قبل أن تضع بيضتها أو بيضتيها ، تلتمس لنفسها نقرة فى جذع شجرة ، فيأتى الذكر فيطوى جوانبها بالطين حتى لا يدع من فم النقرة إلا كوّة ضيقة تتسع لعنق أنثاه الحبيسة حين يجلب إليها مؤونتها وطعامها .

أما أنثى طائر البطريق الذى يعيش فى المنطقة المتجمدة الجنوبية، فتضع بيضة واحدة، ولما كانت هذه المنطقة خالية من كل ما يصلح لبناء عُش ، فإنها تحمل البيضة فى إحدى قائمتيها وتطوى عليها قبضتها ، فيمنع ذلك البيضة من أن تتجمد. فإذا خرجت تلتمس قوتها واقتضاها ذلك أن تبسط قبضتها وتضع البيضة ، فإن آداب طيور البطريق تفرض على أحدها أن يأخذ هذه البيضة ويتعهدها، إلى أن يُضطرّ إلى الخروج فى طلب الرزق . وكذلك ترى بيض طيور البطريق أمانة متداولة بينهم جميعاً ذكوراً وإناثاً .

وإذا نظرت إلى صغار الطير رأيت أعدلها حضانة هو الطائر المسمى بأبى الحناء ، إذ يقضى فى حضانة بيضه ١٤ يوماً . وهذه السرعة فى التفريخ تأتى بعدها سرعة مثلها فى النمو، فإن الفرخ يطير من عشه فى خلال أسبوعين ، ولا تمضى عليه سوى أيام قلائل حتى يبلغ تمام نموّه .

وأكثر الزواحف تضع بيضاً ، وإن كان بعض الحيات والعَظَاء (السحالى) يلد صغاراً تسعى . وليس من الزواحف شىء يتخذ لنفسه وكراً يبيض فيه سوى التمساح ، وبعض هذه الأوكار لا يزيد على نقرة يحفرها فى جوف الطين ، يضع فيها بيضه ويغطيه . أما التمساح الأمريكى فهو يتخذ لنفسه وكراً

حقيقياً حيث يضع بيضه بين القش والأعواد ويتركه حتى ينفلق عن صغاره بعد نحو من شهرين، من جراء الحرارة التي يولدها تحلل هـذه الأعواد . وقد رأيت بعض إناث التماسيح الأمريكية رابضة قريباً من هـذه الأوكار، ولكنها لم تبد ما يدل على أنها تحاول أن تطعم هذه الصغار . وجميع السلاحف والعظاء والحيات تخرج من بيضها أو تولد لساعتها ساعية كاسبة لنفسها .

والحيات التي تلد تكون مدة حملها أربعة أشهر أو خمسة . ومن نعم الله أن الحيات السامة التي تكون في شمال أمريكا، كذوات الأجراس ، قلما تضع أكثر من اثنى عشر وليداً . أما الحيات غير السامة وحيات الماء فتضع نحو ٧٣ وليداً .

وقد رأيت أصَلة من حيات الماء في ترنداد فإذا هي أعجب ما وقعت عليه عيني من ولادة الحيات ، فقد كان طول هذه الحية ١٨ قدماً وقطرها نحو ١٠ بوصات ووزنها ١٧٥ رطلا ، فأصبحت ذات يوم فإذا بقفصها يعجّ بنحو ٧٢ أصلة من أبنائها ، طول كل منها ياردة وقطرها نحو بوصتين .

أما حيوانات البرّ والبحر كالضفادع والعلاجم والسمندل ، فهي وإن كانت تضع عدداً كبيراً من البيض إلا أنها تهملها إهمالاً ، فما ينفلق منها إلا القليل .

فإذا نظرنا إلى الأسماك وجدنا بينها في الولادة فروقاً متباينة . فالسمكة ذات الذنب المحدّد المعروفة باسم بنت الشمس والتي تكون في المحيطات ، طولها عشر أقدام ووزنها ١٢٠٠ رطل . ومنذ عهد قريب وجدوا سمكة من صغار أولادها في بحر سرجاسو ، فكان طولها عُشر بوصة ، وينبغي أن يتضاعف وزنها ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ مرّة حتى تبلغ وزن أمها .

وأكثر الأسماك بيضاً سمك يقال له المشوق ، إذ تضع السمكة ٢٨,٠٠٠,٠٠٠ بيضة . أما السمكة المعروفة بالبَقَلة التي يستخرج منها زيت السمك فتضع ما بين ٦,٠٠٠,٠٠٠ إلى ١٠,٠٠٠,٠٠٠ بيضة ، وأما سمك السالمون وبيضه أكبر حجماً فهو يضع ١٥,٠٠٠ بيضة . وقد تجد في كيس صغير من البطارخ المستخرج من الصابوغة ما بين ٢٥,٠٠٠ إلى ١٥٠,٠٠٠ بيضة ، بيد أن بعض السمك لا يضع أكثر من ١٠٠ بيضة حيث يتخذ لبيضه وكراً من الأعشاب تحميه من كل عادٍ . وبعض الأسماك يحتضن بيضه في أفواهه ، وبعضها يضع بيضه وينقله إلى جراب في بطن الذكر ، وبعضها لا يضع بيضاً بل يلد سمكاً صغاراً .

أما المخلوقات التي لا فقار لها فأعجبها إشفاقاً على صغارها هي العنكبوت . فالعنكبوت

المعروفة تحمل بيضها فى حقيبة من الحرير ، فإذا دنا انفلاق البيض عن صغارها مزقت هذه الحقيبة وأرسلت إليها خيطاً من خيوطها، وبقيت تحوطها حياطة من يؤثر أن يمزّق إرباً إرباً على أن يهجر صغاره بلا حياطة . أما العنكبوت المفترسة فهى تحمل صغارها حتى تقوى على السعى والكسب لنفسها .

وأسرع صغار الحيوانات نمواً هى صغار الخنفساء المعروفة بالمحرقة ، إذ تخرج يرقتها من البيض الموضوع بين أوراق الأغصان فإذا هى كارهة لهذا المكان الذى نشأت فيه، وعندئذ يوحى إليها خاطر هو من عجائب الطبيعة — أنه لا بد لها من بيض النحل لكى تقيم به أوَدها، فتتسلق هذه المخلوقات الضئيلة جذع شجرة حتى تبلغ زهرتها وتظل تترقب مقدم النحل، حتى إذا جاءت ركبت ظهرها، وبذلك تصل إلى خلايا النحل ، وتظل هناك تغتذى ببيض النحل حتى تنسلخ من إهاب اليرقة الأولى ، ثم تبقى لتتغذى بعسل النحل حتى تلقى صدفتها ، ثم تخرج ساعية إلى رزقها وهى عندئذ خنفساء قد بلغت أشدّها .

وإذا أردت مثلاً على اختلاف حياة الحشرات فانظر إلى الحشرة المسماة بالصرارة والحشرة الأخرى المعروفة باسم زيز الحصاد والتى تعيش فى بيضها ١٧ سنة . فبيض الصرارة يظل طول الخريف مدفوناً تحت قشور من لحاء الشجر ، فإذا جاء الربيع انفلق عن حشراته. وهذه المخلوقات الخضر الدقيقة التى لا تزيد فى أول أمرها عن حجم البرغوث، تسلخ جلدها وتلبس سواه ، فإذا جاء شهر أغسطس رأيتها حشرات خضراً جميلة المنظر، قد تمّ نماء أعضائها التى تحدث الصرير الذى سميت به . ويكون هذا بدء أيام استعدادها للتناسل ، وتستمرُّ على ذلك بضعة أسابيع ثم تضع بيضها وتموت .

أما زيز الحصاد ، فإن أنثاه تدفن بيضها فى فنن من أفنان الشجر ، فيمضى وقت ثم تسقط اليرقات على الأرض وتتخذ لنفسها فيها مقرّاً ، مغتذية بعصارة من جذور الأشجار اللينة ، فإذا مرت عليها سبعة عشر عاماً وحيدة فى الظلمات، خرجت اليرقة من بطن الثرى ، وانشق ظهرها بنصفين ، وإذا بك ترى مخلوقاً له جناحان يتلألآن ، وقد تهيأ للطيران. وزمن بقائها للتناسل زمن قصير — بضعة أسابيع تقضيها لكى تضع بيض الجيل الآتى من نسلها ، لكى يقضى سبعة عشر عاماً فى ظلمات الأرض.

وكذلك نرى الطبيعة دائبة تجرب تجاربها فى تنشئة الأحياء ، فتسفر تجاربها أحياناً عن نتائج عجيبة، وأحياناً تسفر عن آيات فى الوفاء والتضحية ترتبط أوثق ارتباط بغرائز يسرّنا أن نظن أنها وقف على بنى الإنسان .



الصحفي الساخر ومعجزة الأقدار

أوكتافيوس روى كوهن

كنت وحدى فى ذلك الصباح ، ساعة جاءنا نبأ الكارثة ، فقد خرج جميع المخبرين سواى – أنا المخبر الصغير الغِرُّ . فلم يكن لمحرِّر الأخبار خيارٌ فى الأمر ، فأمرنى بالذهاب ، فهذه حادثة مهمة .

على مسيرة عشرين ميلا منا ، حدث انفجارٌ فى منجم فحم ، فدفن مئة رجل تحت الأنقاض . وهذا قطارٌ يُعَدُّ لإسعاف المصابين ، فوصلته قبل أن يقوم ولما أكد ، وما أخذت مقعدى فى المركبة المزدحمة حتى ألقيت نظرة على جارى ، ولأطلق عليه اسم جون تالبوت . ولكن مهما كان الاسم الذى أطلقهُ عليه ، فإننى لن أنسى ما شعرت به من زهو حين ألفيتنى إلى جانبه ، وأننى موفدٌ مثله لأروى خبر حادثة ذات شأن .

كان جون تالبوت مخبراً فى صحيفة المساء التى تنافس صحيفتنا ، وكان عمرهُ لا يزيد على ٢٨ سنة ، ولكنه كان ذا شهرة مستفيضة فى دوائر الصحافة فى مدينتنا . وكثيراً ما كان زملاؤه من الصحفيين يتناولونه بالمذمَّة ، ولكن إجماعهم كان منعقداً على أنهُ مخبرٌ من الطبقة الأولى .

كان تالبوت رجلا ساخراً مستهتراً ، لم يسمعه أحدٌ يوماً ما يثنى على أحد من الناس ، ولا رآه يفعل ما يدلُّ على كرم الأخلاق . أما اليوم فقد حيَّانى بابتسامة جافية شاحبة ، فقلت : « إنه لشىءٌ فظيع أن يدفن مئة رجل تحت الأرض – وربما كانوا الساعة أمواتاً أو فى النزع الأخير » .

فقال : « ثمَّ ماذا ؟ وإذا كانوا قد ماتوا ، فهذا خيرٌ لهم وأفضل » .

فحاولت أن أكتم عنه ما آلمنى من قوله، ولكنه قال : « اسمع يا فتى : مئة رجل من الأموات — إن مآل ذلك هو أن تكون المقالة التى ينبغى أن أكتبها عنهم ضعف المقالة عن خمسين من الأموات » .

فقلت : « ولكننى حين أفكر — » .

فقال : « لا تفكر . وإذا شئت أن تفكر ، ففكر بعقلك لا بعاطفتك » .

وأشعل لفافة ونفخ الدخان كأنه لا يعبأ شيئاً : ترى أيتظاهر تالبوت بكل هذا تظاهراً ، أم هو حقًّا جافى الطبع غليظ القلب ؟

فلما وقف القطار ، خرج تالبوت هادئاً مطمئناً عارفاً بما يسعى إليه . ولم أره ثانية طوال ذلك النهار ، فقد شغلت عنه بما لدىّ من عمل . وكانت الفاجعة التى شاهدتها أفظع ما شاهدت فى حياتى — بكاء النساء وعويلهنّ ، وجحوظ عيون الصغار المروّعين ، محتشدين حول رأس البئر المفضية إلى قلب المنجم . وكانت الإشاعات الغريبة تنتشر وتذيع ، وكان الرجاء يغالب القنوط ، ولكن القنوط كان أغلب . فظللت طوال النهار أغدو وأروح بين المنجم ومكتب البرق ، حاملا الأسماء والحقائق والأوصاف لأبعث بها إلى صحيفتى .

وفى تلك الليلة ذهبت متعباً منهوك القوى إلى غرفة للنوم سمعتُ عنها فى بيت على الأكمة ، فإذا وطء أقدامٍ يساير وطء قدمىّ ، وإذا صوت يقول : « السلام عليك يا فتى » . فإذا هو تالبوت .

قال : « وأنا ماض مثلك إلى المكان نفسه ، فإذا وجدنا فراشاً هناك أوينا إليه كلانا » .

فلما بلغنا البيت أصغت سيدة إلى طلب تالبوت ، وسارت بنا إلى حجرة النوم ، وكان فى الحجرة المجاورة عدة نسوة ، فكانت صيحات الألم وآهات الحزن تترامى إلينا من خلال الجدار الرقيق ، ولكننى كنت قد ألفت وقع الفجيعة فى ساعات نهارى ، حتى صار يروّعنى فى الليل أن لا أجد فجيعة أحسّ لها فى نفسى وقعاً .

وخلع تالبوت حذاءيه ومعطفه وقلادة عنقه وتهالك على السرير ونام لساعته . وخلعت أنا ملابسى — القذرة من غبار الفحم — وانطرحت على السرير إلى جنبه .

ولكننى أرقت لما نال أعصابى من إعياء، وحاولت أن أصمّ أذنى عن البكاء والعويل فى الحجرة المجاورة . وإذا امرأة تصيح ، فتصبب العرق البارد من بدنى . فأرهفت سمعى ، وإذا الذعر يأخذ منى ، فأيقظت جون تالبوت .

قلت : « فى الحجرة المجاورة سيدة مريضة . وقد دنا ولادها » .

فتفوّه بكلام بذىء ، ولكننى مضيت فى كلامى فقلت : « هذا شىء فظيع . فقد كان زوجها يعرف أن ولادها قد دنا ، وقد أراد أن يبقى معها فى البيت ، ولكنها حملته حملا على الذهاب إلى المنجم . وها هو ذا قد مات . أما هى فلا تريد أن تحيى ، وهى تصيح قائلة إنها هى التى قتلته . وسائر النسوة يوافقنها على ما تقول . أفلا تدرك ما معنى كل هذا ؟ ! إنها امرأة هالكة » .

فقعد فى السرير ، وقال : « وماذا يهمك من أمرها ؟ لا المرأة زوجتك ولا الجنين ولدك » .

وندّت عن المرأة صرخة ثانية ، فقلت : « أنا خائف يا تالبوت . أما أنت فلست بخائف . فأنت لست من البشر ، ولكنك ستصير بشراً هذه الليلة » .

فقال : « أهكذا ! وماذا تظن أننى فاعل ؟ » قالها بصوت المزدرى .

فقلت : « إنها امرأة هالكة إذا لم نصنع لها شيئاً ، ولابدّ من أن يقبض أحدنا على الزمام ويتولى الأمر . اسمع يا تالبوت ، إنك رجل ساكن الحشا ، فاذهب إلى الحجرة وقل للنسوة إنك طبيب ، واستبق منهن امرأتين لكى تعيناك . أتح لهذه المرأة المسكينة فرصة حتى تحيى » .

قال : « ولماذا ؟ »

قلت : « لأن زوجها مات لساعته ، ولأنه ينبغى أن لا تموت هى أو وليدها » .

فلما انحنى ليرفع حذاءه كان على شفتيه ابتسامة ساخرة وقال : « اقتراح سخيف ... حسن ، سأفعل . ولن أفعله إلا لأنه شىء أستطيع أن أتندّر به فى المستقبل » .

فلما دخلنا الحجرة رفعت النسوة المروّعات المحتشدات حول السرير نظرهن إلينا ، وإذا تالبوت الضئيل الجسم ، قد صار رجلا ذا سلطان ، فمشى إلى السرير وألقى ببصره على المرأة المعذبة . وتكلم فإذا فى صوته وضوح وحزم فقال : « أنا طبيب ولكننى منهوك القوى ، فأنا فى حاجة إلى المعونة . فمن منكن أيها النسوة قد شهدت ولادة من قبل ؟ »

فإذا النساء جميعاً قد شهدن ولادة من قبل ، فاختار اثنتين منهن وأمر البقية بالخروج ، فأطعن أمره .

فقال : « إلىّ بماء ساخن ، وملاءات نظيفة — وكل شىء تحتاجان إليه . وسأقف هنا متأهباً لمعونتكما إن مسّت الحاجة . هيّا إلى العمل » .

وجلس تالبوت على السرير ، وأمسك بيد المرأة ، وكان صوته مرحاً حين قال لها : « هذا الشأن شأنك أنت . وزوجك

هنا ، معك — بروحه ، ولا سبيل لك إلى إكرام ذكره ، إلا أن تكافئي الضعف مااستطعت ، وأن تلدى ولداً صحيحاً جميلا »

وظل يحدثها بصوت لطيف حديثاً يبعث الثقة والطمأنينة فى نفسها ، وإذا المرأة قد سكنت بعد اضطراب ، وكنت لا أنفكّ أظن أن تالبوت سيتندر بما تم له فى الأسبوع التالى ، ساخراً من نفسه ، مردّداً الكلام الذى قاله فيصفه بأنه هذيان .

ولكن كلامه لم يكن هذياناً بل كان كلاماً رائعاً .

ودأبت المرأتان على العمل فى هدوء وكفاية . وكان تالبوت يراقبهما ، ويعرب لهما عن رضائه حيناً بإيماءة من رأسه ، ويهمس لهما حيناً يحثهما ويشجعهما . وكان فى الحجرة مصباح واحد ، يلقى ظلالا غريبة على الجدران العارية . فالآية الرائعة التى تمثل فى هذه الحجرة ، قديمة قِدَم الدهر ، وهذه الخصاصة التى تمثل فيها تجعلها مشهداً مفزعاً ، ولكننى أدركت خلال ذلك كله ، أننى أشهد من معجزة تتمّ . فهذا رجل يكره الناس ويسخر منهم ، أراه الساعة يصنع لأخيه الإنسان ماينبغى له أن يصنع .

وقد تمت الولادة فى الساعة الرابعة صباحاً ، ونامت النفساء ، وكان فى الزاوية إلى جنبها طفل جميل سليم يصرخ ، أما صوت تالبوت فكان لا يزال هادئاً مطمئناً . فقال : « أنتما تعلمان الآن ما ينبغى لكما أن تفعلاه منذ الساعة . فكفّا عن الحزن ، إن الله عزّ وجلّ قد أرسل آيته إلى هذا البيت ، فحاولا أن تفهماها » .

ثم خطا بقدم ثابتة فعبر الحجرة وخرج من الباب ، ثم انحدر من الأكمة ومضى نحو الضوء المتذبذب عند رأس المنجم .

وقد دعيت لأعود إلى مكتبى فى الصباح . ثم علمت بعد بضعة أسابيع أن جون تالبوت وزوجته قد برحا مدينتنا إلى مدينة أخرى . ثم غاب عن بصرى .

ومنذ سنتين ألفيت نفسى فى إحدى المدن الوادعة فى جنوب الولايات المتحدة ، التى لم أر فى حياتى مدينة مثلها سلاماً وبرداً على النفس ، فهى مدينة يعدها المرء غاية مايتمناه .

وفى ردهة الفندق أجفلت ساعة سمعت بعضهم يذكر جون تالبوت ، فسألت عنه فقيل إن هذا الرجل الذى ذكروه ما زال يقيم فى مدينتهم منذ عشرين سنة ، وأنه جاءها ذات يوم هو وزوجته وجعل يعمل فى صحيفتها الأسبوعية ، وهو اليوم محررها وأحد صاحبيها . وقد أجمع أهل المدينة على أنه رجل من خير الرجال — مستقيم لا يخشى فى الحق لومة لائم ، ولا ينى

يكافح فى سبيل الحق والخير . أفيكون هذا الرجل هو جون تالبوت الذى عرفت؟

ســألت عن بيته ويممت شطره . كان كوخاً صغــيراً ، أمامه بساط من العشب الأخضر والأزهـار ، ويحفُّ به جوٌّ من السكينة والطمأنينة ، وأمامه شجرة بلوط كبيرة تلقى ظلاً ناعماً كأنه بركة من السماء .

وقرعت جرس الباب ، ففتحته لى مسز تالبوت ، فعرّفتها بنفسى ، فأشرق وجهها ودعتنى إلى الدخول ، وبعد حديث قصير سألتها ، أذَكَرَ لها زوجها تلك الليلة التى قضيناها معاً قرب المنجم منذ عشرين سنة ؟

فقالت : « نعم أخبرنى بذلك » ثم تنفست الصعداء وقالت : « لقد عاد جون من تلك المهمة رجلا غير الرجل الذى عرفتُ . فقد كان أهدأ نفساً وألطف وأرق. وقد تبيّنتُ آيات هذا التغير الذى ناله فى أشياء كثيرة ،

« ثم رأيت أنه قد صار يضيق ذرعاً بما كان يتصنعه من أنه مجرّب قد ملّ الحياة من طول ما جربها ، وضايقه ذلك وأزعجه ، فلذلك هجرنا المدينة على حين فجأة . وأنا أعلم الآن أن سواد تلك الليلة لم يشهد ولادة طفل وحسب ، بل شهد أيضاً ولادة جون تالبوت الحقّ . فغلالة السخرية والاستهتار التى اتخذها درعاً توقيه ما يراهُ الصحفىُّ كل يوم من مآسى الطبيعة البشرية ومساوئها ، قد نشقت عنه وسقطت. وصار يتوق ويسعى أن يقطع صلته بالماضى، وينشد مكاناً يسعه فيه أن يدرك حقيقة نفسه .

« وقد حقق جون فى هـذه المدينة كل ما عقدته عليه من آمالٍ ومُنىً يوم تزوجنا . فليس فى النساء امرأة أسـعد منى » . ثم ابتسمت وقالت : « ولو رأيته اليوم لما عرفته . إنه رجل فقير ، ولـكنه رجل عظيمٌ حقاً » .

صمت الحديث

ربّ كلمة تقول دعنى . . . ألفاظه قوالب معانيه . . . جلسوا عند معاوية فتكلموا وصمت الأحنف فقال معاوية : يا أبا بحر ، مالك لا تتكلم ؟ قال : أخافكم إن صدقتكم ، وأخاف الله إن كذبت . . . أكثر الصمتَ ما لم تكن مسئولا ، فإن فوت الصواب أيسر من خطل القول ... إذا ترك العالم قول لاأدرى أصيبت مقاتله . . . عقل المرء مدفون تحت لسانه . [عيون الأخبار ، لابن قتيبة]

كيف يكسب المحامي قضاياه

هنري مورتن روبنسون
مختصرة من مجلة "يور لايف"

التمثيل هى بعض بضاعة المحامي ، فهو براعة لكي يستميل المحلفين ويكسب القضية لا يحجم عن أن يكون مهرّجا تارة وبطلا فى مأساة تارة أخرى ، وقد حدث فى ولاية أيوا بأمريكا أن جعل أحد المحامين نفسه مرشقة دبابيس ، وذلك أن رجلا ادعى أنه أصيب بهبوط فى قواه العقلية على إثر حادث وقع له أثناء سفره بالقطار ، وكان دليله على ذلك أن غرز دبوساً فى رأسه وقرر أنه لا يشعر بأقل ألم . فذعر المحلفون ومالوا إلى منحه تعويضاً جزيلا ، فإذا بمحامى شركة السكة الحديدية يطالب برفع الجلسة للاستراحة . ولما عقدت عاد ومعه ورقة دبابيس وأخذ يغرزها فى رأسه الأصلع ، حتى أصبح كأنه قنفذ يسعى على قدمين . وقال للمحلفين فى مثل لهجة المهرّج : « وأنا أيضاً قد أصبت بهبوط فى قواى العقلية » . وكسب قضيته فى عاصفة من الضحك . ولم يدر فى خلد المحلفين لحظة أنه حقن جلد رأسه بمادة مخدرة فى فترة الاستراحة .

وقد نجح وليم فالون المحامى الشهير فى تبرئة ١٢٧ متهماً بالقتل ، ولم يحدث قط أن أصدر المحلفون قراراً بإدانة واحد من موكليه ، وقد سأله مرة أحد منافسيه : « كيف يتأتى لك أن تكسب هذا العدد الجم من القضايا » فأجابه فالون : « إن كل محام يحاول فى الغالب أن يستميل المحلفين إلى جانب موكله ، مع أن الواجب هو استمالتهم إليك ، أى إلى شخصك أنت ، ثم إذا بك تجد الأمر من أسهل ما يكون » .

وقد أعانته جرأته الفذة على استنقاذ عدد كبير من المتهمين ، وهم على وشك ملاقاة الموت ، فقد لاحظ مرة فى إحدى قضايا القتل أن بين المحلفين خمسة من الكاثوليك أما موكله فهو من البروتستنت ، ولم يكن فالون من المتزمتين فى الدين ، ولكنه اشترى مسبحة وطلب إلى موكله أن يلفها فى منديل يحمله فى صدره ، وكان اعتقاد موكله أن المسبحة تجلب النحس ، فهدّأ من روعه وأزال مخاوفه . فلما كان آخر أيام المحاكمة ، تدفق فالون فى مرافعته حتى مست بلاغته قلب المتهم ، وانهمرت دموعه ، فأخرج منديله . فلما فعل سقطت المسبحة على الأرض فرقّ قلب المحلفين الخمسة لهذا الدليل

المفاجىء على ورع المتهم، وبرىء الرجل لتعذر إصدار قرار من المحلفين بإجماع الآراء .

وقد تجلت حصافة المحامى الإنجليزى البارع سير إدوارد مارشال هول حين ترافع فى قضية قذف أقامتها ليدى ترنجتون على لورد بيفربروك صاحب صحيفة ديلى إكسبريس وطالبت فيها بتعويض كبير بدعوى أن سمعتها أصيبت بوصمة بالغة من جراء مقال نشرته تلك الصحيفة وتحدثت فيه عن ثيابها .

فرتب سير إدوارد مجرى القضية بحيث توافق آخر جلساتها يومَ الاحتفال بذكرى الهدنة ، وبحيث تحل الدقيقتان اللتان يلتزم فيهما الناس الصمت أثناء مرافعته فتقطعه عن الكلام . فلما دقت الساعة رفع سير إدوارد صوته عالياً ، ثم انقطع فجأة عن الكلام بهيئة مسرحية ، فقام كل من فى الجلسة ووقفوا ، وإذا بهذا المحامى يجمد فى مكانه كأنما أصبح تمثالا ناطقاً للحزن والأسى . فلما انقضت الدقيقتان عاد إلى مرافعته بصوت هادىء ملؤه الجد وقال :

« أيها المحلفون ! لقد احتفلنا لوقتنا بذكرى أكبر تضحية قومية ، ولقد تحملنا جميعاً خسائر فادحة من جراء الحرب ، والآن » ثم استدار فجأة وواجه المدعية : « نعود من ذكرى هذه التضحيات الكريمة لنبحث الشكوى التافهة التى تتقدم بها هذه السيدة » ، فانهارت خيلاء لادى ترنجتون حين امتحنت وقورنت بتلك الفترة النبيلة فى تاريخ إنجلترا ، ولم يحكم لها بمليم واحد .

ويعمد المحامى إلى جميع الحيل المسرحية من أجل أن يلين قلوب المحلفين . فماكس ستوير المحامى الذى يتقاضى ألف ريال لقاء عمل يوم واحد ، يرتدى فى المحكمة أرخص الثياب ويقول : « لا ضير على أغنياء المحامين الذين يمثلون الشركات أن يتبختروا فى الثياب الجميلة ، ولكنى لا أريد أن أكون أكثر أناقة من المحلفين » .

وقلما يضع ستوير أوراقه فى محفظة ، بل يجىء بها المحكمة محزومة فى ربطة من ورق اللف ثم يبسطها تحت بصر خصمه، كأنما يريد أن يقول إنه ليس لديه سر يخاف ذيوعه ، وحين تكون القضية عن أموال وفيرة يضع ستوير محفظة نقوده أمامه على المائدة ، ليوهم الحاضرين أنه رجل ساذج يثق بكل أحد .

وكان كلارنس دارو حين يترافع أمام محلفين من المزارعين، يعمد إلى خلع سترته ليظهر حمالة سرواله ويشدها بإبهاميه ، ومن عادته عندئذ أن يضع فى فمه عوداً من القش يمضغه، وإذا قرأ نصوصاً قانونية على المحلفين تلعثم فى نطق كل كلمة تزيد عن مقطعين ، وإذا احتدم النزاع بينه وبين محامى خصم من

أبناء المدن ، تظاهر بالارتباك والحيرة. وهو بهذه الأساليب يستميل قلوب المحلفين .

ويبلغ المحـامى ذروة قدرته على التأثير حين يستجوب الشهود ، فمن الخطر إساءة معاملة الشاهد ولو أحجم عن الإدلاء بما يعرفه ، لأن المحلفين يميـلون إلى نصرة المضطهد . وإذا شكّ ماكس ستوير فى أن الشاهد يكذب ، حرص على سؤاله بلطف ومودة ثم يستدرجه إلى قاصمة الظهر .

وأحسن مثال على ذلك ما حدث فى إحدى القضايا ، فقـد احترق مصنع فى نيويورك ووجهت إلى أصحابه تهمة التسبب فى موت ١٠٠ عاملة ، لأنهم أصدروا أمراً بإغلاق أحد أبواب المصنع . فوكل أصحاب المصنع ســتوير للدفاع عنهم ، وتقدمت للشهادة عاملة نجت من الحريق ، وأخذت تروى قصتها الفاجعة ، فبكى المحلفون ولاح أن لا مفرّ من الحكم بالإدانة .

واعتقد ستوير أن الفتــاة تتلو شهادة مزوّرة ، فقال لهـا متودّداً : « والآن يا بنيّتى قصى علينا حكايتك مرة أخرى » ، فأعادت الفتاة شهادتها كلمة كلة ، فقال لها بلطف : « أريد أن أستوضح بعض أشياء فى شهادتك . فارو حكايتك مرة أخرى » فتلتها مرة ثالثة ، فسألها : « ألم تنس يابنيّتى كلمة واحـدة فى شهادتك ؟ » فاستغرقت الفتاة فى تفكير عميق ثم قالت : « نعم ياسيدى ، لقد نسيت كلمة واحدة » فقال لها : « إذن عليك أن تروى لنا قصتك من جـديد ، وأن تضعى هـذه الكلمة فى مكانها » . فأجابته إلى طلبه ، فاقتنع المحلفون بأنها قد لـقّنت نص الشهادة حتى حفظتها عن ظهر قلب ، فتجاهلهـا المحلفون وبرأوا موكلى ستوير .

كان ستوير ذات مرة يستجوب عضواً فى مجلس الشيوخ متهماً بالرشوة ، وأراد أن يثبت أن هذا الرجل غير طاهر اليد ، ففاجأه وسط أسئلة مألوفة بسؤال ألقـاه باللغة الفرنسية : « هل تتكلم الفرنسية ؟ » فأجابه الرجل : « لست أفهم ما تقول » ، فقال ستوير : « هـذا عجيب ، فإن أمامى الآن ورقة رسمية تثبت أنك دخلت مرة امتحاناً للتوظف ونجحت فى اللغة الفرنسية ونلت أعلى درجة » ، ثم وجه إليه سؤالا بصوت جاف : « هل رشوت أحداً ليدخل الامتحان بدلك ؟ » فعارض محامى الشاهد فى توجيه هذا السؤال ، ولـكن ستوير نجح بمهارته فى إلقاء الشبهة عليه بأن له سابقة من الرشوة وأساليبها .

ومن الأساليب البارعة تجريح شهادة الخبراء إذا أمكن ذلك ، وقد تجلى النبوغ

فى هدم مثل هذه الشهادة على يد وليم هاو المحامى الشهير الذى عاصر الجيل الماضى فى نيويورك ، إذ دافع مرة عن رجل متهم بدس السم لحماته ، وقرر محقق الوفاة أمام المحكمة ، وهو أهم شاهد يعتمد عليه الاتهام ، أنه شمّ من الجثة رائحة السم التى لا تخطئها الأنف ، فهى تشبه رائحة اللوز المحترق . فقال له هاو مداعباً : « ما دمت تثق كل هذا الوثوق بحاسة شمك ، فإنى أقترح عليك أن تمتحنها امتحاناً يسيراً » . وأتى بعشر زجاجات فى كل منها سائل له رائحة بينة معروفة ، كروح النعناع والبترول وغيرهما ، ثم أدارها أولا على المحلفين ، فعرفوا بعض الروائح وعافوا أبخرتها المتصاعدة .

ولما عرضت على المحقق أخفق فى معرفة تسع منها ، فقد كان هاو يعلم أن أبخرة البترول تشل أعصاب الشم ، فكانت زجاجة البترول هى أول زجاجة قدمها إليه . وهكذا نجح فى إثارة الشك فى شهادته ، وصدر الحكم ببراءة موكله .

وترافع آب هوميل المحامى الشهير ذات مرة عن شركة تأمين رُفعت عليها قضية تعويض ، وقرر المدعى أنه سقط فى بئر المصعد فأصيب كتفه بأذى بليغ ، وأصبح عاجزاً عن رفع يمناه ، فقال له آب : « تفضل وبين المحلفين إلى أى حد تستطيع رفع يمينك » ، فرفع الشاهد برفق ذراعه إلى أذنه ، فقال له وهو يشجعه : « والآن بين لهم إلى أى حد كنت تستطيع رفعها قبل الإصابة » . فرفع الشاهد يمناه بسرعة فوق رأسه ، وكاد القاضى يحطم مطرقته وهو يحاول كفّ الحاضرين عن الضحك .

وقد يعرض المحامى نفسه للموت من أجل أن يكسب القضية . فيروى أن محامياً من أهل نيويورك يدعى جافيت دافع مرة عن زوجة اتهمت بدس الزرنيخ لزوجها فى كعكة عيد ميلاده ، وقدم وكيل النائب العام أدلة تثبت أنها اشترت الزرنيخ ، وعرض الكعكة على المحكمة ، فما كان من جافيت إلا أن وجه خطابه للمحلفين قائلا : « لقد استمعتم إلى شهود يقررون أن هذه الكعكة مسمومة ، فلكى أثبت لكم سخف هذا القول سآكل أمامكم قطعة منها » .

وقضم قطعة من الكعكة المسمومة وابتسم وجلس . فانسحب المحلفون مدهوشين إلى حجرة المداولة ، ثم أطل رئيسهم من بابها بعد ربع ساعة فإذا به يرى جافيت جالساً فى مقعده مطمئناً ، فما لبث المحلفون أن أصدروا قراراً بالبراءة . وعندئذ سار جافيت إلى دورة المياه حيث كان ينتظره بضعة أطباء ، فغسلوا له معدته ليزيلوا منها آثار الكعكة المسمومة .

لواذع هوليـــوود

باب يتولاه : اندرو هشت

في فلم « هيومورسك » ترى أوسكار ليفانت يقول لفتاة : « إن شرب الخمر يجعلك فاتنة » .

فقالت : « ولكنني لم أشرب خمراً » .

فقال : « أنا أعرف أنك لم تشربي ، إنما أنا الذي شرب » .

نظر المدير إلى مساعدته فرآها ترفع حاجبها متعجبة فقال : « بأي حق تجادلينني ؟ »

فقالت : « لم أنبس ببنت شفة »

فقال : « ولكنك كنت تصغين إليّ كأنك تحتجين على ما أقول ! »

أتم مستر كيتون وإرنست باجانو كتابة سناريو في الموعد المضروب ولما يكادا ، وهرعا إلى مكتب المخرج إرفنج تالبرج ليطلعاه عليه .

فقالت كاتمة سره : « إن مستر تالبرج مشغول الساعة . وسندعوكما إلى مقابلته ساعة يفرغ » .

وقد دعتهما — بعد تسعة أشهر ، فقالت بلهجة هادئة : « إن المستر تالبرج قد فرغ الآن » .

اشترت شركة مترو جولدوين ماير حقوق رواية تعرض في الراديو عنوانها : « موعد مع جودي » ، ثم اشترت حقوق القصة : « ضفائر الشعر » لتتخذ منها أساساً لفلم عنوانه « موعد مع جودي » ، ثم اشترت حقوق كتابٍ عنوانه : « الطير والنحل » ، لأنها فضلته على رواية « موعد مع جودي » لتتخذه عنواناً لقصة « ضفائر الشعر » .

قالت الممثلة لخطيبها : « لابد ياحبيبي من أن نرجيء زواجنا زمناً ما » .

فقال : « ولِمَ ذلك ؟ أمات حبّك لي ؟ »

فقالت : « لا ! لا ! ولكنني تزوجت لساعتي رجلا آخر ، فقليلاً من الصبر » .

ثار بين ڤان جونسون ولويس ماير مناقشة دامت أياماً ، فنادى ماير سكرتيرته وقال : « اطلبي ڤان جونسون بالتلفون ، وارفعي كل شيء عن مكتبي حتى أستطيع أن أصكه صكاً أثناء الحديث » .



همة عبقرى من رجال الصناعة

لستر فيلى • مختصرة من مجلة "كوليرز"

فى أوائل هذه السنة عزم هنرى كايزر أن يوسّع أعماله ، ورمى ببصره إلى مملكته الصناعية فلم ير سوى ست شركات للرمل والحصى ، وثلاث شركات لبناء السفن وإصلاحها ، ومصنعاً للإسمنت مساحته ميل مربع ، ومصنعاً للحديد والصلب ، وشركة تأمين ، وشركة بواخر ، وستة مناجم منوعة ، ومصنع طائرات ، وفرناً لصنع لبنات البناء ، وهيئة من المهندسين ، وثلاث شركات لمد الطرق والقيام بأعمال المقاولات .

فلم تكد تمضى بضعة أشهر حتى سدّ ما رآه فى هذه المملكة من ثغرات ، فاقترض مالاً من المصارف الخاصة واقتحم صناعة الألومنيوم بثلاثة وسبعين مليون ريال ، وزاد المال الذى اقترضه من الحكومة لصناعة الصلب فصارت قيمته ١١٤ مليون ريال ، فاستطاع أن يحتفظ بمصنع الصلب الذى أنشأه خلال الحرب ، وأنفق مليونين ونصف مليون ريال فى بناء عدد كبير من بيوت رخيصة الثمن ، وتعاقد على صنع سيارة لنقل الركاب من معدن المغنسيوم وصنعها ، وأنجز تجاربه فى صنع طائرة تستطيع الأسرة أن تنتفع بها ، وشرع فى إنتاج آلات للغسيل وخزائن لتبريد الطعام ، وأبواباً من الألومنيوم لحظائر السيارات ، ولبنات ، ومسرحاً يشيد من أجزاء قد تمّ إعدادها ، فبلغت أنواع الأعمال التى له عناية بها خمسة وعشرين نوعاً — منها الزراعة .

وقد قال أحد شركائه السابقين منذ عهد قريب : « هذا بناء سوف ينهار ، فهنرى لم يقدّر ضخامة ما أخذه على عاتقه » .

و «قلة التقدير» هذه مصدر من مصادر قوة هذا الرجل . فقد ترك المدرسة وهو فى السنة السادسة فإذا قلة حظه من التعليم ، قد أجدت عليه ولا تزال تجدى حتى اليوم .

ذهب مرة إلى جسى جونز رئيس أكبر هيئة فى الحكومة تقرض المال لرجال الصناعة ،

فقال له جونز : « ولكنك لم تشتغل بصناعة الإسمنت من قبل . إنك لاتقدر ما أنت فاعل » ، بيد أن كايزر أقنعه بأنه كالجواد العتيق لايخلف ظن من راهن عليه ، وخرج من عنده بالمال ، فبنى أكبر مصنع للإسمنت في العالم كله .

وقصد أعضاء مجلس الإنتاج الحربي في سنة ١٩٤١ فقالوا له : « مالك ولصناعة الصلب ، فأنت لاتعرف شيئاً عنها » ، ومع ذلك فقد شيد أول مصنع للصلب في الغرب الأمريكي .

وقصة مصنع الإسمنت هي أساس الصيت الشائع بأن رجال كايزر لايقهرون ، فقد قطع كايزر عهداً بأن يقدم ستة ملايين برميل من الإسمنت لبناء سد شاستا ، على أن يكون ثمن البرميل أقل بنصف ريال عن الثمن المتواضع عليه بين صناعه . وقطع هذا العهد على نفسه وهو لا يملك يومئذ مصنعاً للإسمنت .

ويوم تعهد كايزر بأن يقدم كل ما يحتاج اليه بناء السد من رمل وحصى ، أشرف على الإفلاس لارتفاع أجور النقل بالسكك الحديدية ، فمد رجاله خطاً من حبال الصلب فوق الجبل والوادى طوله عشرة أميال ، وجعلوا ينقلون على هذا الخط عشرين ألف طن من الرمل والحصى كل يوم ، من المحاجر إلى مكان السد .

فما أشرفت سنة ١٩٣٩ على نهايتها حتى كان رجاله قد أنجزوا في كاليفورنيا أكبر مصنع للإسمنت في العالم . ويوم أخرج المصنع أول كيس من الإسمنت ، عمد أصحاب مصانع الإسمنت الأخرى إلى نبذ معداتهم القديمة ، وإحلال الجديدة محلها ، لكي يتمكنوا من منافسة كايزر الذى خفض الثمن . فلما تم بناء سد شاستا ، حول كايزر هذا المصنع إلى أغراض الحرب ، فجهز القوات المسلحة بمعظم الإسمنت الذى احتاجت إليه لإنشاء القواعد الحربية في المحيط الهادى .

وفي سنة ١٩٤٠ اقتحم العاصمة وشنطن وهو يتأبط خططاً لإنشاء مصانع حربية في الغرب الأمريكي فلما حاول أن يقترض مالاً من جسى جونز ليشيد مصنعاً للمغنسيوم تلاقى خصمان عنيدان : قوة الرجل الصناعى المتدفقة ، وعين الرجل المالى الجامدة ، فقال جونز :

«أظنك أعددت طريقة مجربة لاستخراج المغنسيوم ؟ »

« طريقة مجربة » ! كان كايزر قد ابتاع حقوق طريقة في استخراج المغنسيوم من عالم مهاجر يدعى هانز جريج ، ولكن أحداً لم يجربها ، ومع ذلك فقد اتفق جونز وكايزر على أن يقرض الأول الثانى ٣٠ مليون ريال لينشىء مصنعاً للمغنسيوم ، وعلى أن يرد المال

كاملاً ومعه فائدة قدرها ٤ فى المئة .

وكانت هذه الطريقة تشمل فيما تشمله استعمال مسحوق المغنسيوم الشديد الالتهاب، فلكى يمنعوه من الالتهاب قبل أن يحول معدناً صلباً ، صبّ رجال كايزر زيتاً على المسحوق ، وسموا الكتلة اللزجة «صمغاً» .

وفى خلال قيامهم باستخراج المغنسيوم وتحويله معدناً صلباً ، خطر لأحدهم خاطر جديد : إنّ مسحوق المغنسيوم هو رأس المواد فى القنبلة المحرقة التى استعملت فى الحرب العالمية الأولى، فلماذا لا يصنعون قنبلة محرقة من هذه الكتلة اللزجة — من هذا « الصمغ » ؟ فهرع كايزر إلى قسم الحرب الكيميائية فى الجيش، وهو مثقل بنماذج من هذه المادة المدهشة المتفرعة من صناعة المغنسيوم .

فأسفر الاجتماع عن صنع « القنبلة المحرقة التى لا يطفأ سعيرها » ، وهى التى استعملت فى قذف اليابان . وقد صنع كايزر ٨٦ مليون قنبلة منها ، وأيضاً ٢٣ مليون رطل من معدن المغنسيوم .

كان بناة السفن قبل عهد كايزر يبنون السفينة كما يصنع الخياط المتقن ثوباً — لوحاً يضم إلى لوح ، ومسماراً يدق بعد مسمار ، فى دور للصنعة مزدحمة بالأشياء والعمال . وكان العمل يستغرق أشهراً من بدئه إلى نهايته ، ولكن رجال كايزر وضعوا أسلوباً جديداً لبناء السفن وراعوا فيه بناء الأجزاء بحيث يسهل بناؤها ، ثم تنقل كاملة ويضم بعضها إلى بعض فى دار الصنعة. فنقص الزمن الذى يستغرقه إنجاز سفينة حمولتها ١٠ آلاف طن ، من ٢٥٣ يوماً إلى ٢٦ يوماً .

فلما تمت هذه المعجزات الصناعية على يديه فى زمن الحرب ، ذاعت شهرته وفتن الناس به وبأعماله . ومع ذلك ترامت الأقوال بأن سفن كايزر تتفكك وتنهار ، وأن نفقات إنتاجه تفوق نفقات دور الصنعة القديمة. ولكن لجنة الكونجرس برئاسة ترومان (يوم كان عضواً فى مجلس الشيوخ) بحثت بحثاً دقيقاً أخبار جميع « سفن الحرية » التى صنعها كايزر وسواه ، فوجدت أن خيرها جميعاً سفن كايزر التى صنعت فى مصنعه « رتشموند ١ » وتلتها سفنه التى صنعت فى مصنعه « رتشموند ٢ » . أما معدل النفقة ، فقد جاء مصنعاه هذان فى المرتبة الثانية والثالثة .

ولما أخذت أسراب الغواصات الألمانية تغرق سفن الحلفاء بأسرع مما كانوا يصنعونها قال كايزر : « لماذا لا نبنى حاملة طائرات مجردة من جميع الزوائد ، فيتم صنع إحداها فى أشهر لا فى سنوات؟» ، واقترح أن يكون تفريغ الحاملة ١٨ ألف طن لا ٣٠ ألفاً ،

وهو تفريغ الحاملات الكبيرة ، ويمكن أن تبنى فى دور الصنعة التى تبنى فيهـا « سفن النصر » للنقل . قال كايزر لمؤتمر من أمراء البحر : « وافقوا على هذه الحاملة ، وأنا كفيل بأن نغلب الغواصات على أمرها » .

ففكر أمراء البحر فى الأمر ، ثم اقترعوا فإذا هم مجمعون على رفض هذا الرأى .

فلما ظفر كايزر بموافقة البيت الأبيض صنع خمسين حاملة ، فلم يزد زمن صنع الواحدة منها على ١٥٥ يوماً ، فغيّر رجال الأسطول رأيهم . وعلى أن هذه الحاملات لم تصنع لخوض المعارك البحرية ، فقد كان لها شأن عظيم فى الظفر فى معركة الفلبين البحرية بعيد النزول فى جزيرة ليتى ، فقد صدّت ثلاث من هذه الحاملات الأسطول اليابانى ، وحمت جنود ماك آرثر من كارثة . وقال الأميرال ڤيكرى لكايزر بعد الظفر: « نحن مدينون بهذا اليوم للحاملات التى بنيتها » .

ومنذ ذلك اليوم صارت الحكومة تتوسل بكايزر واسمه ، لتحث سائر رجال الصناعة على زيادة الإنتاج وتوفير الوقت ، حتى ضاق رجال الأعمال ذرعاً بالحكومة وهى تضرب لهم هـنرى كايزر مثلاً يحتـذى . وأغلب الرأى أنهم لايزالون يضيقون به .

ومن النـــاس من يرى أن التجربة لامندوحة عنها للنجاح فى ميدان الصناعة والتجارة ، فهؤلاء يرون فى هـنرى كايزر طفلاً أسكره النجاح الذى أصابه فى زمن الحرب ، وأنه لن يلبث حتى يتمرس بحقائق المنافسة زمن السلم ، فيعرف مكانه الصحيح بين أقرانه . أما هنرى كايزر فيرى أنه رجل الصناعة الذى يتطلبه الشعب ، وأنه واحدٌ من الذين يعقد بناصيتهم الأمل الأخير فى بقاء النظام الرأسمالى . فهو يسير ويتكلم ويفعل كأنه دائماً يواجه أزمة خطيرة.

وأسفاره بين أجزاء مملكته الصناعية المنتشرة فى ربوع أمريكا لا تنقطع ، وربما بلغت ٧٥ ألف ميل فى السـنة ، ولولا التلفون لعجز عن إنجاز ماينجز . وكثيراً ما كان يطلب أحد رجاله فى الطرف الآخر من القـارة الأمريكية فى جوف الليل ، فيستيقظ ويسير مترنحاً إلى التلفون فإذا به يسمع كايزر يقول : « عندى فكرة ، قد تكون سخيفة ولـكن ... » وقد دأب على ذلك حتى اشتد اعتراض زوجات رجاله ، فكف . على أنه لاينى عن عقد المؤتمرات بين رجال فى سان فرنسيسكو وشيكاغو ونيويورك ، فيكون التلفون واسطتها ، وهـذا كله يجعل ما ينفقه على مخاطباته التلفونية ٣٠٠ ألف ريال فى السنة .

ثم أقدم كايزر على مغـامرة خطيرة هى

صناعة سيارة كايزر فريزر، ولكن المقربين إليه وحدهم يعرفون أنه أوشك أن يقنط، حتى كاد ينفض منها يده. ففي ليلة من ليالي الصيف اسودّت الدنيا في عينيه وتملكه اليأس حين قابل بين خمسة ملايين ريال وقفها هو وفريزر على هذا المشروع، وبين ٦٠٠ مليون ريال كانت رأس المال الذي تشتغل به شركة جنرال موتورز، و ١٥٠ مليون ريال رأسمال كريزلر. أيستطيع أن يصنع سيارة في الغرب بعيداً عن مدينة دترويت عاصمة صناعة السيارات؟ إن ذلك يستحيل عليه، لأن جميع أجزاء السيارات تصنع في دترويت وجوارها. هل أخطأ في تعاقده مع جماعة فريزر؟ توالت عليه الريب والشكوك في تلك الليلة حتى نهشت قلبه وكادت تقوّض ثقته.

وإذا بمساعده الإداري الأول يقترح عليه أن يتخذ خطوتين جريئتين: الأولى، أن يستأجر مصنع الطائرات الضخم الذي أنشأه فورد في «ويلو رن» أثناء الحرب لصنع القاذفات الكبيرة. والثانية، أن يتوجه إلى الشعب لكي يساهم بماله في هذا المشروع، ثم يقتحم معقل دترويت.

على أن أصحاب المصارف في وول ستريت حيّ المال بنيويورك، كانوا يخشون المساهمة في شركة سيارات لم تصنع سيارة واحدة بعد، فتقدم صاحب مصرف من مدينة كليفلند واشترى جميع الأسهم التي أصدرها كايزر أول مرة، ولما عرضها على الناس بسعر ١٠ ريالات للسهم الواحد، زاد الطلب على المعروض ستة أضعاف، فصاح أحد السماسرة في وول ستريت متهكما:

«يستطيع هنري كايزر أن يقول للناس إنه ينوي أن يصنع شيئاً ما في المستقبل دون أن يحدد الموعد، فيشترون منه أسهماً قيمتها ٥٠ مليون ريال».

ولم يكن في وسع كايزر أن يعرض للبيع طائفة ثانية من الأسهم، إلا إذا حقق ما يقتضيه القانون من عرض نموذج للسيارة التي ينوي أن يصنعها. وإعداد هذا النموذج يستغرق في دترويت تسعة أشهر على الغالب. فجعل كايزر يحث المهندس جون مكسويل على العمل ليل نهار، فأنجز المهمة في ثلاثة أشهر.

وفي أوائل يناير من هذه السنة تمّ صنع نموذجين جميلين وعرضا في فندق والدروف أستوريا الفخم في نيويورك، فدهش القوم وأعجبوا، وانهالت الطلبات بمعدل طلب في كل ثلاثين ثانية، حتى بلغ عددها تسعة آلاف. فلم يبق على كايزر سوى أن ينتج السيارات.

ولكن، أين يستطيع أن يظفر بالعمال

الفنيين الحاذقين فى دترويت الظامئة إليهم ؟ وأين يستطيع أن يتعاقد مع ثلاثمئة من أصحاب المصانع على صـنع مقابض الأبواب والرفارف وحواجز الزجاج ـ وهى الأشياء التى لاغنى عنها فى صناعة السيارات ، وبها تحيا أو تموت ؟ وكان الصلب نادراً حتى اضطرّ الذين زاولوا صناعة السيارات منذ زمن أن يكتفوا بثلثى مايحتاجون إليه منه إلى آخر سنة ١٩٤٧ . إن الطلب على الصلب يحول بينه وبين الصلب الذى يحتاج إليه .

فعزم أن يناضل ، كما كان يناضل فى أثناء الحرب ، فكانت خطوته الأولى أن يجد بديلا من الصلب ، فطلب بالتلفون مدير مصنع له يصنع الطائرات وقال: «أريد أن أراهن عليك بمليونى ريال أنك تستطيع أن تصنع لى سيارة من الألومنيوم ولكن ينبغى أن تصنع فى ثلاثين يوماً» .

أما أصحاب صناعة السيارات فما فتئوا منذ ثلاثين سـنة يدرسون موضوع صنع السيارات من الألومنيوم ، بيد أن كايزر رأى أن يتجاهل طول البحث الذى لم يجد ، فاقترض ٢٠ مليون ريال من المصارف ، واستأجر مصنعين كبيرين للألومنيوم تملكهما الحكومة .

وانقضت الأيام الثلاثون دون أن تتم المعجزة ، إذ ظهر أن صنع سـيارة من الألومنيوم يحتاج إلى طائفة جديدة من الأساليب الصناعية والفنية .

فعزم أن يوجه نداءه إلى الشعب ، فدعا إلى عقد مؤتمر صحفى ، وكشف فيه عما يعانيه من أجل الحصـول على ما يحتاج إليه من الصلب . فليس هناك من يبيعه صـلباً ، واتهم رجال مصانع الصلب أنهم يتآمرون عليه ، ولم يتردد فى ذكر الأسماء ، وطلب من وزارة العدل أن تتدخل فى الأمر ، ومن الحـكومة أن تقدم على توزيع الصلب فتعطى كلا نصيباً منه .

ولـكن حملته هـذه باءت بالخيبة ، ولم يحرّك الشعب تهجمه على رجال صناعة الصلب ، وأهمل ما طلبه من الحـكومة ، فقد هدأت النفوس ، وزالت الأسباب التى اقتضاها الإنتاج الحربى ، فصار لزاماً عليه أن يصنع بنفسه الصلب الذى يحتاج إليه إذا قدّر له أن يصنع سيارته .

ولما كان مصنع الصلب الذى أنشأه فى أثناء الحرب قد أنشىء ليصنع ألواحاً للسفن لا ألواحاً للسيارات ، فقد مضى كايزر يبحث فى طول البلاد وعرضها عن مصانع يستطيع أن يتولاها لغرضه الجديد ، فوجد ما أراد واشتراه بمال جمعه من بيع طائفة جديدة من الأسهم ، فحلت مشكلة الصلب التى يعانيها .

ثم تمكن ابنه إدجر من أن يجمع فى مصنع « ويلو رن » قرب دترويت جماعة من رجال الإنتاج ، وحوّل مصنع الطائرات إلى مصنع للسيارات ، وأقام خطوط التجميع وأساليب رش أجسام السيارات بالطلاء ، وضمن وصول الأجزاء اللازمة للسيارة وصولا مطرداً . وفى يوم من أيام يونيو الماضى ، درجت على خط التجميع الذى يبلغ طوله ميلا وربع ميل ، ٢٥٠ سيارة من سيارات « كايزرسبشيال » .

فكتب محرر باب السيارات فى صحيفة دترويت « فرى پرس » : « شاهدت فى ويلو رن دليلا مقنعاً على أن كايزر وفريزر يستطيعان أن يصنعا سيارات وسوف يصنعانها » .

وكان الناس ينتظرون من كايزر أن يصنع سيارة لامثيل لها ، بيد أن السيارات التى تصنع فى « ويلو رن » كانت كأمثالها من السيارات ، على أن ذلك لم يفت فى عضد كايزر ، فهو يقول : « بدأنا نصنع السفن على القواعد المتبعة ، فصنعنا المئة الأولى من السفن كما صنعت غيرها من قبلها ، ثم مضينا على طريقتنا الخاصة » .

واهتمام كايزر بصناعة السيارات يفتح له أبواباً ينفذ منها على صناعات شتى . فما كاد يلفى نفسه يصنع الألومنيوم حتى انهال عليه الطلب من رجال الصناعة الذين تشتد حاجتهم إليه . وسيرى يومَ تتاح له المواد اللازمة لبناء البيوت الرخيصة ، أن الإقبال عليها عظيم . وقد اشترك معه رجل من الذين تمرّسوا ببناء البيوت ، ومهّدا الطريق لصنع بيوت يبلغ ثمنها ٧٥ مليون ريال .

إن صورة التوسع توسعاً لاحد له ، قد استهوت هنرى كايزر فدفعته فى طريق خلّف فيه وراءه سبع عشرة شركة كبيرة . ولما طلبت منه هيئة إقراض المال الحكومية ، أن يقدم لها ميزانية عن الشركة الأصلية التى ولدت جميع هذه الشركات قال لهم : « ليست هناك شركة من هذا القبيل ، فما نحن إلا مجموعة من الخلايا تنقسم فتولد خلايا جديدة » . أما منافسوه فيقولون : « شركات كايزر ؟ إنها بيت من الورق ، إذا هوت واحدة هوت جميعاً » .

إلا أن هنرى كايزر دبر أمره حتى فصل هذه الشركات بعضها عن بعض ، وجعل كلاً منها مستقلة فى مالها ، فإذا أخفقت شركة السيارات ، فإن ذلك لا يمسُّ شركة الألومنيوم أو شركة الطائرات . وفى وسط هذه الجماعة من الشركات تجد شركة هنرى كايزر وهى شركة يملكها هو وابناه ، ومنها يأخذ مرتبه — ٣٦ ألف ريال فى السنة . وقد

أنشأ شركتين على مبـدأ مشاطرة الربح ، وجعل لمديرى شركاته المختلفة أنصبة فيها ، فصاروا مقيدين به بقيد مصلحتهم القوية .

وهؤلاء الرجال يشاطرونه الربح والأمل أيضاً ، ويوفـُّون بالعهود التى يأخذها على نفسه ، وترى المقربين إليه من مستشاريه وهم عشرون أو نحو ذلك ، كأنهم عصبة من الطلبة الأصدقاء فى جامعة ، ولم يطرأ عليهم جديد فى السنوات العشر الأخيرة .

وكايزر طراز جديد من رجال الصناعة، وتقـدمه إلى الذروة بينهم وافق نشوء ظاهرتين : هما مشاركة الحكومة فى أعمال كثيرة ، وانتظام نقابات العمال الكبيرة ، فصارت هاتان القوتان تضارعان قوة أصحاب الصناعات والشركات الكبيرة . وإذا سلمنا بأنه رجل كسائر الناس لا غرض له سوى أن ينتج ويربح فإنه قد سعى سـعياً صادقاً لكى تجدى أسـاليب المساومة المشتركة التى أخذ بها العمال ، ولكى يكون التعاون مع الحكومة أجدى عليه من مناضلتها. ورغبته فى التعاون مع الحكومة وجماعات العمال حملت بعض رجال الصـناعة الأمريكية على أن يعدّوا هنرى كايزر خارجاً على جماعته ، كما كانوا يعدُّون روزفلت من قبله .

ولا يكاد كايزر ينجز مايتبجَّـح بذكره من أعمال ، حتى يبـادر إلى عمل أكبر وبعد أن كان الناس يتساءلون : « هل يستطيع كايزر أن يصنع المغنسيوم أو حاملات الطائرات؟ » صاروا يسألون : « أيستطيع أن يصنع سيارات وبيـوتاً وآلات للغسل وطائرات ، وأن يبيعها ؟ »

نعم إن الجواب مستسرٌّ فى قلب المستقبل ، ولكن ثق بأنك لاتكاد تعرفه ، حتى يطالعك كايزر بما يستثير عجبك وتساؤلك .

·OOOO··OOOO·

هو السبب

● اعترض شرطىٌّ شاباً من طلاب الجامعة رآه يسوق سيّارته إلى الوراء ، فسأله عن سبب ذلك ، فقال إنه اسـتأجر السيّارة على أن يوفى أجرتها وفقاً لعدد الأميال الذى يسجله مقياس المسافة . ولما كان القياس لا يسجل حركة السيارة إلى الوراء ، فقد عمد إليه للتوفير .

● أقدم عروسان من أهل الطبقة الراقيـة فى نيويورك على القيام برحلة شهر العسل ، بعد انقضاء ستة أشهر على زواجهما ، فلما سئلا قالا : لقد أرجأنا الرحلة ستة أشهر حتى نثق من أن زواجنا موفق ، قبل أن ننفق المال فى الرحلة .

ألقِ كلمتك حيث تُثمر

أوسكار شيزجول

مختصرة من مجلة "ذس ويك"

ذهبنا في الشتاء لقضاء عطلة الأسبوع في بوسطن مع آل باركلي، حيث كان الرجل يدرّس اللغة اللاتينية في كلية هناك. فأشرت ونحن نتعشى إلى المشقة التي يعانيها المرء حين يسوق سيارته في عاصفة من ثلج، فلا يستطيع أن يرى ماوراءه من خلال النافذة التي في مؤخر السيارة، لأن الصقيع يغشاها. وقالت زوجتي: وأظن أن أصحاب مصانع السيارات ينبغي أن يركبوا جهازاً على النافذة يذيب الصقيع الذي يتكون عليها.

فقال الدكتور باركلي وهو يبتسم: فكرة حسنة، فلِمَ لاتعرضينها حيث يثمر عرضها، لِمَ لاتكتبين لأصحاب مصانع السيارات؟

فعلت زوجتي ما اقترحه عليها صاحبنا، وتلقت بضع رسائل تفيض شكراً على رسالتها. ولست أدري ماكان لرسالتها من أثر — ولكنني أعلم أن طائفة من السيارات الجديدة تحوي جهازاً على النافذة الخلفية يذيب الصقيع. وقد حملتني رؤية هذا الجهاز الجديد على تذكر الدكتور باركلي وتعلقه بعبارة: «حيث يثمر»، فقد كان من الذين يدأبون على كتابة الرسائل، ولم أرَ في حياتي من يضارعه في دأبه هذا. فلا يكاد الكونجرس أو مجلس الولاية يعنى ببحث موضوع إلا وترى الدكتور باركلي صاحبَ رأي فيه، فلا يضن برأيه بل يجلس إلى مكتبه ويعرض رأيه في رسالة عرضاً واضحاً، ثم يرسلها إلى ممثلي مقاطعته في المجلس، أو قد يقرأ كتاباً يستحسنه، فيعرب عن استحسانه في رسالة يرسلها إلى مؤلف الكتاب أو ناشره.

وبعد أن مضت أشهر على وفاة الدكتور باركلي، أتيح لي حديث مع الرجل الذي يمثل منطقته في مجلس النواب، فقال الرجل: «نعم أتذكره، فقد كان صافي الفكر، سديد الرأي، ولست أعرف رجلاً من أهل دائرتي كان أجدى عليَّ خلال سنين في إطلاعي على رأي الناس في شئون كثيرة».

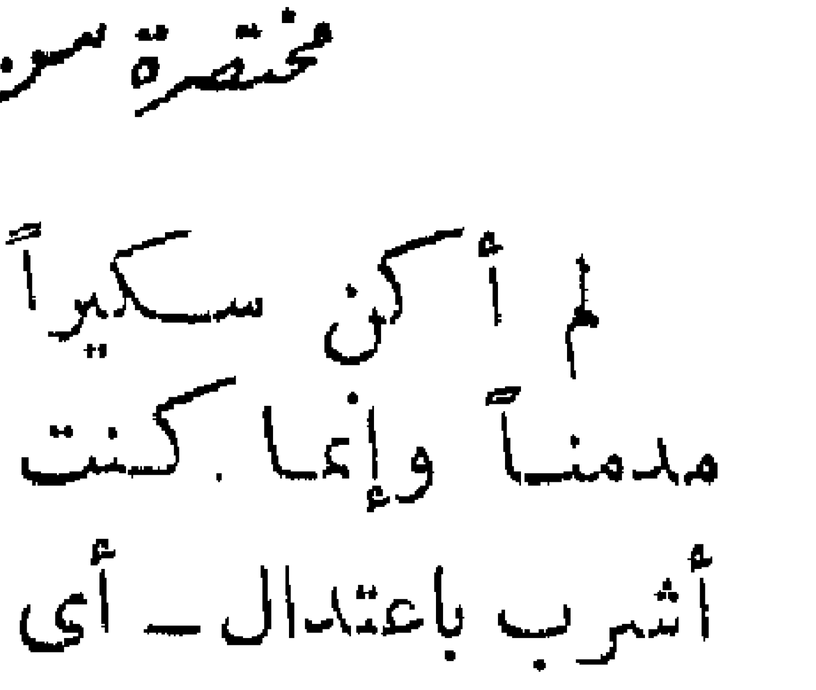
وقد ذكرت كلَّ هذا لمسز باركلي فأصغت إليَّ وعلى ثغرها ابتسامة رقيقة، ثم قلتُ: «ومن الخير للامة أن يعمد كثيرون من الناس إلى الإعراب عن رأيهم كما كان زوجك يفعل». فأطرقت متفكرة وقالت: «ولِمَ لاتقول هذه الكلمة حيث يثمر قولك؟».

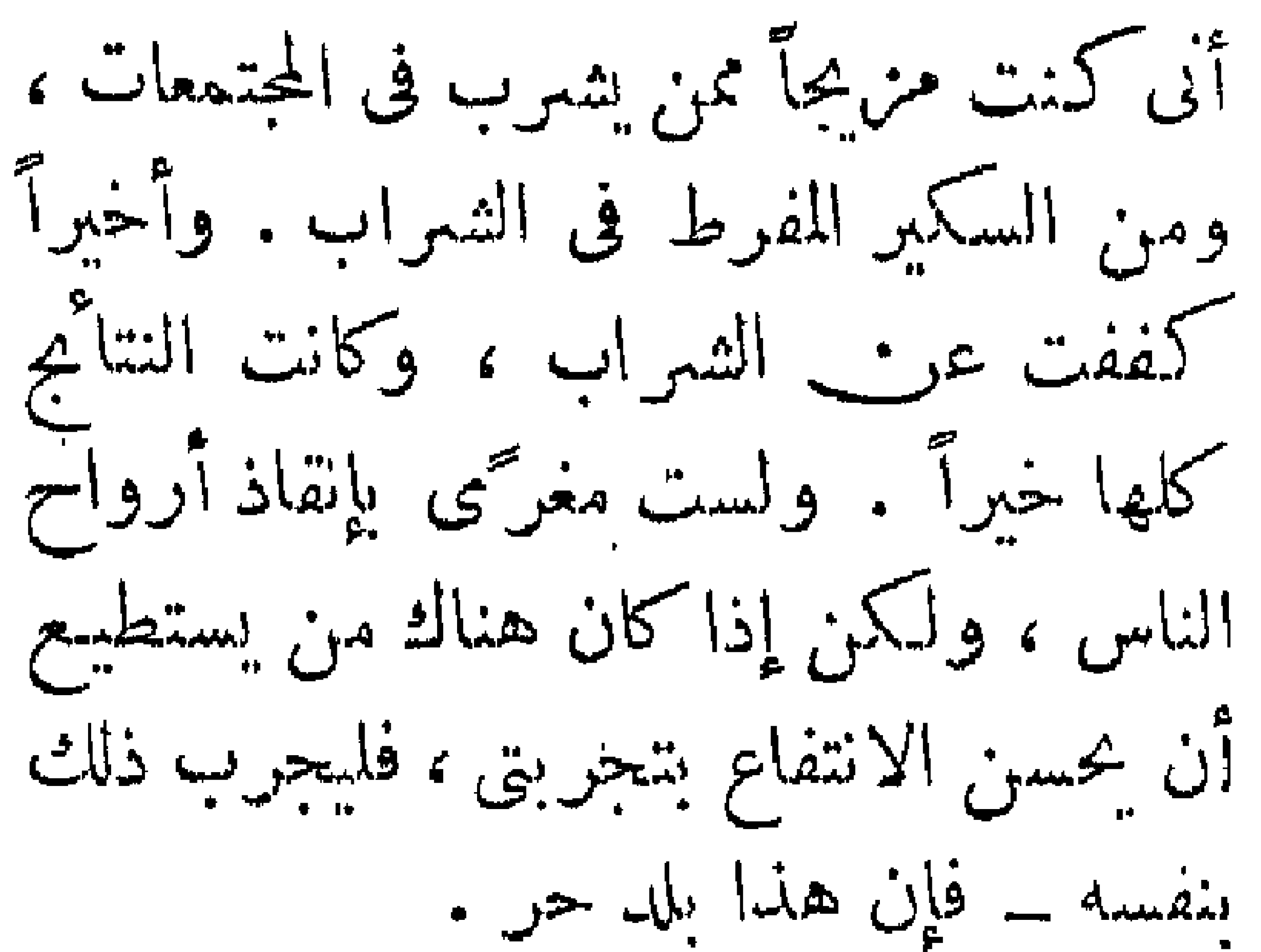
وهاأنذا قد فعلت.

لماذا هجرت الشراب

تشانج بروستر

مختصرة من مجلة "يور لايف"





لم أكن سكيراً مدمناً وإنما كنت أشرب باعتدال — أي أنى كنت مزيجاً ممن يشرب فى المجتمعات ، ومن السكير المفرط فى الشراب . وأخيراً كففت عن الشراب ، وكانت النتائج كلها خيراً . ولست مغرًى بإنقاذ أرواح الناس ، ولكن إذا كان هناك من يستطيع أن يحسن الانتفاع بتجربتى ، فليجرب ذلك بنفسه — فإن هذا بلد حر .

وشرب الخمر فى محل العمل ، وفى أثناء ساعات العمل ، محظور — إلا إذا استطعت أن تجىء بعذر مقبول كعيد رأس السنة ، وعيد ميلاد بعضهم . وكنت كمعظم المعتدلين فى الشراب أبدأه بعد الساعة الخامسة . لكنى على خلاف الأكثرين لم أكن أستطيب شرب فى حانة مزدحمة أو فى حجرات الشراب بالفنادق . وكنت أخشى إذا أنا تلكأت فى أمثال هذه المحال أن يقول الناس ن بينى وبين زوجتى شارلوت شيئاً ، فكنت ذا انتهى عملى أستقل أول سيارة عامة إلى البيت . فإذا شارلوت فى المطبخ . وإذا ولدى وهو ابن سبع ، يرجونى أن ألاعبه ، فكانت طقطقة المواعين فى المطبخ ورجاء ابنى ، يورثانى نقيض ما كان ينبغى أن يفعلا ، فأحس أن بى حاجة إلى قدح من الكوكتيل ، فأهيىء بضعة أقداح .

وتقول شارلوت : « أعدّ لى قدحاً وسأخرج بعد دقيقة » ، وكانت دائماً لا تكاد تفرغ من رشف قدحها الخفيف إلا عند انتهاء العشاء .

وإلى أن يحين العشاء أجلس ومعى جريدة وإلى جانبى إبريق الخمر ، وأكون قد أتيت على ما فيه حين يوضع الطعام على المائدة . وكانت شارلوت لا تفتأ تؤنبنى على إفراطى فى الشراب ، فأجاوبها بمثل كلامها . وما ضير قدحين من الكوكتيل ؟ وطبيعى أنه كان من العسير أن يُعرف على وجه الدقة مقدار ما احتسيت وزعمتُه قدحين — فإنى أكون قد أفرغت فى جوفى نصيبى من الإبريق وما بقى من نصيب شارلوت .

ولكنه من الخطأ أن يقال إنى سكرت ، فقد كنت أستطيع أن أتكلم وأفصح ، وإن كنت أفعل ذلك بنشوة غير عادية ،

وأستطيع أن ألتهم الطعام وإن كنت لا أكاد أجد له طعماً، وبعد الطعام يثقل رأسي، فكل ما أحاول أن أفعله — كأن أقرأ أو ألاعب ولدي أو أرافق شارلوت إلى السنما — يفسده على الشعور الثقيل بالرغبة في الراحة.

وإذا ذهبنا إلى حفلة، فالأمر كما وصفت، لولا أنه شر من ذلك. فقد كنت أشرب من الأقداح مايكفي لتهيئة نفسي لشهودها. وفي الحفلة بعد أن أشرب قدحين آخرين أرى الأغراب أصحاباً وألافاً، ويخيل إلى أن زوجة بعض الجيران ذات فتنة عجيبة، ثم يبلغ من اغتباطي بما تبينته من المزايا الإنسانية في الضيوف، بعد أن كانت مستورة عني، ومن فرحي بطيب فكاهتي، أن لايبقى لي بال إلى عدد الأقداح. ثم يُدار بي.

أما ما كان يحدث بعد ذلك فكان رهناً بأمور شتى — وخاصة الطعام الجيد والهواء النقي، وما يجد من الشراب. وقد يتأخر أذى الخمر إلى الصباح كما هو شأنه في الأكثر، أو قد يبدأ في منتصف الليل، ولكنه على الحالين لم يكن منه مهرب، كالموت والضرائب، وهو مثلهما سخيف.

فإذا كان اليوم التالي للحفلة يوم إجازة، فإني أحتضن هذا الأذى في مخدعي، وإذا كان يوم عمل فإن اليد المرتعشة والصداع الذي يعمى، ومحاولة حصر الذهن، والإشفاق من ارتكاب الأغلاط — كل هذ يجعل أذى الخمر أثقل وطأة على الأعصاب.

كذلك كانت عاداتي في الشراب. وقد يحسن أن أضيف إلى ذلك أنه كانت تمر أيام كثيرة لا أتجاوز فيها القدح أو القدحين.

ثم جاء يوم أقلعت فيه عن الخمر، ومازلت منذ ذلك اليوم ممسكا عنها، ولم أشعر برغبة في الشراب، ولم أحسد الذين يكرعون الوسكي إذ أكتفي أنا بعصير البرتقال. وقد تعمدت مرتين أن أقطع فطامي هذا، فقوى هذا الامتحان عزمي، وكان أشبه بمحاولة استئناف حب عفى عليه الزمن.

وكان فطامي عن الشراب بإرادتي، فما كانت ثم فضيحة أورثتني ندماً، ولم أقسم على الكف، وكل ماحدث أني نظرت إلى المسألة في جملتها فاستقر رأيي، وكان القرار كمعظم مانتخذه من القرارات المهمة في الحياة، غاية ما يمكن أن يسمى حركة نضج في الرأي والشعور. وكان هذا هو الأسلوب الذي جريت عليه في كل أعمالي بعد أن بلغت مبالغ الرجال — دخولي في ميدان عمل جديد، وتزوجي، وابتياعي بيتاً.

وإذا أنا أنظرت إلى الصورة في جملتها، فإنه لايسعني إلا أن أعترف بأن الشراب، باعتباره عوناً على الاستمتاع بالحياة، لم يكن إلا مخيباً للأمل. فقد كلفني كثيراً من المال

وإن لم أكن شرِّيبا مسرفاً ، ولكنى كنت أنفق على الأقل ريالاً فى اليوم على الشراب ، وإن كنت أنفر من الحانات ، ولا وجود فى بلدتنا لمسارح اللهو الليلية . وإن ثلاثين ريالاً فى الشهر لمبلغ جسيم من دخل متوسط ، فإذا ادَّخرتُ هذا القدر عشر سنوات ، فإنى أكون حين يتهيأ ولدى لدخول الجامعة ، مستعداً له بالمال بدلا من المعاذير .

على أنى من وجهة نظر أخرى أهم ، كففت عن الشراب لأنى كنت أغالط نفسى فيه ، وكان ينقصنى المسوِّغ الذى يحتجُّ به أهل الإدمان — فما كنت هارباً من شىء ، وليس فى حياتى اضطراب ذو شأن ، وأنا أحب زوجتى وهى تحبنى ، وأستلطف الناس ويستلطفوننى ، وعملى يجعلنى مشمراً دائماً عن ساعدىَّ ، وإنما كان عذرى هو ما يدلى به فى العادة أهل الاعتدال فى الشراب — أنى تعبٌ متوتِّر الأعصاب . ولاشك أنى كنت فى آخر يوم يتفق أن يكون مكظوظاً بالعمل ، أشعر ببعض التعب ، ولكنى وجدت فى العام الماضى أنه لا يبلغ من تعبى أن لا يذهب به التمشى أو مشاركة ولدى ساعة فى اللعب . أما الخمر فكانت تنعشنى ثم تُفترنى وتتركنى أكثر إعياء وتبلداً .

ولاشك أننى أعانى داء العالم الحديث — توتر الأعصاب . وما من ريب فى أن الخمر كانت تعفينى من الشعور به ، ولكنها كانت أشبه بما يزيل التلويث من الثوب فيمزقه . فتبينت أنه ينبغى أن أعالج التوتر بما هو أجدى من رش قطرات من الخمر عليه .

وكانت أسطورة خرافية تلك التى اعتنقتها حين خيل إلىَّ أن الخمر قادرة على أن تجعل جماعة من أهل بلدتى على غرار ممثلى رواية مضحكة ، فى طيب الفكاهة وملاحة النكتة . فإن زوجة جارى — سكرى كانت أو مفيقة — لا ذات فكاهة ولا لعوب ، ومثلها بقية أهل البلدة ، وأنا أيضاً . ومهما يكن فى حديثى من التسلية ، فإن هذا ليس مستمداً من الخمر بل من تحرك العقول ذات الخيال . فإذا التمست القوة من قراءة كتاب فيه بعض الغذاء ، ثم نشدت صديقاً لا ينفر من التفكير ، فقد لا يجىء حوارنا بارعاً باهراً ، ولكنى على الأقل أرجع إلى البيت برأس صافٍ ، وبشعور بأنى لم أضيع وقتى فى سخف محض . وقد وجدت أن الاستمتاع الحقيقى بالحياة لا يعين عليه أن يكون الرأس فى عَماية . وأنا أريد أن أدرك مغزى تجربة ، أو معنى فكرة على حالتها الطبيعية ، لا من خلال ضباب محيِّر ينشره قدح من الخمر .

لماذا أقلعت عن الشراب ؟ لأنى — فوق كل شىء — كرهت سلطانه على نفسى . نعم

كنت معتدلاً في الشراب ، ولم أكن أتلهف عليه ، ولكن الخمر كانت أميرى الذى ألقاه بالطاعة. وكان القدح أو القدحان يريانى العالم على خلاف حقيقته ، فإذا أفرطت اقتنعت بأن فى وسعى أن أرقص « الرومبا » أو أن أقود سيارة بسرعة شديدة، وبأعظم تحرز .

وأحسب أن شعورى بكرامتى هو الذى أركبنى هذا المركب الطيب ، فإنى مشهور بأنى « مستقل » ، وأنا أقاوم بشدة حتى ما أتخيله من الرغبة فى التحكم فىّ ، ومع ذلك كان الشراب أميرى المطاع . فلم تطب نفسى بأن لا أكون أنا سيد نفسى .

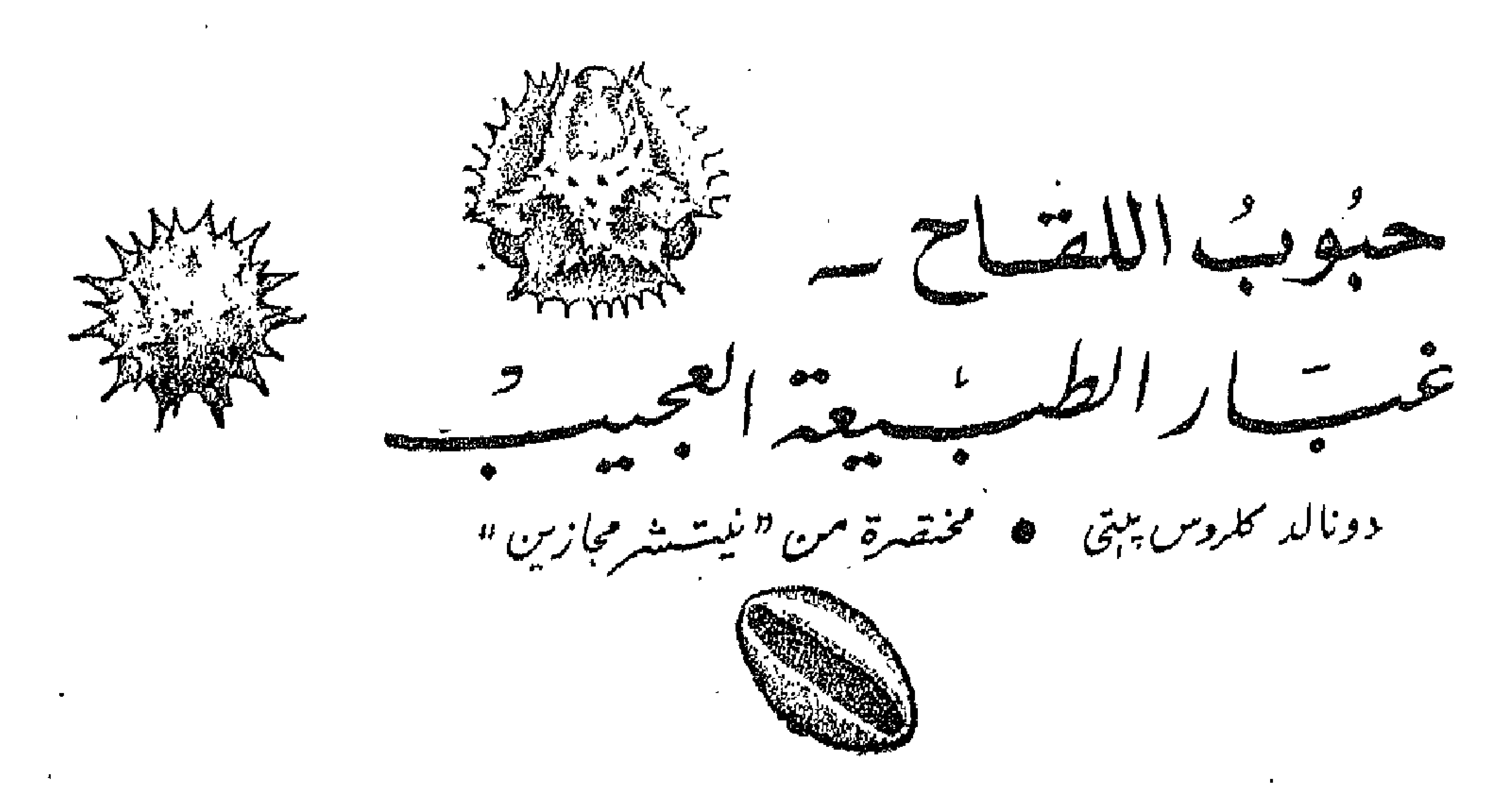
وهكذا أقلعت. ولست أحس بألم، ومازلت أنعم بشعور جميل بالحرية – كما كنت أشعر حين تنتهى الدراسة فأخلع نعلى ، وأمشى حافياً . وقد حسن الجزاء يوم استولت شركة كبيرة على الشركة التى أعمل فيها ، فتبطلت ثلاثة شهور ، وكانت تلك أياماً عصيبة ، فباركت حريتى الجديدة ، واعتمادى التام على نفسى دون أن أتعرض لخطر الغدر من عكازةٍ من زجاج قد تخوننى وتنزلق من تحتى . واجتزت الأزمة وأنا الآن خير حالا مما كنت ، وليس من همى أن أقنع أحداً بترك الشراب ، ولكنى أعتقد أن كل من يبغى التحرر من النفقات الكثيرة ، ومن وجع الرأس . وأن لا يضيع الوقت سدًى ، وأن يتقى بعض ما يعقد الحياة ، فإن فى وسعه أن ينال ذلك إذا هو فعل ما فعلتُ .

فى الطريق إلى القمة

ذهبنا بسيارتنا فى رحلة إلى الجبال ، فوقفنا عند أعلى القمم نتملى من المشهد الرائع ، ولم نكد نلقى بالنا إلى فتى فى الثانية عشرة يبيع الفاكهة على قارعة الطريق لكثرة ما شاهدنا من أمثاله ، حتى جاءنا يعرض علينا منظاراً ، دالّنا على أماكن لها تاريخ وروعة وراء الوادى ، ثم تخير أجود فاكهته وأتى بها إلينا. فلما سألناه ما يطلبه منا من مال قال من فوره : « لاشىء . لاشىء. الفاكهة بالمجان . ويسرنى أن أدل الناس على هذه المشاهد — ما أجملها ! »

فبعد أن أعطاه كل منا ربع ريال على سبيل المنحة سألته : « كيف يسعك أن توزع فاكهتك بالمجان على حين ترى غيرك هنا يبيعها » ، فابتسم ابتسامة خبيثة وهو يداعب النقود فى جيبه الحافل وقال : « أكسب أكثر مما يكسبون » .

[ت . م . ديكرسون]



حبوب اللقاح — غبار الطبيعة العجيب

دونالد كلروس بيتى • مختصرة من "نيتشر مجازين"

فى فضاء الهواء الذى يحيط بنا ، يطفو غبار عجيب قوىّ ينفث الحياة فى الأشياء . وحبة اللقاح شىء لا تراه العين المجرّدة ، ولكنها تحمل فى طيها شعلة الحياة المخصبة — حياة الذكر .

وبعض حبوب اللقاح تركب متن الهواء لتبحث عن مستقرّها ، فربما رأيتها ترتفع فى الهواء كأنها سحابة من ذهب ، إذا أنت داعبت بأصابعك خصل شجرة الحُور المشيقة ، أو نفضت النوارة الناضجة فى شجر الصنوبر ، وبعضها يلتصق بالنحلة الغبراء وهى منطلقة من زهرة إلى زهرة .

بيد أن كلّ حبة من حبوب اللقاح مقدر لها أن تمضى فى رحلة قد تكون مسافتها بوصة واحدة أو مئات من الأميال ، وغاية رحلتها زهرة أنثى من نوعها .

ولولا حبوب اللقاح لما انعقدت بذرة واحدة فى العالم ، ولذوى العشب ، ولعجزت الأشجار المثمرة أن تؤتى ثمارها ، لأن حبوب اللقاح تعبر فى طيرانها هوّة الموت العتيد ، حتى تبدأ معجزة حياة جديدة .

وعلى ما فى حبة اللقاح من قوة كامنة فيها تراها أوهى من لهب شمعة فى عاصفة ، فهى دائماً فى خطر من أن تموت عطشاً أو جوعاً . وهى تختلف عن البذرة فى أنها لا تحتوى فى كيانها مادة تحيى بها ، وحسبها قطرة واحدة من الندى لتميتها ، لأن الماء يبلّ غلافها فينتفش وينفجر ، فتتعرض جرثومة الذكر فى داخله للأشعة فوق البنفسجية القاتلة . ولا تستطيع حبة من لقاح القمح أن تعيش فى الأحوال المواتية أكثر من ست وثلاثين ساعة .

وبعض حبوب اللقاح واهية التركيب كرقائق الثلج ، منوّعة الأشكال كالجواهر ، فإذا نظرتُ إليها بعدستى المكبرة ، بدت لى كجوزة البلوط الشائكة ، أو صور سطح

القمر، أو قنفذ البحر (الرتسا)، أو كؤوس الورق المقصوص التي توضع فيها حبوب الحلوى. وأكثرها كروىٌّ ككرة القدم. ولكن حبوب اللقاح تتخذ أشكالا هندسية شتى، فتكون كالمكعبات أو الأجسام الثلاثة التي لها أربعة وجوه، أو الأجسام التي لها خمسة وجوه أو اثنا عشر وجهاً. وأكبر حبوب اللقاح، كلقاح زهر القرع، لا يزيد سمك الحبة منها على جزء من مئة جزء من البوصة أما حبة لقاح الزهرة التي تدعى عين الهدهد فأصغر منها مئة مرة!

وخبراء اللقاح يستطيعون أن يميزوا حبوبهُ على تعدد أنواعها، فيعرفون حبوب النباتات والأشجار والأعشاب التي تحدث حمى الربيع، أي مرض البولينوسيس (وهو الاسم العلمي الدقيق لما تواضع الناس على وصفه بحمى الربيع).

ومن حسن الحظ أن حبوب اللقاح التي تحملها الرياح ليست جميعاً من الضرب السامّ، فقلما تجد امرءًا يؤذيه لقاح الصنوبر مع وفرته في الربيع. والحبوب لقاح الصنوبر أكياس من الهواء تجعله خفيف المحمل، حتى لترى حبوباً منه على ثلج جرينلند، مع أن أقرب غابات الصنوبر إليها تبعد عنها ٤٠٠ ميل، وهي واقعة في لبرادور على الجانب الآخر من البحر.

ولا تصدِّق ما تتحدَّث به بعض العجائز عن «زكام الورد»، فالورد كسائر الأزهار التي لها ورق زاهٍ وعطر ذكي، تلقحه الحشرات، وحبوب لقاحه لا تصلح لركوب متن الهواء، وقلما تجدها منتشرة في الفضاء.

وكلُّ صغير من تلاميذ المدارس يستطيع اليوم أن يعلم أبويه حقائق الحياة الجنسية استناداً إلى ما تعلمه عن النحل وحبوب اللقاح وتلقيح الأزهار. ومع ذلك لم يكن من العلماء من يعلم منذ ثلاثة قرون أن للنبات حياة جنسية، غير أن المصريين والبابليين القدماء كانوا يعرفون ذلك، لأنهم كانوا يلقحون نخلهم بأيديهم. ولعلّ الناس نسوا ما كان القدماء يعرفونه، حتى لترى مالبيجى عالم التشريح الإيطالى العظيم في عصر «الإحياء»، يقول لطلابه إن النبات يطرح لقاحه لكي يصفو عصيره.

وفي سنة ١٧٩٣ كشف القس كرستيان كونراد شبرنجل في ألمانيا أن الحشرات تنقل حبوب اللقاح من زهرة إلى زهرة، وعدّ هذا العمل من معجزات الله، فقضى وقتاً كثيراً في الحقول يدرس الزهر والنحل حتى أذهله ذلك عن الإياب إلى كنيسته ليتولى الوعظ فيها، فانصرفت عنه رعيته. وقد سبق شبرنجل علم زمانه، فلم يدرك العلماء يومئذ قيمة ما عمل، وظل مهملاً حتى جاء داروين

ونفض الغبار عن بحوثه بعد ستين سـنة .

وقد كان داروين أول من بين أن ضروب الأزهار لها وسائل معقدة تمنع التزوج بين ذوات القرابة الدانية منها . فعضو التأنيث في بعضها لا يلقح بحبوب اللقاح التى فى عضو التذكير فى الزهرة نفسها ، ولا يولد بذوراً إذا ذر بحبوب اللقاح من النبتة نفسها . وفى بعض الأزهار ترى عضو التذكير يبلغ نضجه قبل عضو التأنيث ، فلا يتم التلقيح إلا إذا جيء بحبوب اللقاح من نبتة أخرى قد تم نضج أعضـاء الذكر فيها ، فى موعد يوافق نضج عضـو التأنيث فى هذه .

ونحلة العسل هى خير معوان على التقاليح ، فهى أول الحشرات التى تحبّ الأزهار تبكيراً فى الطيران إذا جاء الربيع ، وتظل دؤوبة على العمل بعد أن تكفّ الحشرات الأخرى. وقد جرت على أن تلازم نوعاً واحداً من الزهر مدة ما على الأقل ، فهى تختلف عن الفراش الذى يشتار الأرْى من هذه الزهرة ثم من تلك . وإذن فاللقـاح الذى تحمله النحلة ينقل إلى حيث ينبغى أن ينقل — أى إلى زهرة أنثى من النوع نفسه . وهذا أمر ذو خطر عظيم ، لأن حياة حبة اللقاح قصيرة الأجل .

وتـكاد خلية النحل تـكون شيئاً لاغنى عنه فى بستان تفاح أو برتقال . وتستعيض النحلة من المجهود الذى تبذله بما يتاح لها نقله من حبوب اللقاح إلى يرقاتها وصغارها فى الخلية ، فتغتذى به . وهذا اللقاح الذى تنقله إلى صغارها تدسـه فى كيس صغير فى فى رجلها ، ولـكن حبوب اللقاح تعلق ببدنها كله فى سعيها إلى الحصول عليـه وتنقلها من زهرة إلى زهرة . وكذلك تحمل مقداراً كبيراً من اللقاح يبلغ أحياناً نصف وزنهـا — تنقله من زهرة إلى زهرة ، فتلقح مئات من الأزهار كلّ يوم على غير قصد منها .

وللأزهار حيل عجيبة شتى فى غمر النحل بلقاحها أو إلصاقه بأبدانها ، ويكاد عـدد هـذه الحيل يبلغ عدد أنواع الزهر التى ترتادها هذه الحشرات الدائبة . واللقاح فى الزهرة يوجد فى أنابيب صغيرة يطلق عليها اسم أوعيـة اللقاح ، تتفتح فيها ثقوب حين تنضج ، فتنتثر حبوب اللقـاح منها كما ينتثر مسـحوق الطلق (البودرة) من وعائه . ولبعض الأزهار نظام ميكانيكىّ عجيب ، فلا تكاد النحلة تطأ أعضاء الزهرة حتى يهوى عليها وعاء اللقاح من فوق كأنه المطرقة ، فيضرب النحلة ضرباً رفيقاً فتنتثر حبوبه على بدنها . وتخفى بعض الأزهار أريها فى أماكن لا تستطيع النحلة أن تبلغها إلا بأن تتسلّق أوعية اللقاح أولا فيعلق اللقاح ببطنها .

ومن أعجب ما فى الطبيعة من أمثلة تدل على التعاون الوثيق بين أحيائها ، مثل الفراشة الصغيرة التى تلقى بيضها فى مبيض نبات يدعى «يكّا» ولا تلقيه فى مكان آخر . فإذا تفلق البيض عن اليرقات أكلت اليرقات بعض الحبوب ، ثم تشق لنفسها طريقاً حتى تخرج . ولكن البذور لا تنعقد إلا إذا لقحت أولا ، فتتولى الفراشة عمل التلقيح عن قصد وروية . فأجزاء من فمها قد خلقت بحيث تستطيع أن تتخذ طائفة من حبوب اللقاح وتجعلها كرات صغيرة ، وبعد أن تضع بيضها فى مبيض النبات ، تأخذ حبوب اللقاح من أوعية اللقاح وتحشدها حشداً على الميسم — وهو الجزء الذى يتلقى اللقاح من مبيض الزهرة . ولولا الفراشة لعجزت الزهرة عن أن تعقد بذرة ، ولعجز النبات عن التوالد . ولولا البذور لماتت يرقات الفراشة . فعمل التلقيح الذى تتولاه الفراشة بدافع من فطرتها ، يبلغ من الدقة والإحكام مبلغاً عجيباً كأنها أستاذ عالم فى معمل تجارب.

وقد كان هذا الفراش يقوم بتلقيح نبات اليكا منذ زمن متغلغل فى القدم يعود إلى عصر الجمد الأخير ، ومع ذلك لم يستولد الإنسان نباتاً هجيناً إلا فى سنة ١٧١٧ ، وقد تم ذلك لتوماس فيرشايلد فى إنجلترا يوم وضع اللقاح من زهر القرنفل على زهرة أنثى من صنف آخر من القرنفل . ومنذ ذلك الحين صنع مولدو الأزهار والنبات بالتقريب ٤٠٠٠ هجين من زهر العرار ، وثمانية آلاف من السوسن المعمم . ومعظم هذا العمل قد تم منذ ١٩٠٠ لأن قوانين الوراثة التى جعلت التوليد علماً دقيقاً لم تكشف إلا سنة ١٨٦٦ ، ولم تذع إلا فى أوائل هذا القرن .

وقد كان مكتشفها جورج مندل الراهب النمسوى الذى قضى حياته يلقح زهر البسلة ، فى حديقة صومعته ، فثبت له أنك لا تجد فرقاً بين شيئين أعظم من الفرق بين حبتى بسلة فى قرن واحد . وقد كشف مندل جانباً كبيراً من أسرار الوراثة فأدرك أن السلالات تتوالى على الأجيال توالياً رياضياً منظماً ، وأنك تستطيع بالتوليد أن تخلدها أو تزيدها أو تبيدها أو تخلط بعضها ببعض. فإذا أخذت وردة تحتوى فى كيانها عامل الوراثة الخاص بكثرة الإزهار ، ولكن ليس لزهرها شذى عطر ، ولقحتها بلقاح وردة تحتوى فى كيانها عامل الوارثة الخاص بالشذى ، ولكن ليس فيها عامل وراثة خاص بكثرة الإزهار ، كان فى وسعك على الأرجح أن تظفر بوردة كثيرة الزهر عطرة الشذى .

هذا قليل من كثير يصنعه مولدو النبات

الذين يستولدون ضروباً شتى من الحبوب والأزهار ، وأداتهم القوية فى العمل هى حبوب اللقاح الواهية البنيان . وأروع ما يفتن لبك حين تزور محطة للتجارب الزراعية ، هو أن ترى ترفّق المولدين وسرعتهم وإحكامهم فيما يصنعون .

فالضروب التى يراد تلقيحها تقطع منها أولا أعضاؤها التى تحمل اللقاح قبل أن تتفتح الأكمام ، حتى لا تحدث مزاوجة بين نبات الضرب الواحد. ثم تضم أوراق الأكمام وتوضع فى كيس حتى يحول دون نزول النحل عليه بلقاح غير معروف أو غير مرغوب فيه . ثم ينتقل المولد إلى الأزهار الذكور من السلالة التى اختارها لعمل التوليد الذى بين يديه ، ويأخذ من الزهر اللقاح الناضج الذى لم يكد يمسّه الهواء ساعة يتفتح الكم ، فيضعه فى طبق صغير مرقوم باسم النبات الذى أخذ منه أو برقمه . وقد يجمع اللقاح من ضروب شتى فى وقت واحد ، ويضعها على أطباق شتى مرقومة ، ثم ينتقل بهذه الأطباق إلى حيث الأزهار الإناث محفوظة فى أكياسها . فيفتح كل كيس على حدة ، ويضع على ميسم الزهرة اللقاح الذى اختاره لها ، ثم يعيد الكيس ويشدّه وينتقل إلى زهرة أخرى . وكذلك يتم عمله ، وليس عليه إلا أن ينتظر ما يسفر عنه .

أما حبة اللقاح فانها لم تكد تبدأ عملها ، فتراها على ميسم الزهرة الأنثى قد أخذت تنبّت ، فترسل أنبوباً بالغ الدقة إلى تحت ، فينمو فى نسيج المبيض متجهاً إلى الخلايا التى فى أسفله . وقد تكون المسافة التى ينبغى له أن يقطعها قبل أن يصل إلى البيض أطول من قطر حبة اللقاح ألف مرة ، ولكن حبة اللقاح تستطيع على وجه عجيب مجهول أن تمد هذا الأنبوب الطويل من ذات نفسها ، لأن اللقاح ينجذب نحو البيض الذى ينتظرها بحافز كيميائى يطلقون عليه اسم هرمون . وقد قام الدليل على هذه الحقيقة حين وضعوا حبة لقاح على لوح رطب من زجاج مع قطعة صغيرة من مبيض أخذ من نفس النوع من النبات . فترى أنبوب اللقاح يمتدّ نحو قطعة المبيض مسترشداً بالهرمون الذى أذيب فى الماء على الزجاج . وهكذا ترى فى الزهرة أن المادة الحيوية فى حبة اللقاح قد بلغت غايتها وألقت عصا التسيار ، وبدأت حياة جديدة

وقد تكون النتيجة سلالة جديدة من القمح تعين على إطعام الجياع فى العالم ، أو قد تكون وردة هجينة تطلق شذاها العطر فى حديقتك ، أو قد تكون شجرة كريمة يستظل بها حفدتك . حقاً إن حبوب اللقاح هى غبار الطبيعة العجيب

[هذا المقال مختصر من التاريخ الوافى الذى وضعه ألن ميكي للحرب الجوية فى أوربة ، وسوف تنشره شركة « لتل وبراون » فى سنة ١٩٤٧ . وقد أتيحت للمؤلف فرص نادرة لجمع حقائقه ، فقد وصل إلى لندن يوم نشوب الحرب ، وظل يتتبع أعمال سلاح الطيران البريطانى وسلاح الطيران الأمريكى حتى ختامها ، وكان مع هيئة أركان حرب الجنرال إيزنهاور يوم غزو أوربة . وسمح له أن يطلع على الأوراق السرية لسلاح الطيران البريطانى ، وعلى ما سلم من أوراق سلاح الطيران الألمانى] .

أعظمُ خدعةٍ تمّت في الحرب الأخيرة

ألن ميكي

مختصرة من كتاب يوشك أن يظهر

ظلّ الألمان يباهون منذ أغار الحلفاء على دييب فى صيف ١٩٤٢ ، بما سيكون عليه مصير القوّات المتحالفة يوم تحاول أن تغزو أوربة . ولكنّ هذا الغزو تمّ فى ٦ يونيو ١٩٤٤ ، على ساحل نورمندى دون أن يعترضهُ معترض ، وبدأت الجيوش تنزل على الساحل قبل أن يشعربهم الألمان . ففى الساعة الحاسمة ، فوجىء الألمان متأثرين بخدعة كانت أعظم خدعة فى الحرب العالمية الثانية . وكان قوام الخدعة غزواً موهوماً خدع عمّال الرادار من الألمان ، فظنوا أن الحلفاء أخذوا يغزون منطقة باده كاليه التى تبعد مئتى ميل إلى الشمال من السواحل التى غزوها حقًّا .

هذه الخدعة الباهرة التى تمّت يوم غزو نورمندى ، كانت ذروة الحرب الناشبة فى أمواج الأثير — معركة الراديو السرّيه التى ظلت أربع سنوات بتمامها ناشبة تسير جنباً إلى جنب مع القتال الدائر بين سلاح الحلفاء الجوّى ، وسلاح الطيران الألمانى . وقد أسفرت تلك المعركة التى كتمت أخبارها عن ظفر حاسم للإنجليز والأمريكيين ، أنقذهم من خسارة فادحة تنزل بطائراتهم ، ومكن لهم أن يحتفظوا بالتفوق فى الجوّ الذى كسبوهُ بشقّ النفس ، ثم مهد لهم أن يكونوا كالسيل الجارف فى هجومهم على ألمانيا .

إن السرعة العظيمة فى القتال بين الطائرات فى الحرب العالمية الثانية اقتضت من الفريقين أن يعتمدوا اعتماداً لا غنى عنه على التلفون اللاسلكى والمخاطبات اللاسلكية ، إذ لم يكن منها بدٌّ لحشد أسراب القاذفات وتوجيهها ، ولتوجيه المطاردات إلى القاذفات

المغيرة أيضاً . وقد كان رادار عماد الألمان والإنجليز فيما اتخذوهُ من وسائل الدفاع ضد الطائرات، ورادار هو العين اللاسلكية الساحرة التى تتبين الطائرات المغيرة وتعين مواقعها . وإذن فقد كان هدف كل فريق أن يدمّر الوسائل التى يعتمد عليها الفريق الآخر فى المخاطبات اللاسلكية ، وفى تبين الطائرات بأساليب رادار .

وقد بدأ الإنجليز يتخذون الأساليب اللاسلكية المضادة ، فى خريف سنة ١٩٤٠ يوم بدأت قاذفات جورنج بشنّ غاراتها فى الليل على مدن إنجلترا . وكان طيارو القاذفات الألمانية يوجّهون إلى أهدافهم باتباع أشعة ضيقة من الراديو ، ترسل من قواعد أقيمت على سواحل فرنسا وبلجيكا . وكانت هذه الخطوط تقطعها خطوط أخرى مرسلة فى الفضاء من قواعد فى هولندة والنرويج، وتكون الأماكن التى تتقاطع فيها إنذاراً للطيارين بأنهم قد دنوا من أهدافهم.

فعزم البريطانيون أن يفسدوا هذه الإشارات . وأشعة الراديو تحاول أن تنطلق فى خطوط مستقيمة ، ولكن هناك أسباب طبيعية شتى تحدث انحرافاً فيها ، فأخذ الخبراء على عواتقهم أن يضخموا هذا الانحراف الطبيعي. ولما كان الالمان يطلقون أشعتهم لعدة ساعات قبل الغارة ، فقد أتيح للبريطانيين أن يتبينوها ويحاكوها ، فاستطاعوا أن يعيدوا إرسالها فى الفضاء وأن يحنوها قليلا قليلا حتى تبتعد عن المدينة التى اتخذت هدفاً للغارة . ولو حرفت الأشعة مقدار درجتين لكان ذلك كافياً لإقصاء الطائرة تسعة أميال عن خط سيرها فى مسافة تبلغ ٢٥٠ ميلا .

كانت جدوى إفساد إشارات الراديو قليلة حين كانت أهداف الطائرات هى مدينة لندن والثغور البريطانية التى يسهل تمييزها ، ولكن حين كانت الأهداف هى المدن الصغيرة فى داخل الجزيرة ، كانت إمالة خط السير بعض الشىء كافية لإقصاء القاذفات الألمانية عنها ، فترمى ما تحمله من القنابل فى الأرض الفضاء . وقد تمّ أعظم ظفر لإحالة خط السير اللاسلكى فى ذات ليلة، حين ألقت مئتان من القاذفات الألمانية ٤٠٠ طن من القنابل — فقتلت دجاجتين .

فلما أدرك الألمان ما حدث ، تركوا نظام خطوط السير بالراديو ، وأحلوا محله التعليمات اللاسلكية ترسل من قواعد فى ألمانيا نفسها . فاستعان البريطانيون يومئذ بحيلة جديدة فى حرب الراديو . فكانوا إذا أبرق الملاح الألمانى إلى قاعدته ليطلب ما يعينهُ على تعيين موقع قاذفته ، يجيبه عامل إنجليزى يذيع على نفس الموجة

التى يستعملها الألمان لطائراتهم ، ويعطيه ما يطلبه غلطاً . وكان هذا يضلل الطيارين الألمان ، فيضلون عن اتجاههم الصحيح ويظلون يدورون فى الفضاء حتى يطلع الصباح ، ثم ينزلون على الأرض فى جنوب إنجلترا وهم يظنون أنهم فى فرنسا .

وقد أحرز الألمان أول ظفر فى إدخال الفساد على عمل رادار . ففى شهر فبراير سنة ١٩٤٢ تسللت البوارج الألمانية شارنهورست وجنايزناو والبرنس أويجن من ثغر برست واتجهت إلى بحر المانش ، وقد لاحظ خبراء رادار من البريطانيين فى محطات رادار على الساحل اضطراباً فى أجهزتهم كان يسيراً فى أول الأمر ، ثم ازداد قوة ازدياداً لا يكاد يحس . فلما بلغت البوارج الألمانية مضيق دوفر ، كان الاضطراب لا يزال مستمراً ، فمنع الإنجليز من رؤية سفنهم وطائراتهم ومن توجيهها . وكذلك مرت البوارج الألمانية وهى آمنة .

وفى نحو ذلك الوقت تبين البريطانيون أن أجهزة رادار الألمانية عرضة للاضطراب ، فقد روى رجال بعض القاذفات البريطانية العائدة من غارة على أرض أوربة ، أنهم حين أداروا أجهزتهم اللاسلكية التى تعرف بهم من يتلقى إشارتهم ، رأوا الأنوار الكشافة الألمانية التى يوجهها رادار قد ضعفت أو انحرفت عنهم . ففحصت أجهزة رادار الألمانية التى ظفر بها الفدائيون فى غاراتهم الجريئة ، فظهر أن أجهزة التعريف فى الطائرات البريطانية تدخل الاضطراب على هذه الأجهزة الألمانية مصادفة واتفاقاً ، فزودت أجهزة التعريف البريطانية بأدوات خاصة لإدخال الاضطراب حتى يصير ما تحدثه من لغط فى أجهزة الألمان أقوى وأتم . ثم أنشأ البريطانيون محطات لاسلكية قوية فى جنوب إنجلترا ، صار همها أن تحدث لغطاً فى أجهزة رادار الألمانية القريبة التى ترسل الإنذار الأول بدنو الطائرات البريطانية . وزاد الطين بلة أن سلاح الطيران البريطانى أخذ يحدث لغطاً فى الاتصال اللاسلكى بين الطائرات الألمانية فى الفضاء وقواعدها الراسية على الأرض .

وقد ظلت حرب الاثير دائرة الرحى لا تقطعها ساعة من هوادة أو سكون . ومنذ بدأ خبراء الإنجليز هجومهم الأول على وسائل الألمان اللاسلكية ، أقاموا ليلة بعد ليلة يستطلعون مناطق أمواج الراديو ، ما كبر منها وما صغر ، وما علا وما سفل ، وصار الألمان يتلمسون بكل حيلة فى يدهم أمواجاً لا تزال خالية من اللغط ، ولاحقهم البريطانيون جادين ، يطمسون لهم كل موجة يجدونها . وقد عمد الألمان فى أثناء

بحثهم عن الأمواج الجديدة ، إلى تعديل ما عندهم من أجهزة رادار ومعدات المخاطبات بالراديو ، أو ربمَّا عمدوا إلى إحلال أخرى محلها ، ولكنَّ الأجهزة الجديدة كانت لا تكاد تبدأ عملها حتى يقبل عليها البريطانيون بأجهزتهم الجديدة يحدثون فيها لغطاً واضطراباً .

ومن الأجهزة التى أتقنها البريطانيون بعد ما تغلبوا على عقبات فنية كأداء ، جهاز خفيف لإحداث اللغط يسهل حمله في طائرة ، فوضعوه في قاذفة خصصت لذلك . وهو جهاز بارع ، فأحد أقسامه جزء مستقل يفتش مناطق أمواج الراديو تفتيشاً آليًّا ، فإذا تبين إشارة ما على حديث دائر ، ظهرت « نقطة من الضوء » على لوحة ، وما على عامل الجهاز حينئذ إلا أن يستوثق من مصدر الإشارة ، فإذا فعل أرسل في الفضاء بجهازه المرسل خليطاً مختلطاً من الإشارات ، فيمحو الحديث الدائر .

وقد بلغ من نجاح هذا الجهاز أن عمد الألمان إلى محطة قوية للارسال فصاروا يستعملون أمواجها في إرسال التعليمات إلى مطارداتهم الليلية ، كلاماً منقولا على أمواج التلفون فالراديو . فما كان من سلاح الطيران البريطاني يومئـذ إلا أن أنشأ محطة قوية للإرسال أيضاً تذيع على نفس الموجة التى تعتمد عليها المحطة الألمانية ، وصار مذيعوها يأخذون الطريق على المذيعين الألمان ، بما يذيعونهُ من تعليمات مناقضة ومعلومات خطأ ، فيتلقاها طيَّار والمطاردات الليلية فيختلط عليهم الأمر . وكان المذيعون البريطانيون يعمدون إلى استعمال اللغة الألمانية كما يستعملها أهلها ، بل درَّبوا أنفسهم أيضاً على محاكاة نبرة الألمان الذين يصدرون الأوامر محاكاة تامَّة .

وقد استعمل هـذا الأسلوب أول ما استعمل في ليل ٢٢ — ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٤٣ يوم شنت القاذفات البريطانية هجوماً قويًّا على مدينة كاسل . وقد أدرك الألمان خلال الغارة أن خللاً قد وقع ، وسمع رُصَّاد الراديو البريطانيون أحد الألمان يقول لطياري المطاردات الليلية التى تأتمر بأمره : « حذار من صوت آخر » وحذَّرهم « من أن يضللهم العدوّ » . وبعد أن انفجر الألماني بالسباب تدخل صوت المذيع الإنجليزى مقلداً صوت أحد الطيارين وقال : « هذا الإنجليزى يلعن ويسبُّ » فقال الألماني : « ليس الذى يسبُّ هو الإنجليزى بل أنا » . ولم تكد الغارة تشرف على ختامها حتى بلغ من اختلاط الأمر على الطيارين الألمان أن صار يسبُّ بعضهم بعضاً .

وتوقع خبراء حرب الأثير من البريطانيين

أن يحاول الألمان فضح « الأصوات » الإنجليزية التى تفسد عليهم عملهم ، بإحلال امرأة على الميكروفون محلّ الرجل . فعمد البريطانيون إلى اختيار ثلاث مجنَّدات يجدنَ الألمانية ودرَّبوهن أحسن تدريب ، وأمروهن بالتأهب والانتظار . وبعد أسبوع عمد الألمان إلى امرأة ترسل الأوامر للطيَّارين ، فهبَّت إحدى المجنَّدات إلى محاكاة صوتها ونبرتها ، فظل الأمر مختلطاً على الطيَّارين الألمان كما كان .

ومن أنفع الوسائل التى توسلوا بها فى حرب الأثير لتضليل عمال الرادار من الألمان ، قدد صغيرة من رقائق الألومنيوم . وقد أطلقوا على هذه الوسيلة اسم « نافذة » . فقد وجد علماء سلاح الطيران البريطانى أنه إذا ألقى عدد من هذه القدد فى الفضاء ، وكان بعضها قريباً من بعض بحيث لا تتلامس ، فإنها تحدث على لوحة جهاز رادار شبحاً شبيهاً بشبح طائرة . فإذا ألقى عدد وافر منها ، على فترات ، أظلمت لوحات أجهزة رادار ، أو تعددت الأشباح الزائفة ، فيعجز عمال رادار عن أن يتبينوا أشباح الطائرات الحقيقية .

وقد استعملت وسيلة « النافذة » أول ما استعملت فى الغارة الأولى من الغارات الأربع القوية التى محت مدينة همبرج أو كادت ، فى الأسبوع الأخير من يوليو سنة ١٩٤٣ ، وكان عدد القاذفات المغيرة فى تلك الليلة ٧٩١ قاذفة ، فألقت كلٌّ منها حزمة مؤلفة من ٢٠٠٠ قدة ألومنيوم فى كل دقيقة ، فوق خط مرسوم يفضى إلى الهدف . فإذا فرضنا أن كل حزمة منها أحدثت « أثراً » فى أجهزة رادار ظلّ ١٥ دقيقة ، فعدد هذه « الآثار » يمثل على ألواح رادار ١٢٫٥٠٠ طائرة .

فكان أثر ذلك فى الدفاع الألمانى القائم على رادار أثراً مدمِّراً . وقد روى رجال القاذفات المغيرة أن الأنوار الكشافة التى توجهها أجهزة رادار كانت تتذبذب فى عرض الفضاء ، أما نيران المدافع المضادة للطائرات التى تسدد بأجهزة رادار فكانت مضطربة غير محكمة ، وكانت تسدد على الأكثر إلى الأماكن التى تجىء منها الإشارات التى تحدثها رقائق الألومنيوم . وأما المطاردات الألمانية الليلية التى كانت تعتمد على أجهزة رادار القائمة على الأرض لتوجيهها ، وعلى أجهزة رادار المحمولة فى الطائرات للانقضاض الأخير على القاذفات ، فكانت عاجزة لا حول لها . وقد خسر سلاح الطيران البريطانى فى تلك الليلة ١٢ قاذفة — ١٫٥ فى المئة من القاذفات المغيرة — وترجع خسارتها إلى لقاء جاء اتفاقاً بإحدى

المطاردات الليلية ، أو إلى مقذوفات مدافع مضادة أطلقت على غير هدى فأصابتها .

فلما أبطلت وسيلة « النافذة » نفع التوجيه بواسطة رادار ، لجأت المطاردات الليلية الألمانية إلى أن تستقلّ كلُّ مطاردة منها بعملها ، مسترشدة ببعض الشيء بمراقبين على سطح الأرض يعتمدون على الرؤية والسمع فى تعيين مسارات القاذفات المغيرة ، ويستعينون بالمشاعل والأضواء الكشافة وأجهزة تبين الصوت . وهذه طريقة ضعيفة عقيمة إذا قيست بطريقة رادار قبل أن تدمرها وسيلة «النافذة» ، وقد مهّد ضعفها لقائد قيادة القاذفات البريطانية أن يضرب برلين ، وهى أهم هدف فى حرب الجوّ ، فيصيبها فى مقاتلها .

فلما وافى ربيع ١٩٤٤ كان هجوم البريطانيين والأمريكيين الذى غرضهُ إحداث اضطراب فى الأثير على الألمان ، قد حير الألمان تحييراً عظيما ، فصاروا يرسلون رسائلهم على عشرين موجة مختلفة ، عسى أن تكون واحدة منها قد أفلتت من الاضطراب الذى يحدثه خصومهم .

وقد تجلت جدوى هذا الهجوم البريطانى الأمريكىّ فى الساعات الفاصلة التى سبقت ساعة النزول فى نورمندى .

كانت غارات الحلفاء التى سبقت الغزو قد أنزلت بنظام رادار الألمانى على ساحل أوربة الغربى وَهناً خطيراً ، ولكن الألمان كان لهم بين شربورج ونهر السكلت أكثر من مئة محطة رادار ، وكان معظمها لا يزال قائماً يعمل فى الأيام التى سبقت يوم الغزو . فلم يكن بدّ لقواد الحلفاءِ من أن يضللوا عمال هذه المحطات ويذرُّوا الرماد فى عيونهم ، حتى يكفلوا النجاح للجيوش التى تهبط ساحل نورمندى . وإذن فلا بدّ من أن يطمس بصر محطات رادار الألمانية القائمة فى منطقة الغزو نفسها ، لأن النجاح الأول رهين بالمفاجأة . ثم لا بدّ لمحطات رادار الألمانية فى بعض المناطق الأخرى ، من أن تتوهم أنها ترى أشياءَ تحملها على الظن أن عمارة الغزو مقبلة عليها .

ولتحقيق هذا الغرض نفذ الخبراء خطة كانوا قد أحكموا وضعها وتجربتها ، وهى مؤلفة من خمسة أقسام . وقد نفذت هذه الأقسام الخمسة جميعاً فى وقت معاً ، فى ليل ٥ — ٦ يونيو ، حين عبرت عمارة الغزو بحر المانش متجهة إلى شبه جزيرة شربورج.

كان الألمان موقنين أن الحلفاء سيحاولون النزول فوق مدينة الهافر ، وفى منطقة باده كاليه على الأرجح ، فنجاح الخدعة التى دبرها الحلفاء كان وثيق الصلة بهذا اليقين . وكذلك أقلعت ١٨ سفينة حربية بريطانية

صغيرة متجهة إلى كاب دانتيفير فوق الهافر بسرعة ثمانى عقد بحرية فى الساعة ، لكى توهم الألمان أن النيـة معقودة على نزول الجيوش فى تلك المنطقة من ساحل فرنسا . وكانت كلٌّ سفينة منها تجرٌّ بضعة بلونات منخفضة ، فتحدث فى لوحات رادار الألمانية أثراً قويًّا يدلٌّ على سفن دانية .

بيد أن الألمان كانوا خليقين أن يدركوا بعد قليل ضعف هـذه القوة البحرية فلا تنطلى عليهم حيلتها ، ولذلك طارت فوق السفن وعلى ارتفاع يسير فوقها اثنتا عشرة طائرة ، وجعلت تلقى حزماً من رقائق الألومنيوم ، حزمة كلّ دقيقة . لكى توهم الألمان أن قافلة عظيمة متجهة إلى فرنسا . وظلّ عمال اللغط فى كلّ طائرة يواصلون عملهم حتى يمنعوا الألمان من تبين الحقيقة وفضح الحيلة . وقد اقتضى تحقيق كلّ هذا أن تعين مواعيد كل جزء من الخطة تعييناً دقيقاً ، وأن ينفـذ كل جزء فى موعده تماماً ، ومع ذلك فقد ظلت الطائرات ثلاث ساعات ونصف ساعة تطير فوق بقعة طولها ١٢ ميلا وعرضها ٨ أميال ، فتمّ كل شىء كما ينبغى أن يتمّ .

كان هذا هو القسم الأول من الخطة . أما القسم الثانى فقد اشتمل على تنفيذ خدعة كالخدعة الأولى تجاه ثغر بولون ، أما الثالث فقد تم فى المنطقة بين مدينتى الهافر وبولون حيث ظلت ٢٩ قاذفة من طراز لانكستر أربع ساعات تروح وتجىء لكى تستدرج إليها المطاردات الليلية الألمانية فتقصيها عن منطقة الغزو الحقيقية . وقد عُنيت هذه القاذفات أيضاً بإحداث اللغط فى رادار الألمان ، مستعينة بأجهزة خاصـة بذلك محمـولة فى الطائرات ، بلغ عددها ٨٣ جهازاً على الأقل . وكان الغرض من هـذه القاذفات أن يحسبها الألمان حرساً جويًّا للسفن الحربية التى اشتركت فى تنفيذ القسم الأول والقسم الثانى من الخطة .

وفى الوقت نفسه شرع الحلفاء فى تنفيذ القسم الرابع ، وكان غرضهُ توزيع اهتمام الألمان ساعـة تنزل الجيـوش المحمولة بالطائرات فى نورمندى . فقبل أن يبدأ نزول هـذه الجيوش انطلق سربٌ من الطائرات البريطانية فوق الهافر وألقى رجاله عشرات من دُمى مصنوعة من خشب تمثل جنود المظلات بمظلاتهم ، فنزلت تتهادى فى المنطقة التى تحيط بمدينـة فيكامب ، وذهبت طائرات أخرى تلقى فى نفس الوقت دمى فى منطقة مدينة شربورج على ميمنة البقعة التى تم فيها حقاً نزول الجنود الذين حملتهم الطائرات . وقد ألقى مع الدمى قدر كافٍ من رقائق الألومنيوم لكى يتوهم

المكدودون من رجال رادار الألمانى أن الهجوم بالمظلات أعظم مما يلوح عشرين ضعفاً .

أما عمارة الغزو الحليفـة فقد أقبلت مستخفية تحت ستار كثيف أسدلته الطائرات التى تولت إحداث الاضطراب فى أجهزة رادار الألمانية على نطاق لا مثيل له من قبل . فقد حلقت أربع وعشرون قاذفة بريطانية وأمريكية مجهزة بأدوات اللغط على ارتفاع ١٨ ألف قدم ، وجعلت تروح وتجىء فوق خط يبعد عن ساحل الغزو خمسين ميلا ، وظلت ساعات متوالية ترسل الإشارات التى تحـدث الاضطراب فى محطات رادار الألمانية فى شبه جزيرة شربورج . ولم يقتصر أثر عملها على إخفاء أسراب القاذفات الحليفة التى انطلقت إلى حصون الساحل تصكها آخر صكة قبل نزول الجيوش ، بل أخفى أيضاً الطائرات والسابحات التى كانت تحمل الجنود ، ومنعت الألمان من تبين عمارة الغزو نفسها . فلما دنت السفن من الساحل ، اشتركت أجهزتها فى إطلاق إشارات اللغط والاضطراب .

وقد نجحت هـذه الخدعة أتم نجاح ، فقد ظن الألمان أن السفن المقبلة نحو بولون هى تهديد حقيقى بالغزو ، فأطلقوا كل ما بين أيديهم من مدافع وأنوار كشافة ، وهرعت زوارق الطربيد لكى تعترض سبيل القافلة العظيمة — الموهومة . ودعا الألمان جميع المطاردات الألمانية الليلية المتاحـة ، لكى تقاتل قاذفات لانكستر بين الهاقر وبولون ، لظنهم أن هـذه القاذفات لا غرض لها سوى حماية عمارة الغزو . وكذلك جردت من المطاردات الليلية منطقة نورمندى التى هبطت فيها الطائرات والسابحات المحملة بالجند ، وهى طائرات نقل لا قدرة لها على الدفاع . وأما هبوط دمى جنود المظلات فقـد دفع الألمان إلى العمل الحثيث ، وساعة انتشرت جنودهم لمطاردة هؤلاء ، نزلت جنود الحلفاء المحمولة فى الطائرات ، على جناحى ساحل الغزو وعززتهما . وقد أفضت إشارات اللغط المنطلقة من الطائرات والسفن إلى تضليل نظام رادار الألمان أتم تضليل ، حتى لقد سمع رُصَّاد أمواج الأثير من الحلفاء ، جماعة من عمال رادار الألمانى يؤكدون أن طائرات لانكستر هى فى الواقع طليعة هجوم جوّى عظيم أنفذته قيادة الحلفاء إلى باريس .

وقد حقق غرض الخطة بأقسامها الخمسة أبرع تحقيق ، ولم يعرف الألمان أين كان الغزو ومتى تمَّ إلا بعد الساعة ٣٠ : ٥ صباحاً ، حين شرعت بوارج الحلفاء تقذف عليهم حممها قذفاً متداركاً .

مسيو شرلوك هولمز

فلتشر برات

مختصرة من "ذى أميريكان ميركيورى"

كان قلم الباحث الفرنسى هو أعظم أقلام الباحث طُرًّا قدرة فى أعماله ، وحسبك عجباً أن تعلم أن أعماله الرائعة التى يؤديها تعتمد أول ماتعتمد على مافى أفراده من ذكاء كذكاء شرلوك هولمز فى حسن الاستنباط ودقة الملاحظة .

فالشرطىّ المكلف بالكشف عن إحدى الجرائم لايسأل إلا عن نتيجة كشفه ، وإذا بدأ أبحاثه فقلم الباحث كله تحت تصرفه ، فربما طلب تحليل زوجين من الجوارب تحليلاً كيميائياً ، وربما طلب كتيبة من الجنود ، فإذا فعل أجيب طلبه بلا معارضة أوسؤال . ولو سأله أحد رؤسائه كيف تسير القضية كان خليقاً بأن يجيبه : « صه ، هذا سرّ لقد وقعت على دليل عظيم الخطر » . وأعظم ماينظر إليه فى تقدير المكافأة التى يستحقها هو براعتــه فى الأساليب التى أفضت إلى القبض على المجرم ، لا القبض نفسه .

فهذا ألفونس برتيّون المخبر الفرنسى الذائع الصيت ، كان من أول مانوّه بذكره عند رؤسائه ، ماجرى بينــه وبين لص مسجون لتهمة لم يقم عليها دليل قاطع . عمد برتيــون إلى الحادثة فأعاد تمثيلها كيف وقعت ، مستعيناً بممثل قام له بدور اللص ، فلما عرف كيف وقعت انطلق إلى السجن فدخل على اللص فى محبسه وكان عندئذ نائماً .

فلما استيقظ اللص بادره سائلا : « ماالذى جاء بك ؟ وماذا تفعل ؟ »

فقال برتيون ساكن النفس : « أقيد اعترافك . فقد كنت تتكلم وأنت نائم ، فرويت لى قصة هذا السطو كاملة » . ثم أخذ يتلو عليه سياق الجريمة كما تصورها هو ، فبلغ من دقة هــذا السياق أن بادر اللصّ المشدوه فوقّع له على اعــتراف كامل بما كان منه .

وكان فى فرنسا منذ قرن مضى مخبر مشهور يقال له فيدوك ، فبلغه أن أحد الأشرار ويدعى جيفيف ، آلى أن يقتله إذا وقعت عينه عليه ، فتنكر فى هيئة رجل من الأشرار وترفق حتى نال صداقة جيفيف ، فلم يلبث هذا أن اقترح على صديقه الجديد أن يعينه فى الفتك بفيدوك . فقبل فيدوك وظل أربع ليال مع صديقه المجرم مترصداً عند بيته هو ليشاركه فى قتل نفسه ! وفى الليلة

الخامسة بلغت المهزلة غايتها ، وذلك أن ڤيدوك شارك اللص فى السطو على منزله هو نفسه ، ثم ضربه ضربة صرعته ، وحمله إلى السجن .

وأساليب المجرمين الفرنسيين فى أعمالهم تتطلب أن يكون رجال المباحث من أذكى الناس وأدهاهم . فانظر مثلا إلى ما كان من أمر القاتل الذى اغتال البارون زيدلر بأن ضربه بهراوة ثبتت فيها حديدتين من أحذية الخيل ، ثم وضع الجثة فى إسطبل للبارون كان له فيه فرس "شموس" وكان الذى تولى القبض على القاتل هو برتيون ، فإنه لاحظ أن أثر الحديدة فى جمجمة زيدلر يدل على أنه من غير الممكن أن يكون الجواد هو الذى رفسه ، إلا إذا كان البارون عندئذ واقفاً على رأسه ! أو انظر إلى قضية أندريه رانسى اللص الممثل المضحك ، الذى كان له قردان دربهما على سرقة الفنادق التى ينزل بها — فقد استطاع المخبر الفرنسى بايل أن يثبت عليه الجريمة بآثار أصابع القردين .

فهذه الحاجة إلى المهارة هى التى جعلت رجال المباحث الفرنسيين يبلغون الغاية فى استخدام الأسلوب العلمى فى الكشف عن الجرائم . فقد اكتشف برتيون منذ زمن بعيد أن أذن الإنسان لا يمكن أن تتنكر أو تخفى معالمها ، وأنك لن تجد فى البشر أذنين متشابهتين تمام التشابه ، وذلك قبل أن تصير آثار الأصابع وسيلة معتمدة فى تحقيق الشخصية . ولقد دُرِّب المخبرون الفرنسيون على تمييز آذان المجرمين الذى يتعقبونهم ، فمتى ظفروا بصورة واضحة للمجرم ، فقلما يفلت منهم مجرم يقتفون آثاره .

اختفى كاتب كان يعمل فى أحد مصارف باريس ، وكان طويلاً بديناً جاحظ العينين كثّ الشعر أسوده ، فبقى فى مخبئه يتجوّع حتى يصير نحيل البدن ، وحلق أكثر شعره وصبغ سائره ، واستعمل مادة مهيجة فى عينيه حتى صارت ضيقة دامعة ، واصطنع لنفسه لحية طويلة قد وخطها الشيب ، وجعل يحقن أنفه بالبرافين حتى انتفخ ، وحمل عصاً يتوكأ عليها وهو يمشى مقوّس الظهر . فما كاد يخرج من مخبئه لأول مرة حتى قبض عليه مخبر لم ينظر إلا إلى الشىء الذى لا يمكن تنكيره — وهو الأذن .

وقد أثبت الدكتور لوكار ، أحد أطباء مدينة ليون ، أن هناك عدة خصائص فى الجسد يستطيع المرء أن يثق بدلالتها على الشخصية كثقته بدلالة آثار الأصابع . فالأشاجع ، وهى عروق ظاهر اليد ، لاينفع فيها تنكير ولا تغيير ، ولا تتشابه فى رجلين من الناس . وكذلك أسرار راحة الكف ، وهى الخطوط التى فيها ، لاتتغير ولا تتشابه .

وقد قبض على قاتل فى مرسيليا لأنه كبا وهو يعدو على الشاطىء فترك أثر راحة كفه على الرمل . ومما لايتغير ولا يتشابه أيضاً أثر القدم العارية ، وقد كانت سبباً فى إدانة برانزينى الذى ذبح ثلاث نساء بعد أن خلع كل ملابسه حتى لا يلوثها الدم الأحمر ، إلا أنه لم يأخذ حذره فترك أثر قدم ملوثة بالدم على أرض الغرفة .

وقد درس الدكتور لوكار صورة المسام المستقرّة فى خطوط آثار الأصابع ، وذلك بالتصوير المجهرىّ ، فانتهى إلى أنها كآثار الأصابع نفسها فى الدلالة على الشخصية ، وأن أقلّ قدر منها كاف فى الدلالة التى لاتخطىء . فمنْ ذلك أن لصًّا حَمَل شمعة يستضىء بها فى ساعة السرقة ، ولم يترك وراءه أثراً من آثار أصابعه إلا قطرة صغيرة من الشمع الذائب لا تزيد عن قطرة من الدّمع سالت على أحد أصابعه ، فنفضها عن إصبعه ، فأخذها لوكار ، وأظهر أثر المسام بالتصوير ، وقبض على الرجل .

ويستخدم قلم المباحث الفرنسىّ أشياء كثيرة مما تنفعه فى تحقيق الشخصية . فلكل مجرم معروف ملف فيه صورة من آثار أصابعه ، وقياس دقيق لجمجمته وذراعيه وأصابعه وأنفه ، ووصف شامل لأذنيه ، ومقدار عظيم من أخباره وعاداته .

والمحكمون الفرنسيون أميل المحكمين فى الدنيا إلى قبول الشهادة المبنية على البحث العلمى .

والمخبرون الفرنسيون مدربون على استغلال كل صغيرة لإقامة البينة ، فإذا كلف أحدهم بتحقيق حادثة سطو ، فأول مايفعله أن يطبع سبيكة من الشمع على أثر الآلات التى استعملت فى فشّ الأقفال ، فللآلات التى تستعمل فى السرقة خصائص مميزة تستبين تحت المجهر : وذلك بأن يصنع سبيكة من الآثار التى تتركها الآلة ثم تمرّر على لوح من الزجاج مدهون بحبر من حبر الطباعة ، فالخطوط التى تتركها السبيكة فى مرورها تشبه كل الشبه تلك الخطوط التى تتركها الآلة نفسها على حبر من النوع نفسه . وقد أميط اللثام عن جريمة سرقة جواهر فى باريس ، لأن اللصوص استعملوا فشّاشة فى فتح الشباك الحديدى الذى يغطى نافذة الدكان ، فتركت أثرها فى الشباك الحديدى . ثم عثروا على هذه الأداة فى حوزة بعض المشبوهين .

ورجال المباحث الفرنسيون جميعاً من رجال الجيش ، فيلحقون بالعمل ولم تسبق لهم خبرة بأعمال المباحث ، بيد أنهم يكونون عادة من ذوى البسطة فى العلم والمعرفة . وأول ما يبدأ به فى تدريبهم أن يقرأوا

مؤلفات جابوريو البوليسية وقصص شرلوك هولمز . وقد صارت الكلمات المأثورة التى جرت على لسان شرلوك هولمز أمثالاً سائرة بين رجال المباحث الفرنسيين كقوله : « لقد رأيت بعينك ولكنك لم تلاحظ » ، « ما من صغيرة إلا ولها دلالة » .

وقد اتخذ رجال المباحث أساليب هولمز قدوة يقتدون بها . وقد زعم شرلوك هولمز أنه وضع رسالة فى معرفة نوع الطباق من بقايا رماده ! ولا غرو ، فإن رجال المباحث الفرنسية قد جربوا التجارب فى هذا الأمر وفى سواه من الأبحاث الغامضة — كأبحاثهم فى أحمر الشفاه على اختلاف أنواعه ، وما تتركه الشفاه الملونة به من آثار ، (وقد أماطوا اللثام عن سرّ جريمة قتل حدثت فى سوريا ، إذ لاحظ أحد رجال المباحث أن إحدى الغانيات كانت توقع على رسائل طلب النقود بشفتيها المدهونتين بنوع خاص من أحمر الشفاه) . وبحثوا أيضاً ما تتركه الأنواع المختلفة من الثياب على السطوح الناعمة . وبحثوا أيضاً فى أنواع الطفيليات التى تعلق بالأجسام وكيف تدل على الشخصية ، (وقد استطاع لوكار أن يثبت الجريمة على أحد القتلة ، بأن أثبت أنه هو الوحيد الذى يترك فى مكان الجريمة نوعاً خاصاً من أنواع الدودة الوحيدة) . وأكبر من ذلك أنهم بحثوا خصائص نفوس المجرمين الآتين من شرق أوربة .

نعم ، إن أساليب رجال المباحث الفرنسية لم تبلغ غاية الكمال ، فإن بعض الجرائم التى تخلو من دليل مادىّ كالاختلاس وتزييف الأوراق المالية ، لاتكاد تنتهى إلى حل أو غاية — بيد أنهم إذا عثروا على دليل مادىّ ، مهما بلغ من الغموض ومهما بدت قلة جدواه فى الدلالة ، فهم عندئذ يأتون بالمعجز الذى لايلحقهم فى الإتيان به أحد .



كان جون وسلى ، أحد مؤسسى المذاهب الدينية ، يذكر أن سلوكه فى صباه كان يثير ثائرة أبيه ، وأما أمه فكانت أشد تساهلا وأعظم صبراً . فانفجر زوجها فى أحد الأيام فقال : « كيف تستطيعين أن تصبرى على تكرار النصح لهذا الأبله عشرين مرة ؟ »

فقالت : « لأننى لو اكتفيت بتكراره تسع عشرة مرة وحسب ، لذهب نعبى عبثاً » .

لا تستسلم أيها الشيخ الى الظن بأن قدرتك العقلية قد وهت مع السن .

إن عقلك لا يشيخ

البرت إدوارد ويجام

مؤلف "أمارات الرجل المثقف" و "ثمرة شجرة الأسرة"

هذا كشف جديد يعينك على أن تقبض على ناصية الحياة بيدٍ أقوى ، وأن تزداد ثقة بنفسك على مرّ السنين ، وهو كشف تمّ للدكتور إرفنج لورج الأستاذ في كلية المعلمين بجامعة كولومبيا ، ومؤداه : إذا استثنينا الحوادث والأمراض فإن قدرتك العقلية لا تضعف بعلوّ سنّك .

ومعنى هذا أن الأعمال العقلية الشاقة التي كنت تحسنها وأنت بين العشرين والخامسة والعشرين ، تستطيع أن تحسنها سواءً وأنت بين الستين والسبعين ، أو بعد السبعين . وهذه أقوال تعدّ انقلاباً في شئون نموّ العقل والتربية . فقد كان الرأي الغالب عند علماء النفس بعد تجارب عقلية أجروها على ملايين من البشر ، أن المرء من الناس يبلغ أوج قدرته العقلية بين السادسة عشرة والحادية والعشرين من عمره ، وأن درجته في الامتحان تظل كما هي بين الحادية والعشرين والسابعة والعشرين ، ثم تبدأ في الهبوط بعد ذلك ، فتهبط واحداً في المئة على المعدّل كلّ سنة . وإذن فقد أسفرت هذه التجارب عن القول بأن العقل من حيث هو أداة التفكير يبلغ أقصى نموّه في العقد الثالث من العمر ثم يأخذ في الانحطاط .

وعلماء النفس الذين وضعوا التجارب التي قام عليها هذا الرأي ، فرضوا يوم وضعوها أن المرء الذي يستطيع أن يجيب إجابة صحيحة عن معظم أسئلتها في زمن معين ، هو أعظم المتحنين قدرة عقلية — أي أنهم فرضوا أن السرعة في الإجابة هي مقياس خطير الشأن في مسألة الذكاء . فلذلك عيّنوا لكل امتحان زمناً محدوداً ينبغي أن يتمّ فيه .

ولكن العالم النفسيّ الدكتور روبرت يركز ، لاحظ أثناء امتحان ألوف من الجنود ، أنه إذا أتاح لهم ضعف الزمن المعين للإجابة ، زاد عدد الذين يستطيعون أن يتمموا الامتحان ، بمقدار ١٦ في المئة على الذين يستطيعون إتمامه في الزمن الذي

حدِّد لهُ أولاً . ولاحظ أيضاً فريق من علماء النفس أن زيادة فسحة الوقت المعينة للإجابة تمكن الكبار من الإجابة عن عدد أكثر من الأسئلة . فإذا زيدت فسحة الوقت للصغار الذين يتقدمون للامتحان ، ظلت درجاتهم على حالها أو زادت شيئاً يسيراً . أما الأحداث إذا عجزوا عن الإجابة على الأسئلة فوراً ، فيغلب عليهم أن يعجزوا عن الإجابة عليها عجزاً مطلقاً .

فلما تبيّن أن الكبار ترتفع درجات إجابتهم إذا كانت فسحة الوقت المتاحة لهم أطول ، سأل الدكتور لورج نفســه : ألم يخلط علماء النفس بين سرعة التعلم والقدرة على التعلم ؟ قال : يبدو أن جميع التجارب الأولى تبيّن أن الكبار لا تعوزهم القدرة العقلية ، وإنما الذى يعوزهم هو السرعة العقلية ، وعلى الرغم من أن الكبار لا يسرعون فيما يعملون فإنهم يصلون إلى الغاية كسواهم .

فلكي يتحقق الدكتور لورج من صدق هـذا الرأى أجرى أحد عشر ضرباً من الامتحان على مئة وخمسين من العمال تتفاوت أعمارهم بين العشرين والسبعين . وقد ضرب لجميع الامتحانات ، ما عدا واحـداً منها ، زمناً معيَّناً ينبغي أن تتم فيه . أما الامتحان الذى لم يضرب لإنجازه زمناً معيَّناً ، فهو امتحان « ثورندايك » للقدرة العقليـة الخالصة — ففى هذا الامتحان يتاح لكل من يتقدم له كل الوقت الذى يريده . فظهر أن معدَّل نجاح الكبار فى جميع الامتحانات التى ضرب لها زمن محدود كان معدلا قليــلا ، ولكنه لم يكن كذلك فى امتحان القدرة العقلية الخالصة . فواضح أن تعيين موعد لإنجاز الامتحان كان يؤود الكبار .

ومن ثمَّ عمد الدكتور لورج إلى حساب مبلغ التأثر بعامل السرعة فى كل عمر من الأعمــار ، فإذا عرفه أضافه إلى الدرجات التى يحصِّلها الكبار فى الامتحان الذى ضرب له زمن محدود ، فيصل إلى درجة قدرتهم العقلية الصحيحة . ولنفرض أن درجة الذين فى الخامسة والثلاثين كانت أقل ٥ فى المئة من درجة الذين فى الخامسة والعشرين ، حين تتقدم الجماعتان لامتحان واحــد ضرب لإنجازه زمن معين ، ولنفرض أن معدَّل الجماعتين واحد فى امتحان القدرة العقلية الخالصة ، فإذن ينبغى أن نضيف إلى درجة الجمــاعة الأولى ٥ فى المئة هى التى خسرتها لأنها لم تستطع أن تنجز الامتحان بسرعة كافية ، فإذا أضيفت عرفت درجة قدرتهم العقلية الصحيحة . أو لنفرض أن جماعــة من الشيوخ تساوت مع جماعة من الشبان فى الخامسة والعشرين ، فى امتحان القدرة العقلية الخالصة ، ولكن الشيوخ تخلفوا

عن الشبان بنحو ١٥ فى المئة ، فى امتحان ضرب له موعد معين ، فتخلفهم لا يدل على ضعف عقلهم بل على عجزهم عن العمل الفكرى السريع . فالدرجة التى يحصلونها فى هذا الامتحان لا تدلّ على قدرتهم العقلية بل على بطئهم وحسب ، فيضاف إليها ١٥ فى المئة لمعرفة قدرتهم العقلية الصحيحة.

قال الدكتور لورج : « وكذلك رجعت إلى الامتحانات التى أجراها سائر الباحثين ، ومنها ثلاث طوائف من الامتحان أجراها ثلاثة من العلماء على جماعات من الناس ، صغارهم وكبارهم على السواء ، ثم أضفت إلى الدرجات التى حصلوها ، النسبة التى ينبغى أن تضاف إلى فئات الكبار تعويضاً لهم عن بطئهم . فلما حسبت درجات الكبار بعد هذه الإضافة وجدت أن عقولهم لا تضعف قدرتها مع السن على الإطلاق ، بل وجدت ما يدلّ على ازدياد قدرتهم العقلية مع السن ازدياداً يسيراً . أى أنه لما حذفت من الحساب عامل السرعة فى درجات الذين فى الخمسين والستين ، وجدت درجاتهم أعلى من درجات الذين فى الخامسة والعشرين أو نحوها . وربما كان مرجع هذه الزيادة ، بعضها أو أكثرها ، إلى وفاة الذين كانوا أبطأ أو أضعف تفكيراً » .

ونحن نعلم علم اليقين أن استجابة الكبار للحوافز أبطأ من استجابة الشباب ، فإما أن تكون حاسة البصر وحاسة السمع فيهم أضعف ، وإما أن تكون استجابتهم لحوافزها أبطأ . بيد أن الدكتور لورج يقول : « ولكن القول بأن مجرّد البطء فى القراءة أو تنسيق عمل العقل ، أو ضعف البصر أو السمع ، يؤثر فى قدرة عقل المرء هو قول لا مسوّغ له . وإذا فرّقنا بين أعلى مستوى من القدرة العقلية فى وسع المرء أن يبلغه ، ومجرّد السرعة فى بلوغه ، وجدنا أن لا دليل على انحطاط القدرة مع السن . وإذا وصفنا أعلى نقطة يستطيع المرء أن يبلغها فى قدرته العقلية بعبارة « الارتفاع العقلى » ، فليس فيما عندنا من الحقائق ما يدل على أنه يفقد القدرة على بلوغ ذلك « الارتفاع » مع علو السن ، أو حتى يدرك السبعين . نعم ، قد يتسلق إلى قمة « ارتفاعه العقلى » تسلقاً بطيئاً ، ولكن إذا أفسح له الوقت اللازم ، استطاع أن يحمل الحمل الثقيل ، وأن يكون على ثقة من الوصول إلى القمة فى آخر الشوط » .

ويؤيد رأى الدكتور لورج تلك البحوث الشهيرة التى أجراها الأستاذ إدوارد ثورنdايك على « قدرة الكبار على أن يتعلموا » ، فقد خلص ثورندايك من تجاربه الواسعة النطاق إلى أن الكبار الذين ارتفعت بهم السن إلى

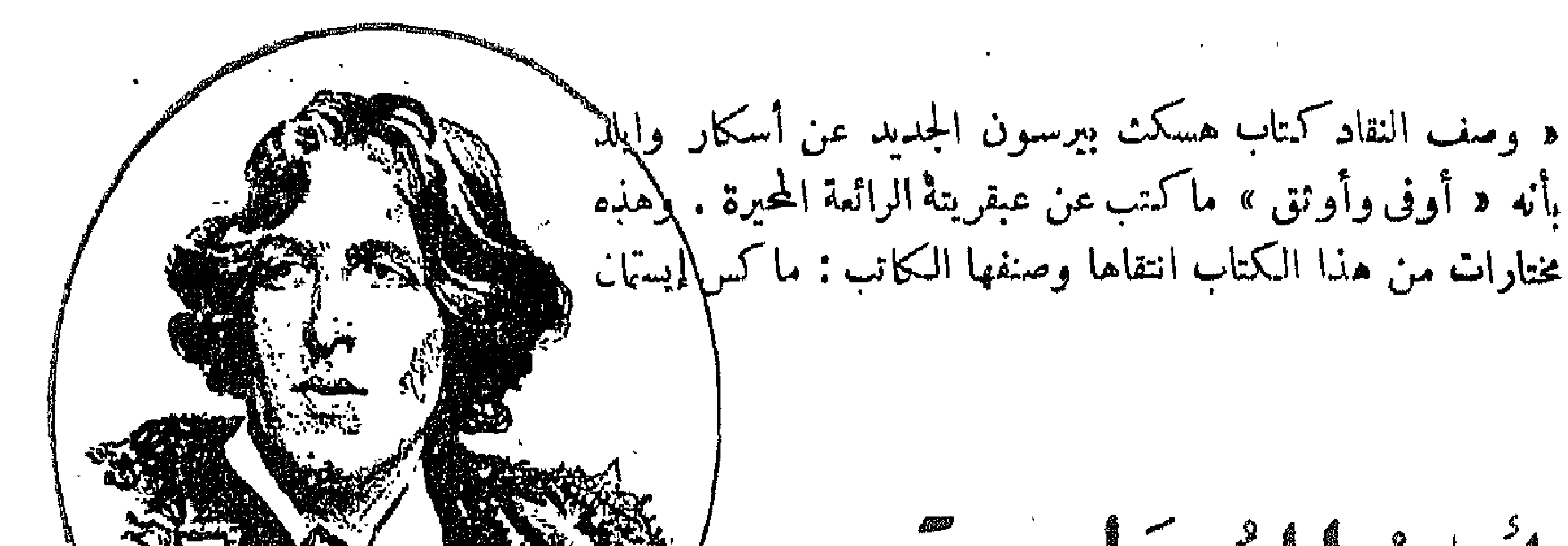
٤٥ سنة على الأقل ، يجارون الشباب دون العشرين فى قدرتهم على أن يتعلموا أشياء لا عهد لهم بها ، وإذا كانت القدرة على التعلم تضعف شيئاً فشيئاً ، فيما يبدو ، بعد الخامسة والعشرين ، فإن الكبار يعوّضون ما يفقدونهُ منها ، بما يكون لهم من اهتمام بالموضوع وإدراك لنفعهِ المباشر . ولذلك ترى الإنتاج الفكرى فى الذين بلغوا الخمسين أو الخامسة والخمسين ، أكبر من إنتاج الذين فى الخامسة والعشرين ، إذا تساوت درجة الذكاء فى الجماعتين ، وكان العمل واحداً .

قال الدكتور لورج : « إذا نظرنا إلى القدرة العقلية ، وجدنا أن لا حاجة بالمرء أن يبلغ سن اعتزال العمل . والمرجح أن نفع المرء تزداد مع ارتفاع سنّهِ ، فهو يملك القدرة العقلية التى كانت له يوم كان شاباً ، ويضيف إليها ثمار تجربتهِ وخبرته فى عملهِ الخاص ، وهذه أشياءُ يعجز عن إدراكها الشبان مهما بلغوا من الذكاء والتوقد . وهذا يبيّن لنا ما لرأى الشيوخ من قيمة فى ميادين السياسة والأعمال على السواء .

« وإذا ما تقدّمت بنا السنّ وجب علينا أن نحسب ، ونحن مطمئنون ، حساباً للعقبة التى تعترضنا ، وهى الزمن . بيد أنى أعتقد أن قوتنا العقلية لا يعتريها وهنٌ ولا تصدّها العقبات » .

ثم إن هذه النتائج خليقة أن تكون معواناً لنا على أن نتجنب العثرات النفسية التى تترصدنا فى السبيل المفضية إلى ارتفاع السنّ . فالقول بأن التقدم فى السنّ يجلب فى أثره وهن القدرة العقلية يؤثر فى الناس ، فإذا هم يترقبون أعراض هذا الوهن . فإذا ما شق عليهم أن يتذكروا اسماً ، أو أن يتخذوا قراراً فاصلاً ، رأيتهم يقولون : « هذا برهان على أنى بدأت أشيخ » ، وهم ينسون أن هذه المشاق آدتهم فى شبابهم أيضاً ، إلا أنهم يلاحظونها الآن فى شيخوختهم ، على حين كانوا لا يلاحظونها فى صدر شبابهم ، فتراهم يستسلمون إلى الظن بأن قدرة عقولهم قد أخذت تضعف . وإذا ما استولى على المرء هذا الظن ، كفّ عن المحاولة ، على الرغم من أن الدليل قائم بين يديه ، على أن قدرته العقلية لا تزال كما كانت ، لو هو انتفع بها .

وعندى أن خير ما يشفى من هذا الداء النفسى فى الكبار ، هو معرفة النتائج التى خلص إليها لورج وثورندايك ، لأنه إذا كان فى طاقتنا أن نتعلم فى الكبر أشياء جديدة كالتى كان فى طاقتنا أن نتعلمها فى أيام الشباب ، وإذا كانت قدرتنا العقلية بوجه عام لم تضعف ، فنحن إذن نظلّ مزوّدين إلى نهاية الحياة بما لابد منها لإدراك السعادة والنجاح فى هذه الحياة الدنيا .



« وصف النقاد كتاب هسكث بيرسون الجديد عن أسكار وايلد بأنه « أوفى وأوثق » ما كتب عن عبقريته الرائعة المحيرة . وهذه مختارات من هذا الكتاب انتقاها وصنفها الكاتب : ماكس إيستمان

أمير الدعابة

مستخرجة من كتاب « أسكار وايلد : حياته ودعاباته »

في سنة ١٨٥٦ ولد في إرلندة رجل من أكبر أمراء الدعابة في الأدب ، فكان أغزر المحدثين خيالاً ، وأحضرهم بديهة ، وأجرأهم على الدعابة ، وكان أيضاً ألطفهم مرحاً وحبوراً — أو هكذا على الأقل كان يذكره أصحابه . وقد وصفه أحد كبار النقاد فقال إنه : « أكبر أستاذ مزهو بنفسه رزين في تفكيره ، أطاعت له الأستاذية في فن الحديث ، منذ تكلم الناس الإنجليزية » . فكان يقول الكلمة المناسبة في وقتها المناسب ، فلم يكن من عادته أن يفكر فيها حتى إذا طلع عليه الصباح تمنى أن يكون قالها . ولن نجد سواه أحداً أكثر الناس من الاستشهاد بروائع كلماته ، فمن ذلك :

« الواجب هو الفعل الذى نتوقعه من سوانا »

« في وسعى أن أقهر كل شىء إلا الإغراء »

« تحب المرأة الرجل لنقائصه ، فإذا كان له منها حظ وافٍ غفرت له كل ذنب حتى قوة تفكيره »

« أسألك المعذرة ، فإنى لم أعرفك — فقد بلغ منى التغير مبلغاً كبيراً »

لم يكن أسكار وايلد ممن يستأثر بالحديث في المجالس ، بل كان مستمعاً يقظاً حى النفس ، وبرع في توجيه الحديث بأسلوب يتيح له أن يستثير خير ما في عقول جلسائه ، ولم يكن يذكر خاصة أموره لأحد قط إلا

لخاصائه ، وما كان متحكما فى آرائه، ولا كان يخالف أحداً فى رأى ، ولا كان يدعى أنه حُجَّة فى شىء من الأشياء — اللهم إلا فى آداب السلوك فى الحين بعد الحين .

وكان يحرص دائماً على أن يكون رزيناً منصفاً يشارك الناس راضياً فى التندُّر على نفسه . وكان سخياً سخاءً مفرطاً ، فكانت أمواله تتدفق من بين أنامله تدفقاً غزيراً كتدفق أفكاره . وما من شىء كان يكسل عن أدائه لنفسه فاحتاج إليه أحد سواه إلا أداه له على السجية، لا من الشعور بالواجب. ولعله هو الوحيد بين أصحاب الدعابة والتندّر من بلغت به رقة حاشيته أن لا يمس أحداً بإساءة تؤذيه ، ولم يستعمل قط كلمة نابية ولو اقتضاها المزاح . وإذا طار به المرح فى سموات الخيال ، بقى كعادته رفيقاً رقيقاً . وأكثر كلماته المأثورة هى فى الأغلب جدٌّ كلها ، وأدل شىء على ذلك قوله : « يحرص البشر على أن ينظروا لأنفسهم نظرة كلها جدٌّ — هذه هى الخطيئة الأولى »

« ليست المحنة فى الشيخوخة أن تحس بأنك شيخ ، بل إحساسك بأنك شاب »

« إن المرء ليجد لذة فى معاتبة نفسه ، فهو حين ينحى باللائمة على نفسه يحس بأن لا حقَّ لأحد فى ملامته »

وكان أسكار وايلد جاداً أيضاً فى حبّه للجمال ، وقد شن فى سبيل الجمال حرباً شعواء على المتزمتين من أهل الأخلاق الذين كانوا فى عصر الملكة فيكتوريا . وأدرك أيضاً أن فى وسعه أن يجد روائع كثيرة فى هذا النزاع القائم بين الرأى السليم فى الشعور بالجمال ، والرأى الفاسد فى الشعور بالإثم ، ولما كان أسكار قد خلق مفطوراً على القدرة فى حسن عرض الأشياء كسائر أهل الفكاهة والدعابة ، فقد أحسن استغلاله خير استغلال .

أعان أسكار ، وهو لا يزال طالباً فى الكلية ، أن الإصلاح فى الملابس أجدى على الناس من الإصلاح فى الدين . فلما نزل لندن بعد تخرجه مشى وهو يحمل قفازين لونهما أزرق شاحب ، وزعم للناس أنه أستاذ فى « علم الجمال » ، فكان يظهر فى حفلات الليل «عليه معطف من المخمل، مطرز الحواشى ، مرتدياً سروالاً قصيراً عليه الوشى ، وجورباً أسود طويلا إلى الركبة ، وقميصاً رقيقاً فضفاضاً ، عليه بنيقة واسعة متدلية الطرفين، فيها قلادة (كرافتة) كبيرة متهدلة خضراء اللون». واتخذ زهرة الزنبق وعباد الشمس شعاراً ، لا من أجل جمالها، بل لأنهما شىء مضحك إذ رأيتهما على صدر رجل ضخم قد ناطهما إلى عُروته .

واعلم، على ذكر هذا، أن أسكار وايلد كان ضخم الجثة شديد الأسر حديد الطباع، فكان في استطاعته أن ينصر مذهبه وذوقه على رغم كل معارض، سواء أكانوا فرادى أم جماعات. من ذلك أنه لما كان في كلية ترنتي بمدينة دبلن، سخر من إحدى قصائده فتى بطل مَرِير القُوَى كان يُعدّ من أعتى العتاة، فسار إليه أسكار وايلد ولطمه على وجهه، ودارت المعركة بينهما، وذهل الطلبة حين رأوا الشاعر يصرع البطل صرعة مُرْدِية.

وبعد ذلك بزمان رأى زملاؤه في أكسفورد أنه ينبغي لهم أن يقتحموا غرفته ويحطموا أثاثها الجميل، حتى يخلصوا من شذوذه وخروجه على تقاليد الجامعة. فهجم على غرفته أربعة من الفتيان أدار الغرور رؤوسهم، وبقي الآخرون وقوفاً ينظرون عند الدرج، فلم يلبث المقتحم الأول أن لحق بأصحابه عند الدرج، مشيعاً بحذاء أسكار وايلد، ونال الثاني لكمة قذفت به متدحرجا على سابقه، وعاد الثالث محمولا على متن الهواء. أما الرابع فقد حمله أسكار إلى غرفته ودفنه تحت كومة من الأثاث، ثم عاد إلى النظارة الذين صاروا معجبين برجولته، فدعاهم إلى غرفته ليتذوّقوا شيئاً من خموره المنتقاة.

وقد شوهد مرة وهو لايزال في أكسفورد يخاطر بنفسه واثباً من مقصورة إلى مقصورة في ردهة الموسيقى، لكي يدعو الحاضرين إلى دعوة أعدها لهم بعد انفضاض الحفلة. بيد أنه كان من الكسل بحيث لم يكن يستخدم هذه الجرأة الخارقة إلا في الدفاع عن النفس أو في العبث والتسلي. وقد قال بعد ذلك بزمن: «أخشى أن يكون فاتني أن أمارس شيئا من الرياضة — اللهم إلا لعبة الضمنة (الدومينو) فقد كنت ألعب الضمنة أحياناً على رصيف بعض المقاهي الفرنسية».

وليس يدخل في طوق رجل ضئيل الجسم خَرِع المفاصل، أو رجل ضعيف هيّاب أن يفعل مافعل أسكار وايلد، فبكبريائه الطاغية وموهبته الخارقة في التندر والدعابة، استطاع أن يجعل صيته يذيع في قارتين واسعتين وهو في السابعة والعشرين من عمره، دون أن ينشر سطراً واحداً يشغل إنسان نفسه بقراءته.

ولم يكن أسكار جميل الصورة، اللهم إلا ماترى من جمال عينيه المتلألئتين وجبينه الوضّاح، أما أسنانه فكانت متراكبة، وأما بشرته فكانت أميل إلى الشحوب، فإذا سلم عليك هزّ يدك برخاوة وطراوة، وإذا نظرت إلى عضلاته القوية رأيتها أشبه باللحم منها بالعضلات. وكان بديناً متراكب اللحم

تتبين فى مظهره شيئاً من الجسامة المفرطة فى التركيب ، حتى قال رتشــارد ليجاليين الشاعر الإنجليزى: إنه يراه كأنه دمية مفرطة الضخامة . فكانت هذه الصفات تنفر الناس منه عنــد النظرة الأولى كما ينفرهم اللقب الذى ادعاه لنفسه « أستاذ علم الجمال » ، بيد أن صوته الرخيم ، وضحكته الرقيقة الصادرة من صميم القلب ، والينبوع الذى لاينفد من الحكايات المطربة ، ومن الفكاهات وغرائب القصص والعبر والأمثال ، ومن الأفكار العميقة التى كانت تتدفق من لسانه كالسيل ، كانت تصطلح جميعاً على نفى هــذا النفور الأول ، فكان النــاس ينجذبون إليه إذا دخل مكاناً وبدأ يتكلم .

« لا يجدى على المرء شىء كما يجدى الغلو » ، هكذا كان شعاره ، وكان حريصاً عليه لا فى مظهره وحده بل فى كلماته أيضاً .

وقد سئل مرة كيف قضى يومه ، فقال بوقار : « قضيت النهار كله أراجع قصيدة من قصائدى ، فحذفت منها شولة ، فلما جاء العصر رددتها ثانية إلى مكانها » .

وجاءه مرة رجل ضئيل الجسم حقــير الهيئة فقال : « جئت أطالب بالضرائب » .

فردّ عليه أسكار بغطرســة وغضب : « الضرائب ! وعلام أدفع هذه الضرائب ؟ »

قال الرجل : « إنك ساكن هذا البيت ياسيدى ، أليس كذلك ؟ وتقضى فيه نهارك وتنام فيه لياليك » .

قال أسكار : « صدقت ، ولكن ماتقول إذا كنت لاأجد فى نومى راحة أبداً ؟ »

ودخل مرة دكان زهَّار فأمر العامل أن يرفع بعض الأزهار من الواجهــة فقال له الرجل : « سمعاً وطاعة ياسيدى ، كم تريد منهــا ؟ »

فقال أسكار : « كلا ، فأنا لا أريد منها شيئا ، وشكراً لك . وما سألتك أن ترفعها من الواجهــة إلا لأنى أراها كأنها كليلة منهوكة القوى » .

وخرج مرة فى ثياب مشهَّرة تلفت الأنظار ، وهو يعلم حق العلم وقع هذه الغرائب عند الناس ، فسمع رجلا من المارة يقول : « هذا هو أسكار وايلد الأحمق المجنون » فالتفت أسكار إلى رفيقه وقال : « عجبا ! ما أسرع مايصير المرء معروفاً فى لندن ! »

ولم يلبث أن ذاع صيته فى أمريكا أيضاً فرحل إليها ليحاضر الناس فى البلاد المختلفة . وقد ملأ قلب الرجل الذى يتولى أمر رحلته حسرات حين أبى أن يضع فى عروته زنبقة يسير بها فى شارع برودواى ، بيد أنه غالى فى زينة ثيابه ، وغالى فى دعابته وأحاديثه للصحفيين حتى بلغت الرحلة ذروة النجاح . وما من دعابة كانت أجزل خيراً ونفعا من كلمات ثلاث

قالها وايلد وهو فى الميناء ، حين سأله أحد رجال الجمارك هل عنده شىء مما ينبغى أن يطلعهم عليه فقال : «لا شىء سوى عبقريتى»

كانت رحلة أسكار وايلد فى أمريكا أشبه بالانتقام لرحلة مارك توين فى أوربة ، فقد سخر توين سخرية شديدة من أوربة وغلوها فى الثقافة ، فسخر أسكار مثل سخريته من أمريكا وفقرها فى الثقافة ، فمن ذلك قوله :

«حين رأيت أنه من عادة أهل أمريكا أن يعلقوا الصور عالية قرب السقف ، حسبت ذلك فى بادىء الأمر ضرباً من الحمق . ولم أقدر هذه العادة حق قدرها حتى تبين لى مبلغ قبح هذه الصور» .

« إن استغراق أمريكا فى هم سخيف هو التجارة ، وقلة احتفالها بالجانب الشعرى فى الأشياء ، إنما يرجع كله إلى سبب واحد ، هو أن الشعب قد جعل بطله القومى رجلا يعترف على نفسه بأنه لا يستطيع أن يكذب» .

وقد جاءته برقية من جرجزفيل تقول: «هل لنا أن نطمع فى محاضرة فى علم الجمال؟» فأجاب : « غيروا أولا اسم مدينتكم » .

ولما دعى أسكار للمحاضرة فى جامعة هارفرد ، دخل ردهة المحاضرات ستون طالباً وجلسوا فى الصف الأول، وقد لبسوا جميعاً سراويلات قصيرة موشّاة كسراويل أسكار ، ومع كل منهم زنبقة أو زهرة من عباد الشمس ، وبلغ أسكار الخبر قبل المحاضرة ، فإذا بهم يرونه على المنصة مرتدياً ثياب السهرة ، فخجل الطلبة لما تورّطوا فيه من حماقة. وتحجّت الردهة بالضحك حين قال: « إنه يرى فى ردهة المحاضرات بعض ما يدل على شىء من النهضة الفنية » ، فلما قال كلمته المأثورة : « التقليد هو تحية العوام لأصحاب العبقرية » تجاوب المكان بالتصفيق .

وقد أخفقت كل المحاولات السخيفة التى أريد بها إفساد رحلة « أستاذ علم الجمال » . فقد اجتمع عليه السكيرون المدمنون على طول طريقه من نيويورك إلى سان فرنسيسكو ، فكان يشرب معهم حتى يبلغ منهم السكر ، ثم يكبكب بعضهم على بعض فى عربة وينطلق بهم آيباً إلى فندقه وهو مرح جذلان. وقد دعاه رجال التعدين فى كولورادو إلى وليمة أقاموها له فى جوف منجم ذهب ، وكان وايلد معجباً برجال التعدين حتى وصفهم بأنهم أحسن أهل أمريكا أناقة فى ملابسهم ! وقال يذكر دعوتهم : « لما نزلنا إلى جوف المنجم، جلسنا إلى الوليمة ، فكان اللون الأول من طعامنا هو الخمر ، وكان الثانى خمراً ، وكان الثالث خمراً أيضاً » ، فما بزغ الفجر حتى أخرج المعدنون مغمى عليهم من كثرة الشراب ، أما أسكار فقد

خرج وهو يثرثر ويتندر كأنه خارج من حفلة شاي فى لندن .

فلما بلغ أسكار ما كفاه من شهرة ذائعة وجمع شيئاً من المال ، ضاق ذرعاً بحياة التمثيل التى كان يمارسها ، وعزم على أن يمتحن نفسه فيرى هل يطيق أن يزاول بعض العمل . وقد قال حين قفل راجعاً من أمريكا : « لقد مات أسكار الأول، وليس لأسكار الثانى علاقة بالفتى المرسل الشعر الذى يحمل فى يده زهرة عباد الشمس ويذرع ميدان بيكادللى » (وقد صرح أسكار فيما بعد أنه لم يحمل قط زهرة عباد الشمس ذارعاً ميدان بيكادللى وقال : « فى وسع كل أحد أن يفعل ذلك ، لقد كان أكبر همى هو أن أجعل الدنيا كلها تعتقد أنى فعلت ذلك وإن لم أكن فعلته »)

كانت أولى تجاربه فى العمل قصيرة المدى، وذلك حين صار رئيس تحرير لمجلة تدعى « دنيا المرأة » ، فاستمتع كل الاستمتاع بشطر من واجبات هذا العمل ، وهو اضطجاعه فى كرسيه وتحدثه إلى الكتاب الذين يؤملون أن تنشر مقالاتهم ، وزاد على ذلك استمتاعه بلقائهم فى مقهى « كافيه رويال » . وعاش يومئذ طبقاً لكلمته المأثورة : « لاتؤجل لغدٍ ما تستطيع أن تصنعه بعد غد » . أما امتناعه عن الرد على الرسائل ، فقد سار فيه على مبدأ اعتقده وهو : « لقد عرفت رجالا نزلوا لندن تنطوى قلوبهم على آمال باهرة ، فما مضت أشهر قلائل حتى رأيتهم حطاماً مركوماً من جراء تلك العادة المستهجنة، وهى الرد على الرسائل » . وكذلك لم يمر على أسكار سوى عام واحد فى رياسة التحرير .

ثم بذل جهداً آخر فى أداء عمل سوى الحديث، فاشتغل ناقداً فى « بال مال جازيت » ولكنه مُنى بإخفاق مرة ثانية ، فقد كان أرق قلباً من أن يهجم على مؤلف بما يسوءه . وكان أقسى شىء قاله فى نقده هو تقريظ للرسام الأمريكى جيمس مكنيل هويسلر الذى كان على نبوغه رجلا شديد الحب لنفسه والإعجاب بها ، قال : « أما من حيث إنه أحد كبار أساتذة الرسم ، فذلك رأيى فيه . ولعلى لا أخطىء إذا قلت إن هويسلر نفسه يوافقنى على هذا الرأى كل الموافقة » .

فكانت هذه الكلمة بدء معركة من النوادر بينهما ، نال فيها هويسلر مرة من بطل الفكاهة نيلا ذاع بين الناس . وذلك حين أقيم معرض فى لندن عرض فيه هويسلر بعض رسومه، فجاء الناقد الفنى لجريدة التيمس وجعل يبدى رأيه فى الرسوم : هذا حسن ، وهذا ردىء ، وهكذا . فقال له هويسلر : « يابن أخى ، لاتقل هذا حسن وهذا

ردىء ، فليس من حقك أن تعبر عن رأيك بأحدهذين اللفظين، فإن شئت فقل: « هذا يعجبنى » أو « هذا لا يعجبنى » ، وعندئذ لا يدّعى أحد أنك قد تجاوزت حدود حقك. والآن هيّا بنا إلى كأس من الخمر — فهذا هو الشيء الوحيد الذى يعجبك ولا ريب ».

فقال إسكار وقد اهتز عطفه مرحاً : « وددت لو كنت قائل هذه الكلمة ! »

فأجابه هويسلر : « سوف تنتحلها يا أسكار ، سوف تنتحلها »

ولم يصبر أسكار على هذه النكتة اللاذعة حتى نال من هويسلر بماهو أشد منها لذعاً .

وكان الذى اضطرّ أسكار إلى بذل الجهود الجبارة فى ممارسة العمل ، شيئاً مألوفاً حدث فى حياته كما يحدث لسائر الناس . فقد أحب فتاة وهام بها وتزوجها ، وكان لديها من الثروة مايكفى لطعامه ومسكنه ولكنها لاتكفى لتحقيق كلمته : «أنلنى مناعم الترف ولك علىّ أن أستغنى عن ضروريات الحياة » .

كانت زوجته كونستانس فتاة جميلة ، وكانت موهبتها هى الصمت كما كانت موهبة زوجها هى الكلام . قال أسكار : « أحبها لأنها لاتنبس ببنت شفة ، وأنا لا أزال أسأل نفسى عجباً رجاء أن أعرف كيف تكون أفكارها » . وإذا شئنا أن نحكم عليها طبقاً للحديث الوحيد الذى نقل عنها ، قلنا إنه لا شبه بين أفكارها وأفكار زوجها ، فقد كانت تقية ذات دين ، وكانت تبدى عن حب شديد للدُّعاة الذين يدعون للدين بين الهمج فى الغابات . فقال لها أسكار :

« أتحسبين الدعاة ياعزيزتى ؟ ألم تعلمى أن دَعْوتهم ليس سوى وليمة مقدسة أعدت لذوى التربة والمسغبة والمحرومين من أكلة لحوم البشر ؟ فمتى أشفى أكلة لحوم البشر على الموت جوعا شاءت رحمة الله الواسعة أن ترسل إليهم طائفة من هؤلاء الدعاة ليقيموا بهم أوَدَهم »

فقالت كونستانس : « رباه! إنك لاتقول هذا جاداً يا أسكار ، بل لست إلا مازحاً بلسانك » .

كان من دأب أسكار أن يقول : « إن خيرأساس للزواج هو سوء التفاهم المتبادل» ، وقد ظل زواجه سنوات زواجاً موفقاً ، ورزق ولدين كان مولهاً بحبهما ، وكان ولداه يعدّانه رجلاً كاملاً لما كان يفيضه عليهما من غرائب قصصه . فكان حُبّ هذين الغلامين هو الذى مهد له الطريق إلى اتخاذ الكتابة عملاً .

فكان أول كتبه ذات الشأن — وسيظل قوم يعدّونه خير كتبه — سِفْر فيه مجموعة من غرائب الحكايات نشره وهو فى الثامنة

والثلاثين من عمره . ويقول أصدقاؤه إنه بعد أن كتب هذه الحكايات لم يجدوا فيها من الروعة ما كان فيها حين قصها على أولاده منطلقاً فى قصصه على سجيته . ومع كل ذلك فهى أروع أمثالها من الحكايات فى اللغة الإنجليزية .

وفى سنة ١٨٩١ شارف أسكار السادسة والثلاثين ، ولم يزل ضالا لم يهتدِ إلى الطريق الواضح الذى يحيل عبقريته فى الحديث إلى أدب مكتوب ــ ألا وهو كتابة المسرحيات. وقد طبعت أولى مسرحياته فى سنة ١٨٩٢ وهى «مروحة ليدى وندرمير» ، ولم تكن إلا ضرباً من المهارة فى التوفيق بين بعض الفكاهات والنوادر التى يتذكر أنها جرت على لسانه، بيد أن نجاحها كان سريعاً ومتجدداً على الأيام، وأخيراً اهتدى إلى سواء السبيل. فلما كانت سـنة ١٨٩٤ وكتب أروع مسرحياته* صار أشهر كتاب المسرحيات فى لندن وأحبهم إلى النـاس ، وأحد مشاهير كتاب العالم . أما اليوم فإن ما يباع من كتبه فى أوربة أكثر من أى مؤلف إنجليزى آخر ، اللهم إلا شكسبير .

وقد عاش أسكار أربعين سنة لم يذق فى يوم واحد منها طعم البؤس والشقاء، كما يقول أصدقاؤه . ثم حدث ما نغّص عليه عيشه ــ وليس يعلم أحد ما هو على التحقيق ، ولعله هو النجاح ، فقد قال هو نفسه: « ليس فى هذه الحياة الدنيا سوى مأساتين : إحداهما أن لا ينال المرء ما يبتغيه، والأخرى أن ينال ما يبتغى . وشرُّهما هذه الأخيرة، وهى المأساة حق المأساة » . أو ربما كان سر بؤسه علة أصابت غدة من غدده ، فقد أصبح فظ الطباع منتفخ البدن، وأطلق العنان لشذوذ جنسى لم يمنعه إلى آخر أيامه من أن يعيش مع أهله عيشة طبيعية متمتعاً بأتم عافية .

أما السنوات الأربع الأخيرة من عمره فكانت أحفل ما فى تاريخ الأدب الإنجليزى بالفجيعة وأجلبها للشفقة والرثاء . كانت سنوات خزى وسجن ونفى ومتربة ــ وشرُّ ما فيها الصمت ، ثم جاء الموت فأنقذ نفسه المحطمة من نكبتها . وقد روى الناس قصة هذه السنوات مراراً فدخلها الكذب والتحريف ، فينبغى أن يقرأها على وجهها الصحيح كل من له ولع بمعرفة طبائع البشر وتصاريف الأقدار . ولكن ينبغى للمرء أيضاً أن يتجنب الإفراط فى تأويلها، وينبغى أيضاً أن نحول بين هذه السنوات الأربع وبين إلقائها ظلا قاتماً مريباً على تلك السنوات الأربعين الحافلة بالمرح والرقة والكرم والدّعابة التى لا تبارَى ولا تجارَى.

* The Importance of Being Earnest

يوغسلافيا

عبرة لأهل الأرض



بجدان رادتسا

مختصرة من كتاب يوشك أن ينشر

من وراء الستار في البلقان :
قصة تحمل الناس على التفكير

يوغسلافيا، عِبرة لأهل الأرض

أعضاء الحزب الشيوعي في بلاد العالم يزعم قاطبة أنهم يحبون الديمقراطية، فتجدهم في كل بلدٍ تقريباً خارج الاتحاد السوفيتي، يجتهدون في أن يضموا أعضاء الأحزاب الأخرى في هيئات يطلقون عليها اسم الجبهة القومية، أو الجبهة الشعبية، أو لجنة المواطنين الأحرار، أو ما شاكل ذلك. وهم يزعمون أنهم إنما يفعلون ذلك لنشر « الديمقراطية ». أما أنا فقد دلتني تجربتي في وطني على حقيقة هذه الخطة الماكرة الخبيثة.

عينت في سنة ١٩٤٥ رئيس قسم الصحافة الأجنبية في وزارة الاستعلامات في حكومة المارشال تيتو القائمة اليوم. وهذه الحكومة تطلق على نفسها وصف الجبهة الشعبية، وقد أنشئت لتكون اتحاداً متعاوناً مؤلفاً من الأحزاب التي كانت تنشد للشعوب اليوغسلافية من أهل الصرب وكرواتيا وسلوفينيا والبوسنة والهرسك والجبل الأسود ومقدونيا، نهجاً في الحياة أدنى إلى النهج الديمقراطي.

أما الحزب الشيوعي فقد كان غرضه منذ أول الحرب أن يظفر بالسيطرة لا أن يحقق التعاون، فاستولى شيئاً فشيئاً على مناصب السلطة، الظاهر منها والخفي، فإذا العاقبة نظام يناقض الديمقراطية كل المناقضة ويخنق حرية القول والصحافة والفكر، ويخضع حياة الناس لعيون هيئة جديدة للبوليس السري، ويعمد رجاله إلى الجبروت في اعتقال الناس وسجنهم وإعدامهم وتذبيحهم. فهذا حكم مستبد قوامه الإرهاب والموت، وزمامه في يد عصابة صغيرة.

وقد اصطلح الشيوعيون على تسمية الديمقراطيين الحقيقيين الذين يرضون أن يتعاونوا معهم في سبيل « الديمقراطية » بعبارة: « كورستني بودال »، وهي بلغة الصرب والكروات معناها « المغفلون النافعون ».

وقد كنت أحد هؤلاء المغفلين. وعسى أن تكون قصة تنبهي ويقظتي شيئاً فشيئاً، ذات جدوى في تحذير « المغفلين » في سائر البلدان.

كنت في سنة ١٩٤٣ في نيويورك رئيساً لقسم الصحافة التابع للحكومة اليوغسلافية الملكية، وكنت لم أزل في خدمة تلك الحكومة منذ سنة ١٩٢٨ — في بلغراد وأثينا وجنيف ووشنطن، ومع ذلك كنت

أرى أن قسط يوغسلافيا قبل الحرب من الديمقراطية كان قسطاً ضئيلا ، وكان هذا الرأي يملأ جوانحي يوم قرأت أن « جمعية التحرير الأولى » التي اجتمعت حول المارشال تيتو قد أصدرت بياناً سرى كالكهرباء .

وقد جاء في هذا البيان أن الجمعية تريد « اتحاد الشعوب اليوغسلافية اتحاداً حراً على قدم المساواة بينها » . فهو بيان يؤيد « الديمقراطية » ، وتتردد فيه أنفاس أمة جديدة بعثت تحت ظلال الحرية .

ووازنت بين واجبي نحو يوغسلافيا القديمة والجديدة ، فآثرت جمهورية يوغسلافيا المتحدة الديمقراطية على ملكية الملك بطرس ، وآثرت تيتو على ميخائيلوفتش ، واستقلت من منصبي . وجعلت قلمي مناصراً لتيتو في الصحف الأمريكية التي تشد أزر الأحرار .

وكتبت في مجلة نيشن مقالا جاء فيه : « لقد نهضت يوغسلافيا الجديدة : اتحاد قائم على المساواة السياسية والدينية والاجتماعية . وأنا وإن كنت من صغار المجاهدين إلا أني أشعر بأني إنما أؤيد أشياع تيتو ، لأن آمال بلادي معقودة بعملهم » .

ولم أطق عندئذ أن أبقى في المنفى طويلا ، فأبحرت في نوفمبر سنة ١٩٤٤ من نيويورك ، وجاءت زوجتي بأولادنا ليودعوني على الرصيف ، فوجدتها شديدة الغبطة ، وكانت مُنانا أن تلحق بي قريباً في يوغسلافيا موطن الأحرار من الرجال والنساء .

« لماذا عدت ؟ »

فلما بلغت بلغراد رأيت حولي كل دلائل التحرير — على أيدي الروس . فهذه مهامز الروس العسكرية تصلصل في كل الشوارع ، وصور ستالين تطل من كل النوافذ . ولم أحفل كثيراً يوم سرق الجنود الروس ساعتي من غرفتي في الفندق ، فقد ألف الناس في بلغراد أن يأمرهم الجنود الروس : « هات ساعتك » ، فالساعات في نظر هؤلاء المحررين شيء جديد لا قبل لهم بمقاومة إغرائه ، بيد أنهم كانوا محررين ، وكانوا إخواناً سلافيين .

وكان الشبان في أسمال بالية يرقصون في ميدان عام رقصة « الكولو » الصربية القديمة ، لكن الكلام الذي كانوا يغنونه أثناء الرقص كان جديداً :

« تيتو أيها الرفيق إذا ذهبت إلى روسيا فردد شكرنا للجيش الأحمر ، وبلغ ستالين أن شبابنا الصربي في طاعته » .

لم أحفل بكلام كثير من معارفي القدماء في بلغراد وكأنه ينم عن الأسى العميق ، كانوا يقولون لي : « لماذا عدت إلى هذا الجحيم ؟ »

كان هؤلاء المعارف من الطبقة الصربية الحاكمة التي حكمت يوغسلافيا بين الحربين العالميتين ، وهاهم الآن يسيرون في ثياب رثة وفي عيونهم الجزع ، فرثيت لهم ، لكني تذكرت ما كان لهم من شأن في في مساوئ الماضي ، وصرفت نفسي إلى التفكير في المستقبل الحر الصالح .

وقد أوجست خيفة على حرية ذلك المستقبل حين تبينت أن تقلدي رياسة القسم الخاص بالصحافة الأجنبية في وزارة الاستعلامات ، يقتضي أن يتحروا عن سيرتي . ولن تجد اليوم يوغسلافيًّا قد سلم من ذلك التقرير السري الذي تسجّل فيه حركاته السياسية وأعماله الخاصة ، فهو يرسل في أثره من مكان إلى مكان ، ويقرر نوع المعاملة التي يلقاها من ولاة الأمور أنّى ذهب . فإذا كان التقرير غير مرض حيل بينه وبين كل عمل في الحكومة ، وإذا منعت عن العمل في الحكومة ، فقلما تجد عملا تعمله . وقد أعدّ التقرير الخاص بي سفيتا نيدلكوفتش رئيس المستخدمين في وزارة الاستعلامات وعضو الحزب الشيوعي .

وقد أجفلت ساعة قال لي نيدلكوفتش إن في سيرتي نكتة سوداء هي تأليف كتاب « عذاب أوربة » الذي نشر في بلغراد سنة ١٩٤٠ .

كان الكتاب ضد الفاشيين ، وقد صادره الألمان المحتلون . ففيم اعتراض نيدلكوفتش الشيوعي ؟

ولكن سرعان ما عرفت السبب . فقد كان الكتاب ضد الفاشيين ، بيد أنه لم يكن مع الشيوعيين ، بل كان يناصر الديمقراطية . وقد أنذرني نيدلكوفتش بأنه سيراقب سيرتي في المستقبل .

وهكذا أدركت أنه لا بدّ لغير الشيوعيين من أعضاء الحكومة المنتمية إلى الجبهة الشعبية من أن ينالوا رضى الشيوعيين، فغير الشيوعيين هم « المظهر » والشيوعيون هم المدبرون في الخفاء وأصحاب السلطان .

وحين اقترحت ضم طائفة مختلفة من الأدباء غير الشيوعيين إلى قسم الصحافة رُفض اقتراحي وقيل لي : « إنهم رجال كُتب عليهم الموت ، ونحن في حاجة إلى رجال جُدُد . ولن تلبث حتى ترى الرجال الجدد قد حلوا محلهم » .

« رجال كُتب عليهم الموت ! » عبارة ظلت جاثمة على صدري كالكابوس .

وجعلوا يقذفون بالرجال الجدد إلى إدارتي .

وكان أحدهم يدعى فكسان أرسل إلى من البوليس السياسي السري رأساً ، وقدّ كلف أن يتولى أمر الصحفيين الأجانب مع

أنه لايعرف لغة أجنبية واحدة . فبدأ ينشىء إضبارة سرية لكل مكاتب أجنبي فى بلغراد . ولم أشأ أن أكون مجرد تمثال ، فحادثت رئيسى وزير الاستعلامات ساڤا كوزانوفتش سفير يوغسلافيا فى وشنطن الآن ، ولم يكن شيوعيًّا ، بل كان السكرتير العام للحزب الديمقراطى المستقل . وكان هو أيضاً رجلا يحيط به « رجال جُدُد » ، وكان عاجزاً كل العجز عن مدّ يد المساعدة إلىّ .

أما المدير الحقيق لوزارة الاستعلامات فكان « مساعده » ڤيلكو كوراخ ، وهو شيوعى .

وأدركت أن هذه حال كل عضو غير شيوعى فى جبهة تيتو الشعبية المزيفة ، حتى إيفان سوبازيتش وزير الخارجية .

وسوبازيتش من زعماء أكبر حركة ديمقراطية فى يوغسلافيا ، وهى حزب الفلاحين الكرواتى . فهو الذى أمضى اتفاق تيتو سوبازيتش للجمع بين العناصر اليوغسلافية المناهضة للفاشية فى ائتلاف ديمقراطى . وكانت بريطانيا هى التى حضنته على هذا الاتفاق ، واشتركت معها الولايات المتحدة فى ذلك إلى حد ما .

فالآن عرفت أن سوبازيتش لم يكن هو الذى يدير وزارة الخارجية بل إدوار كاردلج الشيوعى .

وظلّ عجبى ، أنا المغفل ، لا ينقضى حتى تمّ لى أعجب اكتشاف — عن تيتو نفسه : فتيتو يحمل لقب رئيس الوزراء ووزير الدفاع ولقب المارشال ، وهو أيضاً عضو فى مكتب السبعة التابع للحزب الشيوعى اليوغسلافى ، ويظنونه فى الخارج صاحب الأمر والنهى فى يوغسلافيا ، ولكنه فى الواقع لا يحكم ، بل هو « مظهر » وحسب .

ديمقراطية تيتو

لقد هالنى أن أرى تيتو يسكن القصر الأبيض الذى كان مقراً للأمير بول فيما سلف . وكان الشيوعيون قد وعدوا بأن يخصوا أطفال العمال والفلاحين بالقصور الملكية ، فالآن أرى تيتو يحتل أفخم هذه القصور جميعاً . وقد آلمنى أن أراه يدلنى على الصور القديمة البديعة المعلقة على حيطان القصر ، كأنها تشهد بذوقه الفنى الرفيع ، وكان يحاول أن يخفى فَعلته بابتسامة مشرقة .

وتيتو يستطيع أن يبتسم ، ويستطيع أن يمثل : يلبس بجورنج ، ويقلد حركات موسولينى ، ويحاول أن يتكلم كستالين ، وهو يبتسم تلك الابتسامة ، وهى ابتسامة ملؤها الثقة والقوة ، بل العنف أيضاً .

والشيوعية كالفاشية فى حاجة إلى رمز حىّ . فتيتو يستطيع أن يظل خمس ساعات

واقفاً على منصّة العرض يبتسم ويمر به ألوف العمال والموظفين، وتلاميذ المدارس يهتفون: «تيتو لنا ونحن لتيتو! فليعش تيتو! يعيش! يعيش!» إنها نزعة مادية جامعة ترفع واحداً من البشر إلى مرتبة التقديس المطلق.

وكلمات تيتو عندهم وَحْى يُوحَى، وإنها لكذلك. فكل كلمة ينطق بها تيتو في خطبه العامة يكتبها له عضوان آخران من المكتب السياسى التابع للحزب الشيوعى: يكتبها زوييفتش تسيرنى وزير المالية، وميلوڤان ديلاس من أهالى الجبل الأسود وصديق ستالين.

والشيوعية هى حكم طبقة الموظفين. وعقل الطبقة الحاكمة اليوغسلافية بل عقل يوغسلافيا نفسها، هو إدوارد كاردلج. وهو سلوڤينى قصير، بدين، أنيق، عليه سيمياء العلماء. وكان يزاول التدريس. وهو من علماء المنطق والجدل، درس منطق الشيوعية فى موسكو، وهو الآن يتقلد منصب نائب رئيس الوزراء، والرئيس الأعلى لرؤساء المستخدمين فى جميع مصالح الحكومة. وثمانية وعشرين من هؤلاء الرؤساء يجتمعون به كل أسبوع للبحث فى موقف موظفى الحكومة من الناحيتين الشخصية والسياسية، حيال نظريات الحزب الشيوعى وخططه. وقد مثل كاردلج يوغسلافيا فى الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة وفى مؤتمر الصلح بباريس، وبواسطته يسيطر صوت موسكو فى هيئة الأمم المتحدة على صوت بلغراد.

تُسمَّى قوة البوليس السرى السياسى اليوغسلافى «أوزنا»، ومعناها مصلحة الدفاع عن الشعب. وقد نظمها روس توفروا على التجسس و«التصفية»، ورئيسها الفريق ألكسندر رانكوفتش، وفى وسعه أن يقبض بلا أمر من النيابة على كل مواطن يعد «عدواً للشعب»، وأن يعدمه بلا محاكمة.

وهيئة «أوزنا» مؤلفة من أقسام: قسم لمراقبة المدنيين، وآخر لمراقبة الجيش، وثالث لمراقبة اليوغسلافيين الذين يقيمون فى الخارج، ورابع لمراقبة الأجانب المقيمين فى يوغسلافيا، وآخرها قسم خاصّ لمراقبة الحكومة نفسها – أى لمراقبة جميع موظفى الحكومة، ومنهم الشيوعيون. والحزب الشيوعى نفسه يتولى التجسس على نفسه، فهو كالبصلة مؤلف من طبقات. وعليك أن تنزع عنه طبقاته طبقة طبقة قبل أن تصل إلى قلبه الذى قوامه شبكة من الجواسيس.

وتستخدم أوزنا ١٠٠,٠٠٠ جاسوس لمراقبة قطر تعداده أربعة عشر مليوناً.

ولأوزنا أن تنتفع بخدمة الحرس المختار الذي يشبه هيئة حرس هتلر الخاص، وهي تضم ١٥٠٫٠٠٠ عضو يرتدون اللباس العسكري، فهي خير قوة عسكرية في البلاد، ولها من المأكل والملبس والسلاح أحسنه.

ولم تجر في يوغسلافيا في العام الماضي انتخابات حرة، وإن كان تشرشل وستالين وروزفلت قد تعهدوا عن دولهم في مؤتمر يالتا بأن تجرى انتخابات حرة في جميع البلدان الأوربية التي تحررت من الألمان.

فقبل أن تجرى الانتخابات أصدرت محاكم « قضائية » استبدادية، تسمى محاكم الشعب، أحكاماً معجلة على ألوف من الذين يعدّون « أعداء الشعب »، فحرموا حق الانتخاب لا لشيء سوى أنهم غير شيوعيين. وقد نقص زعماء العناصر الديمقراطية الصحيحة في يوغسلافيا نقصاً مطرداً بإلقاء القبض عليهم، ثم يعتقلون أو يختفون، وذلك أشد هولا من الاعتقال.

أسئلة وأجوبة

وقد قبض على أوغست كوزوتتش وكيل حزب الفلاحين الكرواتي واختفى عن الأنظار، فطلب سوبازيتش وزير الخارجية والممثل الأول لحزب الفلاحين الكرواتي في الجبهة الشعبية، أن يؤذن له بزيارة كوزوتتش فرفض طلبه. وشهد الدكتور بازيزا سموليان اجتماعاً لحزب الفلاحين وجه فيه اللوم إلى سوبازيتش لعجزه عن إطلاق سراح كوزوتتش، فلم يكد هذا الاجتماع ينتهي حتى ألقى القبض على سموليان نفسه، وهو من كبار الأعضاء، كما ألقى القبض على غيره من مندوبي حزب الفلاحين الكرواتي.

فلما أصبح من المستطاع استئصال زعماء الأحزاب السياسية المهمة على هذا النحو، صار من أيسر الأمور استئصال أوساط الفلاحين جماعات جماعات. وقد يعقد موظفون من الشيوعيين اجتماعات سابقة للانتخابات في قرى كرواتيا الصغيرة، فيتكلم فلاح متهوّر فيقول:

« ياحضرة القومسير، هل تأذن لي بسؤال؟ »

« بلا ريب ».

« ألا ترميني في السجن؟ ».

« كلا. فقد حُرّرت، وأنت الآن حر ».

« حسن إذن. فأين رئيس حزبنا الدكتور ماتشيك؟ فإنا لنحب أن نسترشد برأيه ».

« إن ماتشيك رجل رجعي، فاشي، خائن. وهو الآن غير مقيم في هذه البلاد ».

وماتشيك رئيس أصدق حركة ديمقراطية في كرواتيا، فرّ إلى باريس حيث فرض

عليه النفي فرضاً . وقد سأل عنه مئات من الفلاحين فلم يلبثوا أن افتقدتهم قراهم .

ويضاف إلى غير الشيوعيين ممن سجنوا أو فقدوا ، أولئك الذين قتلوا قتلا . فقد روى المونسنيور ألوس ستيبينتس ، كبير أساقفة زغرب وأكبر الكاثوليك مقاماً فى يوغسلافيا، أن ١٦٩ من قساوسته سجنوا، و٨٩ فقدوا ، و٢٤٣ قتلهم أشياع تيتو .

وكان فى زغرب طبيب مشهور يشتغل أيضاً بالطب النفسى يدعى الدكتور غويرو ڤرانيستش ، وكان وطنياً كرواتياً ولكنه أبى أن يتعاون مع هيئة «أوستاشى» الفاشية الكرواتية المسلحة، بل لقد أنقذ كثيرين من الكروات والصرب وغيرهم من القتل بأيدى تلك الهيئة . وكان ممن أنقذهم ميروسلاف كارليزا أعظم شارح كرواتى لفلسفة كارل ماركس . فما عاد الدكتور ڤرانيستش إلى زغرب حتى قبض عليه أشياع تيتو وحاكموه ثلاث مرات، وحكموا عليه فى المرة الثالثة ، فاستأنف كارليزا الكاتب الماركسى الحكم إلى تيتو تلميذ كارل ماركس، بالنيابة عن الدكتور ڤرانيستش .

بيد أن تيتو لم يستطع مع أشياعه شيئاً ، ولم يكن ڤرانيستش فاشياً ، ولكنه لم يكن شيوعياً ، فأعدم .

وفى زغرب وما يجاورها ألقى أشياع تيتو القبض على ٧٠٠٠٠ من الأهالى، كان أكثرهم قد عاون أشياع تيتو معاونة صادقة . وجندت جنود تيتو شباب شومادیجا ، أشهر الأقاليم الصربية تاريخاً ، وقذفوا بهؤلاء الفتيان ، وهم عزل أو يكادون ، وراء الدانوب فى وجه الجيش الألمانى الذى لم يكن قد تشتت بعد ، فسقط منهم ستون ألفاً أمام الدبابات الألمانية . فبدأت أفهم لماذا قيل : « إنهم رجال كتب عليهم الموت » .

وفى بعض نواحى أقاليم يوغسلافيا الغربية ، عمد بعض معاونى ميخائيلوفتش إلى مساومة الإيطاليين ليظفروا منهم بعتاد عسكرى انتفعوا به فى محاربة أشياع تيتو ، لكن ميخائيلوفتش كان فى صربيا الأصلية رمز الضمير القومى فى الشعب الصربى . وهذا يفسر لماذا أحس تيتو أن لابد له من أن يلوث سمعته بمحاكمته فى بلغراد .

وقد رحلت رحلة فى الريف قطعت فيها ٣٠٠ ميل ، فلم أر بشراً حياً ، بل أطيافاً من الرجال والنساء يجاهدون فى حراثة الأرض بجلد عجيب . وسألتنى سيدة عجوز فى سبليت مسقط رأسى : « لماذا جئت إلى هذه الأرض التى لا يسعد فيها سوى الأموات ؟ »

كان البؤس مخيماً على القرى والريف بتمامه ، وقد قال لى فلاح : « لقد أتى

الشيوعيون وحررونا ، وأخذوا مناستين فتى لم نرهم منذ ذلك الحين قط . وقد كان من عادتنا الرقص ، فلم يعد بيننا من يرقص . إننا نلبس جميعاً ملابس الحداد ، نعمل ونجلس فى بيوتنا . وهذه هى الحرية التى جلبوها إلينا » .

يعترف الشيوعيون أنفسهم بأنهم منذ « التحرير » تخلصوا من ٥٠٠ ألف يوغسلافى بالاعتقال أو الغَيْبة أو الموت . وأرى جلياً أن غرضهم إنما هو « تصفية » الطبقة اليوغسلافية الوسطى على بكرة أبيها من زراع وتجار وأصحاب صناعات من غير الشيوعيين ، « ولن تلبث حتى ترى الرجال الجدد قد حلوا محلهم »

وقد جرت الانتخابات فى نوفمبر الماضى وسط هذا الفزع ، فلم يكن فيها سوى قائمة واحدة من المرشحين كلهم من الجبهة الشعبية ، وكلهم ممن اختارهم الحزب الشيوعى أو أقر ترشيحهم . وكان من الضرورى للتصويت ضد مرشح أن تصوت ضد قائمة المرشحين كلها . وقد فاز الذين وافقوا على هذه القائمة فوزاً مبيناً بعد أشهر من تطهير المعارضين وإرهابهم .

لقد أثرت هذه الانتخابات فى بعض « المغفلين النافعين » فى العالم الديمقراطى ، ويستطيع هؤلاء أن يلموا بحقيقتها من الجنرال رانكوفتش ، فقد خطب الجمعية الوطنية اليوغسلافية المنتخبة فى ٢٤ مارس من هذا العام فقال : « إن أولئك الذين يعارضون سياسة النظام الحاضر ، لا يمكن أن يتولوا السلطة عن طريق الانتخابات الحرة ، ولا يمكن أن يشتركوا فى الحكم ، بل لا يمكن أن تقوم لهم قائمة ، أو أن يكونوا معارضة يؤذن لها بالمعارضة »

عالمان

قال لى كاردلج حين بدأت عملى بوزارة الاستعلامات : « إن بيننا وبين أمريكا هوة لاسبيل إلى اجتيازها ، فنحن عالمان لا يمكن أن يتحدا ، ومعنا نحن قوة الجماهير . فحين ننتصر على العالم الأمريكى يصبح العالم عالماً واحداً » .

ثم اطلعت بعد ذلك على التعليمات السرية التى أصدرها كاردلج إلى زعماء الحزب الشيوعى اليوغسلافى . وقد قال فى هذه التعليمات :

« لقد تساهلنا مع عالم الرأسماليين فى بعض الأمور لنكسب الوقت ، لكن حين تدق الساعة يجب أن نكون متأهبين للتحول إلى الهجوم . إن ثورة الطبقات العاملة ماضية فى طريقها ، وهى متصلة بالاتحاد

السوفيتي باتفاقات تنص على المساعدة المتبادلة في السياسة والاقتصاد . وهي كما قال ستالين تؤلف بين الجهات الكثيرة التي تختمر فيها الثورة : في بولنـــدة ورومانيا وبلغاريا وإيطاليا ، وتجمعها في نظام واحد، وسيهجم هـذا النظام الثوري على النظام الرأسمالي ويلقاه وجهاً لوجه » .

وأنت تراهم يعربون اليـوم عن هذا الشعور إعراباً صريحاً في خطب علنية عامة، فقد وقف القائمقام برانكو بيروفتش ، القومسير السياسي الشيوعي للفرقة الرابعة من الحرس المختار ، وخطب جنوده في ١٧ فبراير من هذه السنة فقال :

« إن البريطانيين والأمريكيين هم رأس الرجعية الدولية المنافقة ، وهم يهددون سلام العالم ، فلا يسعنا أن نعتمد إلا على اتحاد السوفيت وحده ، فهو الدولة الوحيدة التي تسودها المثل الديمقراطية العليا . وقد كنا إلى اليوم مضطرين أن نقول : مع إنجلترا والولايات المتحدة من أجل صون السلام ، أما الآن فنستطيـع أن نقول للنـاس : حاربوا إنجلترا والولايات المتحـدة وسائر القوى الرأسمالية في العالم » .

فغرض الشـيوعيين في يوغسلافيا هو أن يلقوا بها في أتون الحرب الأهلية ، ثم في حرب دوليـة بين الطبقات تكون حرب إبادة . وهذا غرض لا يمكن أن يقره زعماء الأحزاب الديمقراطية المخلصـة في حكومة الجبهة الشـعبية اليوغسلافية ، فأخذوا يتسللون منها واحداً بعد الآخر .

لقد أعلن ميلان جرول ، نائب رئيس مجلس الوزراء وزعيم الحزب الديمقراطي الصربي في العام الماضي ، أن الغرض من التحرير لم يكن توطيد الشيوعية بل التوسع في إفهام الناس معنى الديمقراطية ، فكان ذلك سبباً للحملة عليه واتهامه بأنه صنيعة الرجعية ، فرد على ذلك بقوله إن الشيوعيين هم الذين يؤلفون بين الديمقراطيين والرجعيين باستبدادهم وبطشهم . وقد ناشد الشيوعيين أن يحلوا الحرية السياسية محل البطش ، فذهبت مناشدته عبثاً ، فاستقال في شهر أغسطس من العام الماضي ، واعتزل في بيته في بلغراد ، ووقف بباب داره رجل من رجال تيتو مسلحاً ببندقية سريعة .

ورأى وزير الخارجية سوبازيتش كيف بلغ فساد الديمقراطية في يوغسلافيا ، فقرر أن يشاور الدكتور فلاتكو ماتشيك زعيم حزب الفلاحين الكرواتي الذي هو حزبه ، وكان الدكتور في منفاه في باريس . وذهب سوبازيتش لمقابلة تيتو ، فقال له تيتو إنه لا يجد مانعاً يمنعه من السفر ، ولكن يجب عليه أولا أن يخاطب في ذلك كاردلج

رئيس المستخدمين . وفى اليوم التالى أخبر كاردلج سوبازيتش أنه كلف أن يطلب إلى السفارة البريطانية إعداد طائرة لتقله إلى باريس ، وكان الجو رديئاً فى الأيام الثلاثة التالية .

وأصيب سوبازيتش فى تلك الأثناء ببرد ، فطلبته السفارة السوفيتية بالتلفون وأبدت له عظيم قلقها على صحته ، وأنها ستبعث إليه بطبيب روسى ممتاز هو الأستاذ ف . أوجنييف .

ووصل الأستاذ ومعه طبيبان يوغسلافيان ، فحصوا سوبازيتش وأعلنوا رأيهم : وهو أن سوبازيتش مصاب بنزف فى المخ ، فيجب أن يلازم فراشه ويستريح راحة تامة ، ولايقابل زواراً . وما هو إلا أن أحاط بالبيت أربعون رجلا مسلحاً من حرس تيتو الخاص ، فظن سوبازيتش أن تيتو آت لزيارته . بيد أن تيتو لم يحضر ، ولا انصرف الحرس المسلح .

وسمع السفير البريطانى بهذا الحصار ، فجاء يعود سوبازيتش فحال الحرس بينه وبين دخول البيت . وكان سوبازيتش إذ ذاك أسير حكومة هو وزير خارجيتها ، فلم يستطع شيئاً حتى أن يرى سفير الحكومة البريطانية التى اضطرته إلى عقد اتفاق تيتو — سوبازيتش ، وحملته على تقلد منصب وزير الخارجية . وأحست حكومة الجبهة الشعبية اليوغسلافية بأنها صارت قادرة على أن تتحدى بريطانيا ، وأن تنبذ سوبازيتش فكلاهما كان غراً سليم الطوية .

واستقال سوبازيتش عندئذ ، وحذا حذوه الدكتور ج . شوتى صديقه السياسى ، وأذن لسوبازيتش بأن يقيم فى زغرب ، رجلاً من عامة الناس لايشتغل بالسياسة ، تراقبه الأوزنا مراقبة دقيقة .

« إنك لاتؤمن بالمثل الأعلى »

أما أنا فقد أخذ القلق يساورنى ، بعد أن تبين لى كيف ينتفع بى الشيوعيون : وقد كان لى من يقرأنى بين جمهور القراء اليوغسلافيين ، فإذا كتبت مقالا فى مجلة يوغسلافية أعطيت إلى صغار المتعلمين الذين اعتقلهم الشيوعيون ليقرأوها ، وقال لهم القومسير الشيوعى الموكل بالمعتقل :

« انظروا ! ها هو ذا رادتسا الذى ليس شيوعياً ، موظف فى الحكومة ، ومن معتنقى ديمقراطية تيتو . فلماذا لا تعتنقونها أنتم أيضاً ؟ »

وقد ألحق شابان شيوعيان بإدارتى فتوليا شئون المراسلين الأجانب فى بلغراد ، مؤيدين من نيدلكوفتش رئيس المستخدمين فى وزارة الاستعلامات . وقد كان المقرر

أن أكون أنا رئيساً لقسم الصحافة الأجنبية، لكنه كان مقرراً أيضاً أن لا أتصل بالصحافة الأجنبية .

لقد خيل إليّ أن يوغسلافيا بأسرها قد جُنّت بما أصاب الشيوعيين من مسّ وما يتملكهم من حنق . فقد اختير شبان من الشيوعيين في دلماسيا لكي تتمّ عليهم شيوعيتهم بأن يرموا السجناء الفاشيين بالرصاص، وكان هؤلاء السجناء من أترابهم ورفاقهم . وفي الجبل الأسود حين قبض على بعض أنصار ميخائيلوفتش دُرّب أولادهم الذين كانوا من أشياع تيتو على صدق العزيمة الشيوعية ، ثم امتحنوا بتكليفهم بإطلاق الرصاص على آبائهم .

وقد أدركت أن أي يد أستطيع أن أسديها لبلادي ، لا يمكنني أن أسديها داخل حدودها . ولم يكن في وسعي أن أخفي شقائي ورعبي ، فاتهمت بأني صنيعة الأمريكيين ، وجعل جواسيس الأوزنا يتعقبونني .

وقد قررت أن أستقيل وأهاجر، ولكن جاءني موظف وقال لي : « إن كاردلج يمنعك من مغادرة البلاد » .

فاقترحت عندئذ أن أستقيل على أن أبقى في البلاد في إقليم دلماسيا الذي هو موطني . وتحدثت في ذلك مع فيلكو كوراخ الرئيس الحقيقي لوزارة الاستعلامات فقال :

« إذا لم يرقك عملك هذا فالتحق بفرقة عمال نعيد بناء قرية مدمرة ، أو التحق بالجيش . أما أن تستقيل فشيء لا تملكه ، وليس لمخلوق في هذه البلاد أن يستقيل بغير إذن » .

فقلت لنفسي : إذن لا بد من الهرب . ولا بد من الاهتداء إلى شخص ينيلني جوازاً دون أن يشعر أحد .

وكنت أعرف أن هذا الشخص لن يكون كوراخ ، فكوراخ كان يريد أن يستبقيني في يوغسلافيا ، وكان يحثني على على الالتحاق بالحزب الشيوعي فقلت له :

« لا أستطيع ، فالحزب يتطلب شخصاً يكفر بالإنسانية — بل بالأسرة وبالله » .

فامتقع لون كوراخ ، وبدا منه الجفاء ، وصار لا يناديني بالرفيق رادتسا بل بالسيد رادتسا .

قال : « يا سيد رادتسا ، إنك رجل لا تؤمن بالمثل الأعلى » .

قلت : « بلى إني لأومن بالمثل الأعلى ، إني أومن بالجماعة الإنسانية » .

قال : « يا سيد رادتسا ، إنك لا تؤمن بمثل أعلى ، إنك لا تستطيع أن تقتل أحداً في سبيل مثل أعلى » . .

قلت : « كلا لا أستطيع . لقد رأيت

فاشيين يقتلون، ورأيتكم أنتم أيها الشيوعيون تقتلون . ورأيت من البغض ما كفانى ، والذى تحتاج إليه بلادنا الآن هو الحب » .

فنظر إلى كوراخ نظرة جامدة وقال :

« هذا يا سيد رادتسا ما يراه أهل الطبقة الوسطى (بورجوازى) وما يفهمه الرأسماليون » .

وعجلت أبحث عن جواز ، وكنت قادراً على أن أقول صدقاً إنه لا بد لى من أن أذهب إلى إيطاليا لتسوية بعض شئون أسرتى الملحة . فتقدمت إلى موظف شيوعى وكان من المثقفين ومن ذوى الشعور الرقيق ، ويخطىء من يظن أنك لا تجد أمثال هؤلاء بين الشيوعيين ، فإن بينهم من هذه صفته . وقد أنالنى هذا الرجل جوازاً يخولنى السفر فى طائرة بريطانية إلى ميناء بارى الإيطالى .

وإذا ما كررتُ البصر إلى ما سلف من تجاربى ، بدت لى بعض الحقائق جلية لا ريب فيها .

الأولى : أن المشروع الروسى البعيد المدى فيما يتعلق بيوغسلافيا هو توحيد شعوبها الستة مع بلغاريا وألبانيا فى اتحاد بلقانى يُضَمُّ إلى اتحاد السوفييت فيكون جمهورية من جمهورياته ، ويومئذ يمتدُّ الاتحاد السوفيتى من البحر الأسود إلى البحر الأدرياتيكى ، وعن طريق ألبانيا إلى البحر الأبيض المتوسط . ولم يسبق أن بلغت روسيا ، ولا فى عهد القياصرة ، مبلغاً من القوة يدفعها إلى التفكير فى مثل هذا التوسع العظيم نحو الغرب .

الثانيـة : أن من العقبات التى تعترض هـذا المشروع هو ما طرأ من بغض يوغسـلافيا الفجائى للروس . فقد ظل اليوغسلافيون مئات السنين منذ الحكم التركى يتطلعون إلى روسيا ويعدونها منقذة لهم ، فما هو إلا شهران من الاحتـلال الروسى حتى تبدَّد هذا الحلم . وليس هؤلاء الروسيون الشيوعيون شعباً متفوقاً ، فهم دون الشعب اليوغسلافى تعلماً وثقافة ، وأحط منه فى مستوى المعيشة . وهم لم يأتوا إلى يوغسلافيا بجديد ، سوى ما درَّبهم عليه الشيوعيون من القوة الغاشمة والقسوة المنظمة .

الثالثة : أن الشيوعيين اليوغسلافيين الذين صاروا العنصر الحاكم بفضل الجنود الروس قليلون شيئاً ما ، ولو جرت انتخابات حرة حقاً لما بلغوا عشرة فى المئة من مجموع الأصوات . وكثير من اليوغسلافيين يتبينون الآن بجـلاء ما بين الشيوعيـة والفاشـية الألمانية من آصرة . ويتندَّر المتندِّرون إذا خلوا إلى أنفسهم فى بلغراد فيطلقون على تيتو تتلر على وزن هتلر .

الرابعة : أن أكبر مصدر لمقاومة نظام تيتو فى يوغسلافيا هو الدين ، ومن ثم كانت الحرب التى تشنها حكومته على الكنيسة .

كنت ذات ليلة أحادث الدكتور ليوبو ليونتش فى بلغراد ، وقد كان فى طليعة الفاشيين فى يوغسلافيا، ولكن الشيوعيين لا يرونها جريمة أن كنت يوما ما فاشياً ، على شريطة أن تحالفهم بعد ذلك . وقد انضم إليهم الدكتور ليونتش ، وهو الآن سفير يوغسلافيا فى لندن . وقد كنا نتحادث عن المونسنيور أنتى بونيفاشيش كبير أساقفة سبليت . وكان بونيفاشيش قد ندد فى رسائله إلى رعيته أثناء الحرب بهيئة الأوستاشى الفاشية وبهيئة المتشيعين للشيوعية ، لما ارتكبوا من مذابح فى دلماسيا . وكان هو نفسه قد أنقذ الكثيرين من أشياع تيتو من بطش العصابات الفاشية الدلماسية والإيطالية، ثم قبضت عليه الأوزنا أخيراً .

فقال لى الدكتور ليونتش : « لا مفرّ من إعدامه » .

قلت : « لماذا ؟ وماذا جنى ؟ »

قال : « ليس ما فعلهُ بالشىء المهم ، ولكن لا بد من إعدامه لكى تظهر الحكومة اليوغسلافية الجديدة أنها لاتخشى الكنيسة » .

والواقع أن اليوغسلافيين ينتمون إما إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وإما إلى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية . والدين فى الشرق الصربى أو الغرب الكرواتى والسلوفينى ، هو أصلب ما يقف فى وجه السيطرة الشيوعية .

المغفلون النافعون

ليس لى ولا لأى يوغوسلافى آخر أن ينصح للديمقراطيات الغربية بما ينبغى أن تكون عليه سياساتهم الدولية، ومع ذلك فإنى أحب أن أشير إلى العبرة الأولى التى يستطيع جميع المؤمنين بالديمقراطية أن يستخرجوها مما يحدث فى يوغسلافيا .

وهذه العبرة هى التفطن إلى الأذى الناجم من اللغة التى يستخدمها الشيوعيون وصنائعهم فى كل مكان ، يريدون بها الخديعة حين يسعون إلى استدراج مواطنيهم إلى معاونتهم اقتصادياً وسياسياً . فمأساة يوغوسلافيا بحذافيرها يمكن تتبعها وإرجاع أصلها إلى هذه الخديعة .

لقد وعد الشيوعيون يوغسلافيا بأن ينشئوا اتحاداً يضم ستة شعوب متساوية الحقوق ، تتكون منها ست « جمهوريات » منفصلة تحكم نفسها بنفسها ، فأعطوا يوغسلافيا حكومة عاتية مركّزة فى بلغراد.

فحين قال الشيوعيون « اتحاد » كانوا يعنون حكومة مركزية مطلقة .

ووعد الشيوعيون يوغسلافيا بالحرية السياسية لجميع الأحزاب المعادية للفاشية ، فأوجدوا في يوغسلافيا حرية سياسية للحزب الشيوعي وحده . والحرية السياسية التي ينالها الشيوعيون معناها تسلطهم السياسي التام .

ووعد الشيوعيون يوغسلافيا بحرية الملكية الخاصة فجعلوا ٧٥ في المئة من الصناعة والتجارة ملكا للدولة ، تتولى هي إدارتها .

ووعد الشيوعيون يوغسلافيا بأنه لن يكون فيها طبقة حاكمة . واليوم يذهب أطيب المآكل وأحسن الملابس وخير الدور والمنازل للموظفين الشيوعيين الجدد ، بل إن ثمة جملة تطلق على الشعب في مجموعه تحقيراً له هي « سيفا ماسا » أي « الجماهير العاجزة » .

وقد وعد الشيوعيون يوغسلافيا بالسلم ، فأنشأوا فيها جيشاً مؤلفاً من ٥٠٠٠٠٠ ألف رجل ، وملأوا قلوب هذا الجيش بدعاية لا تنقطع ، ليعدوه لحروب دولية جديدة أفظع مما عهد حتى الآن ، وأشد نكالاً .

وأحب الألفاظ إلى الشيوعيين حين يريدون التغرير بالناس ليحملوهم على أن يعاونوهم معاونة مؤقتة ثم يغدرون بهم في النهاية ، هي ألفاظ « السلام » و « الديمقراطية » .

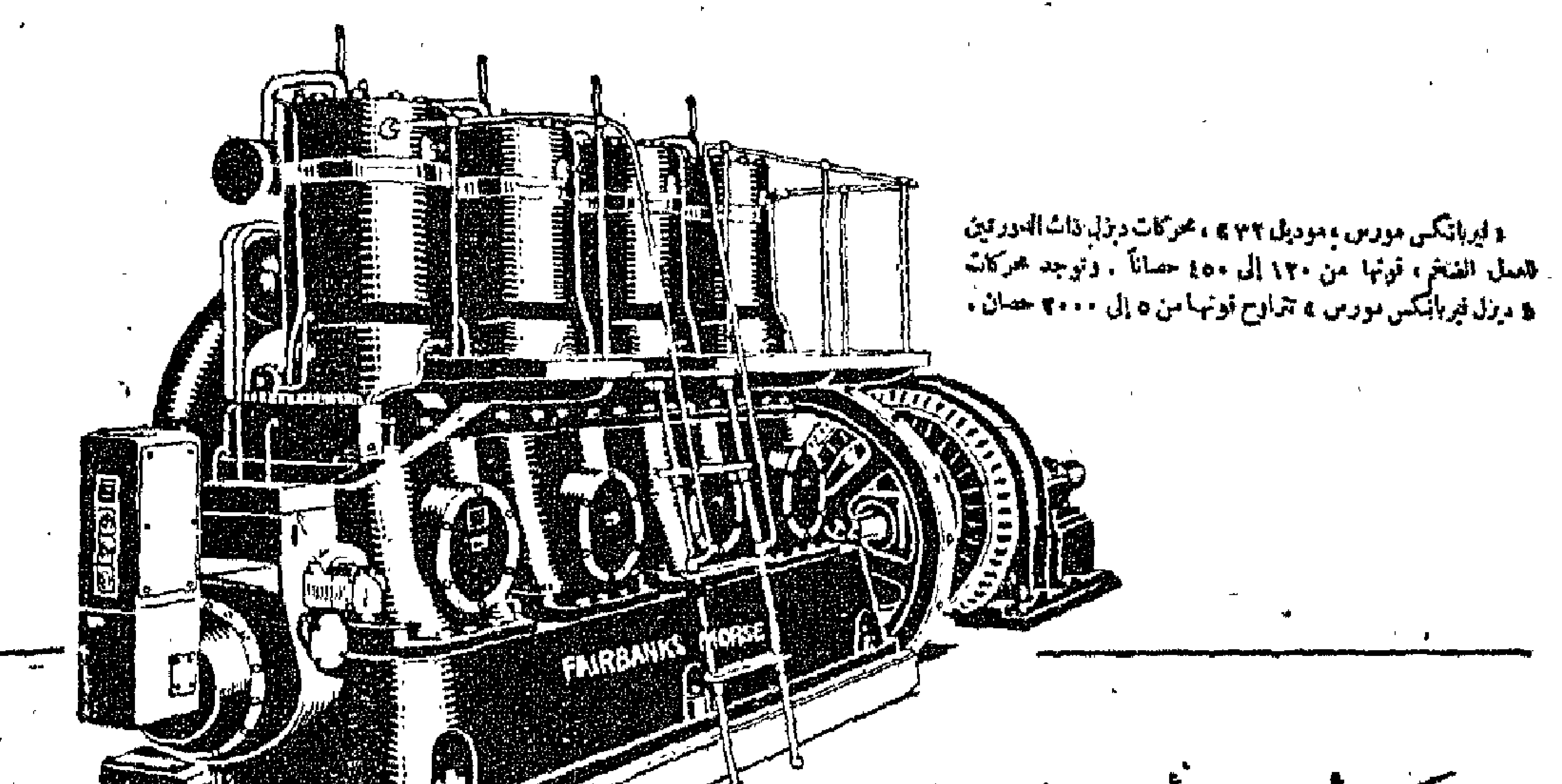
ويوغسلافيا هي الدليل القاطع على أن الشيوعيين حين يقولون : « ديمقراطية » يعنون تسلطاً جديداً ، وحين يقولون « سلام » يقصدون أن يزداد التذبيح في الأمم وبين الأمم .

إن لي في غرب أوربة وفي أمريكا أصدقاء أحبهم ، وهم يشاطرون العالم أمله في عزة الديمقراطية وبلوغها الكمال . وهم في هذا على حق ، لكني أحب أن أقول لهم :

« تبصروا لتعرفوا من الذين يشاركونكم في أداء هذه المهمة العظيمة . احذروا أولئك الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويبدلون معانيه . واحذروا أولئك الذين يكذبون في بيان معتقداتهم ليصلوا إلى أغراضهم . واحذروا أولئك الذين لا تختلف ألفاظهم عن ألفاظكم ، ولكن لا همّ لهم حيثما تولوا السلطة إلا دماركم . لا تكونوا « كورستني بودال » — لا تكونوا مغفلين نافعين » .

[ينحدر مؤلف هذا الكتاب ، الذي ظلّ سنين كثيرة من كبار رجال الحكومة اليوغسلافية ، من أسرة كرواتية عريقة . وقد تزوّج نينا فريرو كريمة جوليلمو فريرو المؤرخ الإيطالي الذائع الصيت ، وهو يشتغل الآن بالصحافة في نيويورك]

عطل أقل بفضل
هذا الديزل



« فيربانكس مورس » موديل ٣٢ » محركات ديزل ذات الدورتين للعمل الشاق ، قوتها من ١٢٠ إلى ٤٥٠ حصاناً . وتوجد محركات « ديزل فيربانكس مورس » تتراوح قوتها من ٥ إلى ٢٠٠٠ حصان .

كثير أن يقوم أى محرك بعمله خلال ثلاثين سنة متوالية بيد أن المحرك المبين هنا أدى هذا النوع من الخدمة وقام بهذا الضرب من العمل مرات عديدة ، فى أحوال عديدة ، ولمؤسسات عديدة . فسواء كنت تتأهب لمشروع بلدى ، أو صناعى ، أو زراعى يلزمه القوة المحركة فهيء لنفسك أقصى ضمان وأقل نفقة باستشارة وكيل « فيربانكس مورس » لتظفر بالمحركات التى تعطيك هذه الخدمة القياسية التى قام عليها البرهان!

شركة شمال شرق أفريقيا التجارية القاهرة ـ الاسكندرية

ف . ا . كتانه دمشق بيروت — طهران

ف . ا . كتانه وشركاه ليمتد بغداد

چوزيف ج . روزجولد ، تل أبيب (مضخات التربين ذات التشحيم المائى)

م . برجر ، تل أبيب (جميع المنتجات ما عدا مضخات التربين ذات التشحيم المائى)

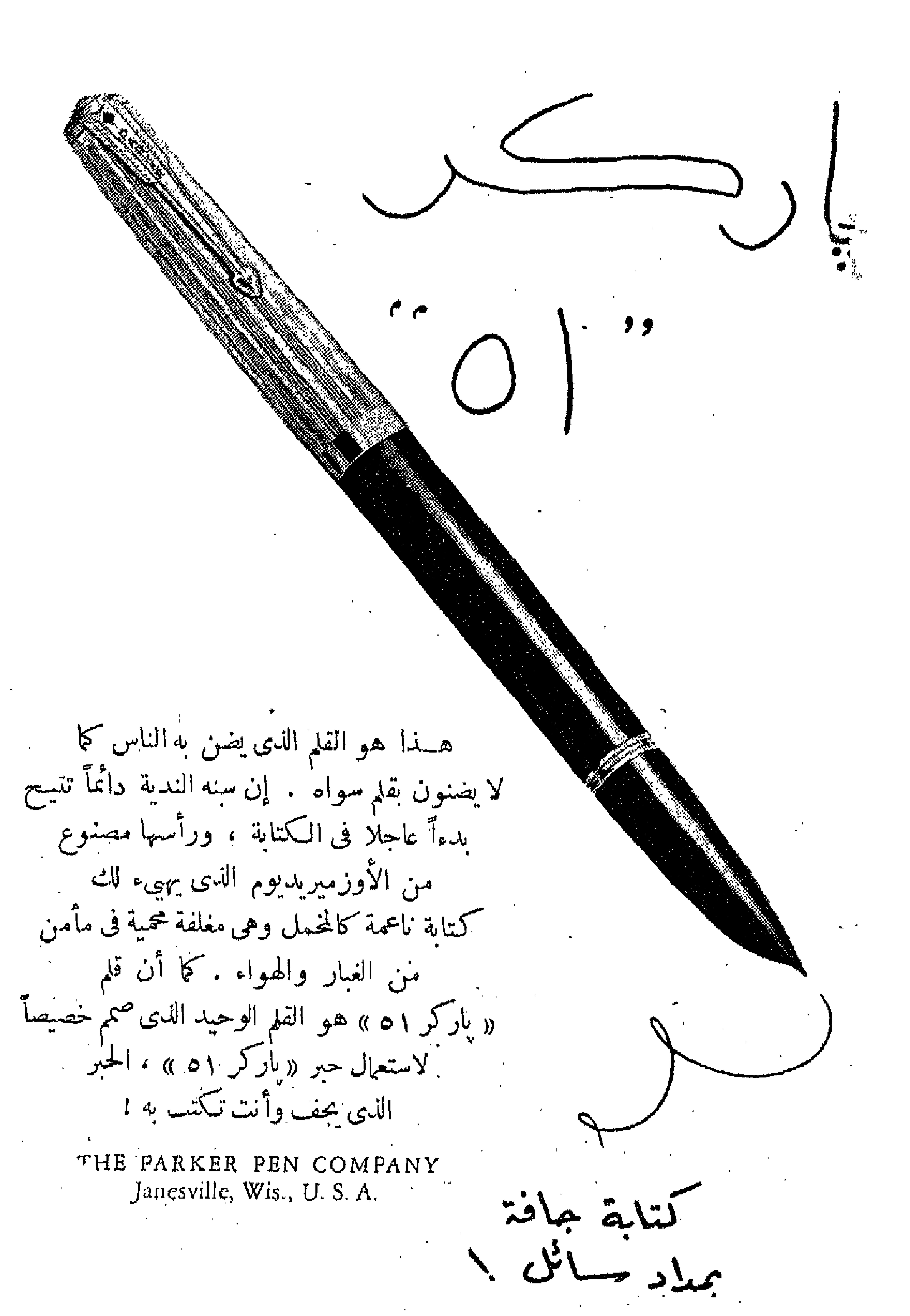
Fairbanks, Morse & Co., Inc.

تأسس سنة ١٨٣٠

إسم جدير بأن تتذكره

Export Division
80 Broad St. New York 4, U. S. A.

محركات ديزل . محركات كهربائية . مولدات . مضخات . أجهزة مائية . معدات المزارع . مطاحن هوائية . مقاييس . معدات السكك الحديدية .



پاركر
« ٥١ »
هـذا هو القلم الذى يضن به الناس كما
لا يضنون بقلم سواه . إن سنه الندية دائماً تتيح
بدءاً عاجلا فى الكتابة ، ورأسها مصنوع
من الأوزميريديوم الذى يهيىء لك
كتابة ناعمة كالمخمل وهى مغلفة محمية فى مأمن
من الغبار والهواء . كما أن قلم
« پاركر ٥١ » هو القلم الوحيد الذى صمم خصيصاً
لاستعمال حبر « پاركر ٥١ » ، الحبر
الذى يجف وأنت تكتب به !
THE PARKER PEN COMPANY
Janesville, Wis., U. S. A.
كتابة جافة
بمداد سائل !



إن منتجات شركة « وليامز » المشهورة فى جميع أرجاء العـــالم ، مصنوعة بمهارة خاصة تنتجها خبرة مئة عام فى صناعة أرق مستحضرات الزينة للرجال. وسيكون فى وسعك أن تنعم بأفخر مستحضرات الحلاقة حالما تعود العلاقات التجارية إلى سابق عهدها. وحينئذ ستجد منتجات « وليامز » فى أشهر محلات الشرق الأوسط. ويمكنك أن تثق من حصولك على أفضل حلاقة وأكثرها راحة حين تستعمل :

كريم وليامز الفاخر للحلاقة : يحتوى على مادة « لانولين » الملطفة التى تتيح لك حلاقة ناعمة دون أن يتهيج الجلد.

أكوا فلفا : أشهر لوسيون فى العالم للاستعمال بعد الحلاقة. مبرد ، منعش ، نقى ، ذكى الرائحة.

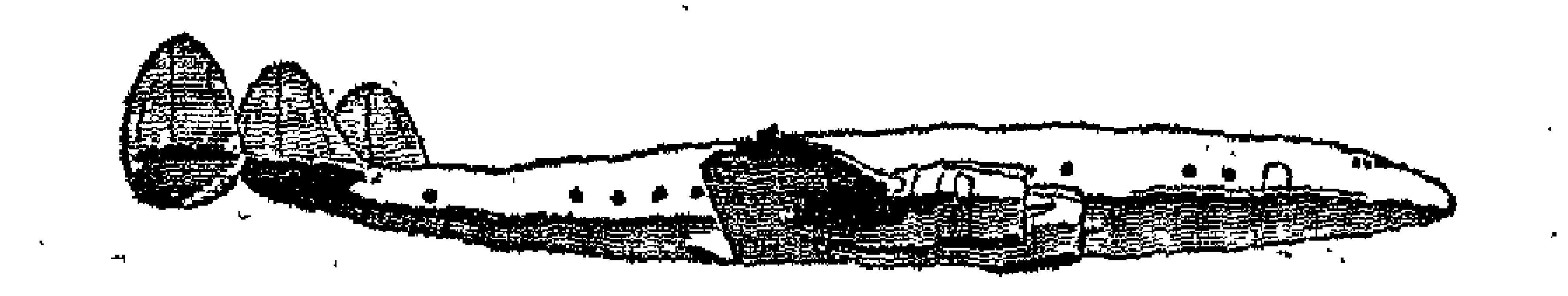
كريم جليدر وكريم إسكواير للحلاقة بدون فرشاة : خاليان من المواد الشحمية أو اللزجة ، مصنوعان خصيصاً بحيث يتيحان للذين يحلقون كل يوم ، حلاقة ناعمة دون أن يلتهب الجلد.

قلم صابون وليامز للحلاقة : مشهور برغوته السخية ، الندية ، اقتصادى للغاية يخدمك ستة أشهر يعطيك خلالها أنعم الحلاقات وأكثرها راحة.

The J. B. Williams Co., GLASTONBURY, CONN., U.S.A.

شركة ج . ب . وليامز ، جلاستونبرى ، كونيكتيكت ، الولايات المتحدة

منتجو مستحضرات الحلاقة الفاخرة منذ أكثر من ١٠٠ سنة




لماذا يفضل المسافرون على الخطوط
الجوية العالمية قلم إيفرشارب!
خزانه السحرى المشهور يمنع تسرب الحبر ورشحه فى طبقات الجو العليا — وكذلك الحال على اليابسة بالطبع ! إن الخزان السحرى يجعل الحبر ينساب انسياباً ناعماً على أى ارتفاع . . ومهما كانت حالة الطقس . وهذا يضع حداً لتلطخ الأصابع واتساخ القلم . . . كما أنه يكتب عدداً أكبر من الكلمات بين تعبئة وتعبئة !
أما ريشته السحرية فتكتب بنعومة يصح معها أن تطلق على «إيفرشارب» لقب القلم الصامت .
وهناك قرينه قلم الرصاص « إيفرشارب » وزن الريشة وهو يمتاز بزره السحرى ذى الطلقات . ويكفى ضغط بسيط بإبهامك على زره ليظهر الرصاص تماماً على طريقة المدفع الرشاش !
إيفرشارب
طراز "سكاى لاينز"
متاح فى مختلف الألوان
خدمة القلمين مضمونة ،
لا عدداً معيناً من السنين ،
ولا مدى الحياة وحسب ،
بل هو ضمان للأبد !

بنفقات زهيدة

إنك في حاجة إلى القوة الفائقة والأداء الباهر اللذين يقدمهما جرار "إنترنشونال"

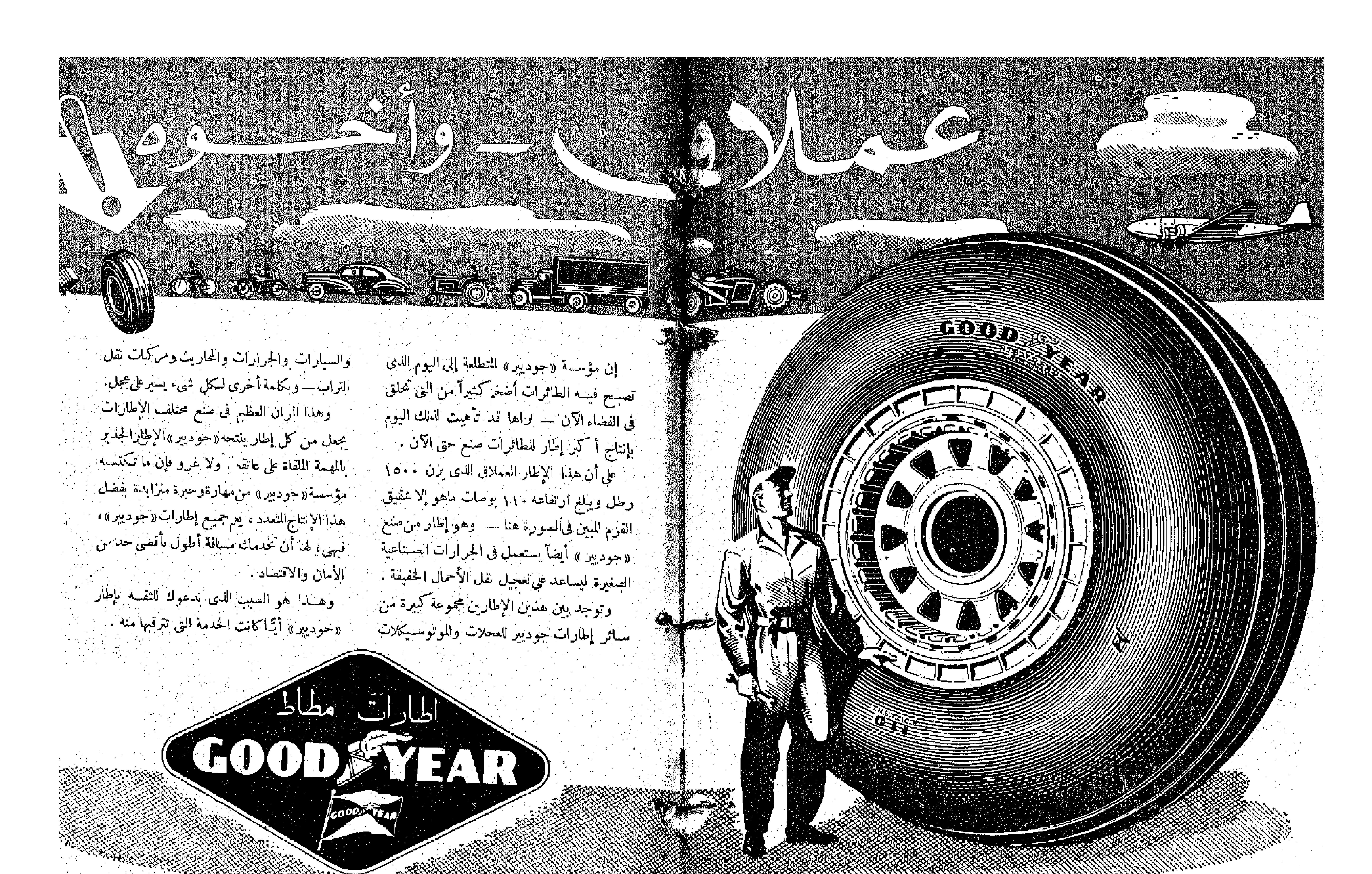
إن ثمة أعمالا ضخمة يجب أن تنجز — في تعبيد الطرق وبناء المطارات وإنجاز المقاولات العامة ومشروعات الري — والقاسم المشترك الأعظم في جميع هذه العمليات هو القوة الاقتصادية المضمونة التي تنجز العمل فعلا .

وجرارات «إنترنشونال كراولر» هي الجرارات المفضلة عند آلاف من العاملين والمقاولين الذين يتولون مثل هذه الأعمال . وفي الرسم ترى جرار «إنترنشونال ديزل» يسيّر مسلفة على عجل . وهذه واحدة فقط من آلاف العمليات العديدة التي تساهم فيها قوة «إنترنشونال كراولر» القليلة النفقة في عمليات نقل التراب . وتستطيع جرارات «إنترنشونال» نقل الصخور والحجارة والتراب في عربات تصل سعتها إلى ١٤ ياردة ، كما تجر سكاكين الحراثة الضخمة ، وتسوي المطبات ، وتعبد الطرق .

INTERNATIONAL HARVESTER EXPORT COMPANY
Harvester Building — Chicago 1, U.S.A.

INTERNATIONAL 

HARVESTER

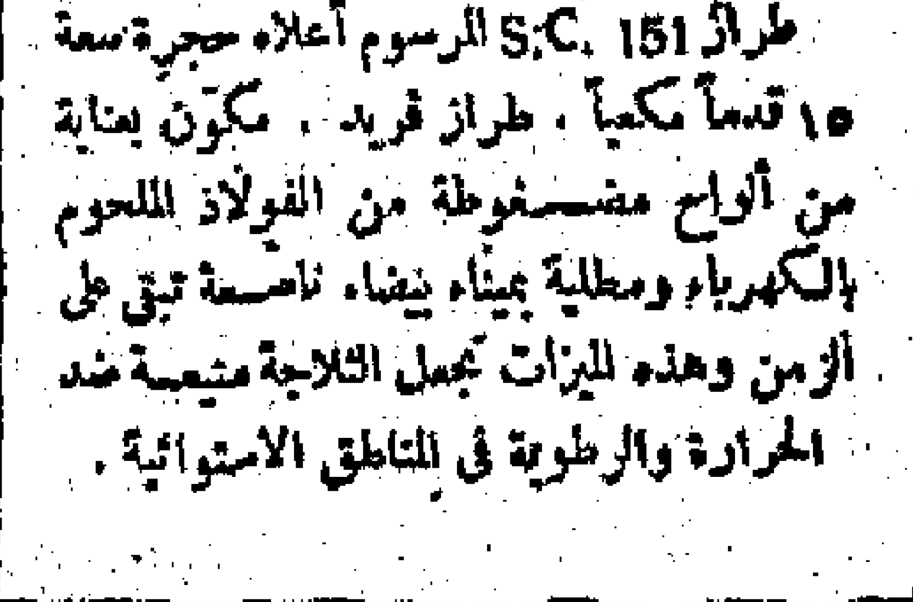


إن إطارات جوديير تنقل فى العالم كله من الناس ومن أطنان الشحن أكثر مما ينقله أى نوع آخر من الإطارات

صممت خصيصاً
واختبرت خصيصاً . . .



ثلاجات « برست كولد » "Tropic -Tested" مصنوعة فى إنجلترا ، ومختبرة فى جميع مراحل صناعتها اختباراً دقيقاً . وقد روعى فى تصميمها أن تقاوم جميع أحوال الإقليم ودرجات الحرارة . وهى تضم جميع التحسينات الحديثة وتؤدى خدمة كاملة بأقل مصروف وأعظم يسر فى صيانتها . أما تركيبها فهو البساطة بعينها .



طراز S.C. 151 المرسوم أعلاه حجرة سعة ١٥ قدماً مكعباً . طراز فريد . مكون بعناية من ألواح مضغوطة من الفولاذ الملحوم بالكهرباء ومطلية بميناء بيضاء ناصعة تبقى على الزمن وهذه الميزات تجعل الثلاجة منيعة ضد الحرارة والرطوبة فى المناطق الاستوائية .

PRESTCOLD
للتبريد



شركة E.A.S.T. ٣ شارع نمر بالقاهرة ، القطر المصرى . شركة إنجنيرنج آند مانيوفكتشرنج لمتد ص ب ٩١٩ تل أبيب ، فلسطين . أفريكان آند إسترن (للشرق الأدنى) لمتد ص ب ١٧٦ حلب ، سوريا . أفريكان آند إسترن (للشرق الأدنى) ص ب ١٧ بغداد ، العراق . كولاتلى هانكى وشركاه (السودان) لمتد ص ب ٢١٥ الخرطوم .

شركة پرسد ستيل ليمتد

THE PRESSED STEEL Co. Ltd., COWLEY, OXFORD, ENGLAND



فى القرن الأخير كانت سهول ريو دى لا بلاتا المترامية الأطراف ميداناً فسيحاً تعيش فيه ماشية مستوحشة ذات قرون ملتوية وصدور هزيلة ، وكانت جلود هذه الماشية هى الشىء الوحيد النافع فيها . أما اليوم فبفضل الأساليب الحديثة فى اختيار الماشية وتحسينها أمكن الحصول على سلالة ممتازة تعطى لحماً مغذياً طيب الرائحة — هو أحسن لحم فى العالم ! — فكل جزء فى الماشية ينتفع به على أحدث الطرق العصرية .

ومؤسسة «سويفت» التى يقترن اسمها اقتراناً وثيقاً بهذه الصناعة توزّع دواماً هذه اللحوم المشهورة فى أسواق العالم ، فى منتجات ذاع صيت جودتها فى أرجاء الأرض — حتى صار اسم «سويفت» قريناً للجودة والامتياز .

Swift

شركة سويفت الدولية

مصانع فى الأرجنتين واستراليا والبرازيل ، ونيوزيلندا وأوروجواى

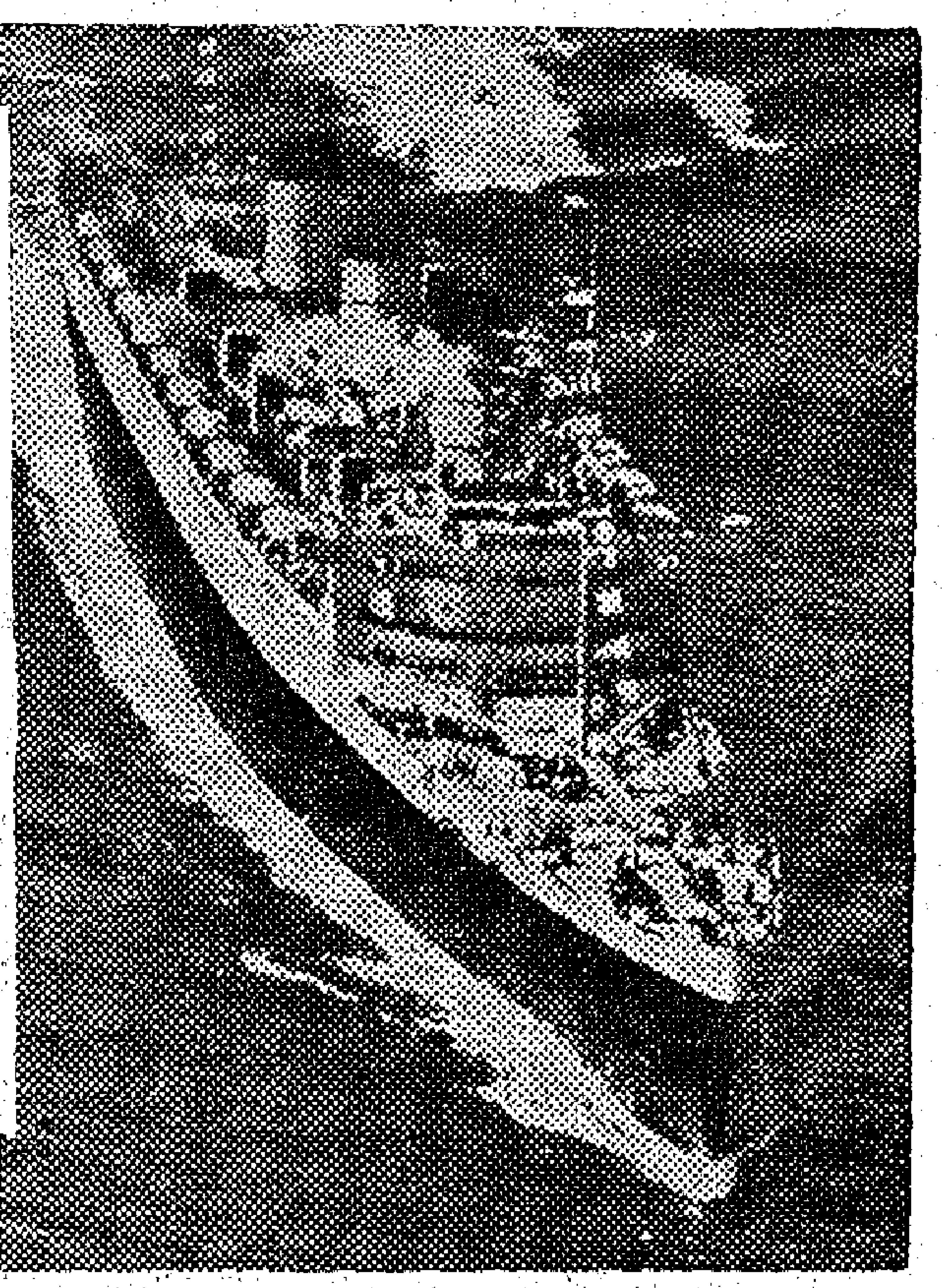
توزع منتجات ممتازة منذ أكثر من ٣٥ عاماً

INTERNATIONAL SWIFT COMPANY

Av. Corrientes 389, Buenos Aires, Rep. Argentina


شحنة من الفتنة
من مصانع « كاسونز »
بمانشستر (إنجلترا) خرجت
أحدث الروائع فى أنواع
«أحمر الشفاه» البريطانية فى
خمسة ألوان جديدة . وقد
روعى فى صنعها أن تكون
ممتازة فى مادتها ولونها ،
فهى تحتل اليوم مكان الصدارة
فى صالونات التجميل فى
جميع أنحاء العالم .
ussons أحمر شفاه
73 GROSVENOR ST. LONDON W. I. ENGLAN

إننا نقوم بتزييت أسرع سفن العالم



إن زيوت جارجويل البحرية
المعروفة، تتمتع بشهرة
واسعة في وقاية المحركات
من التلف وتخفيض نسبة
العطل وتكاليف الصيانة
والتشغيل. ويمكنكم الاعتماد
على هذه الزيوت البحرية
للحصول على رحلات أسرع
وأكثر أمناً عبر البحار.

وهذه الزيوت الفاخرة منتشرة في جميع أنحاء العالم وتستند الى
الأبحاث والتجارب التي قامت بها شركة سوكوني - ڤاكوم منذ ٨٠ عاماً
وجعلت من زيوت وشحومات جارجويل لها شهرة عالمية في انتاج أجود
الأصناف وتقديم أفضل الخدمات الفنية وأصدق المعاونة!


سوكوني - ڤاكوم





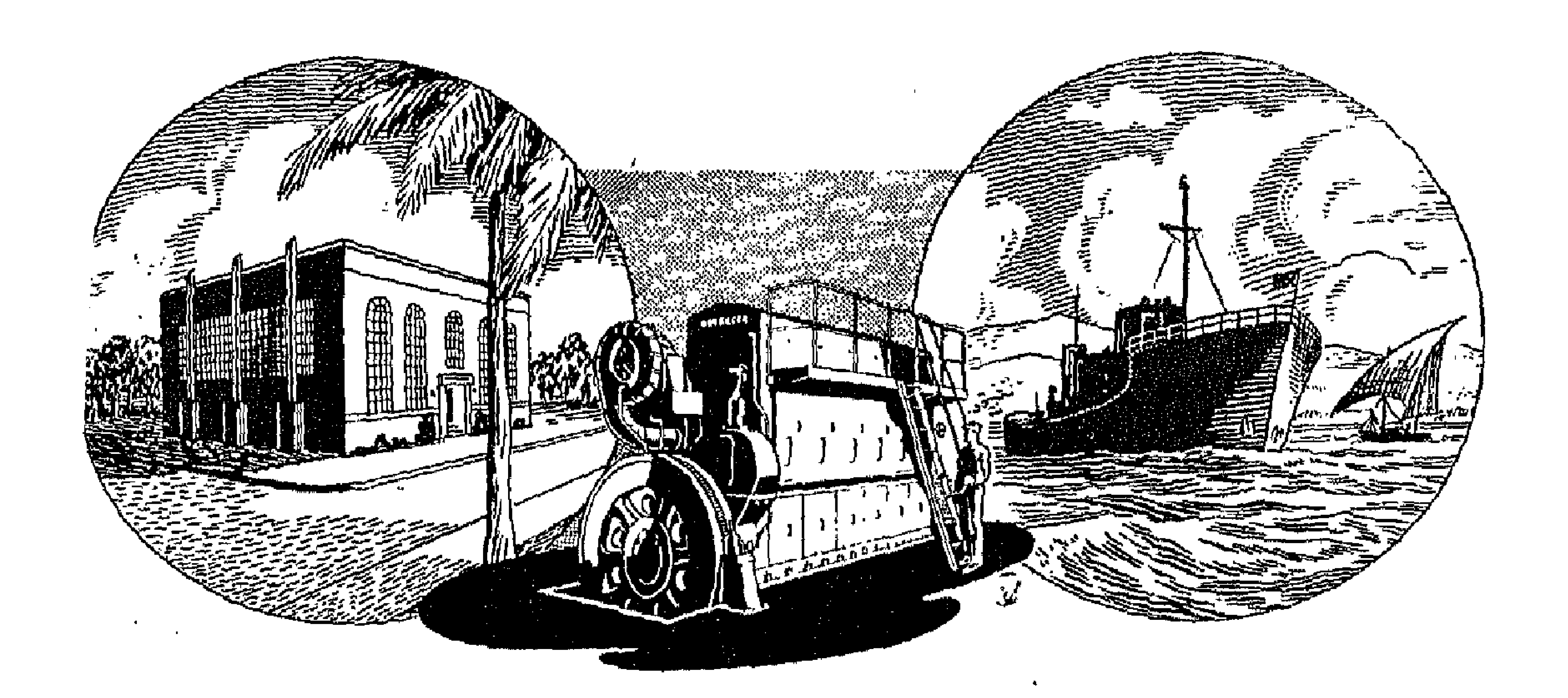
الأوتو لايت
AUTO-LITE
تخدم سيارتك
سواء أكنت فى حاجة إلى استبدال شمعة من شموع الاحتراق فى سيارتك وحسب
أم إلى ترميم الجهاز الكهربائى بأكمله ، فإنك تستطيع أن تثق من حصولك على الخدمة
المضمونة إذا اعتمدت على أوتوليت .
إن مؤسسة أوتوليت أكبر المصانع المستقلة فى العالم لإنتاج معدات السيارات
الكهربائية — شموع احتراق ، بطاريات ، أجهزة القيام والتوليد ، أسلاك — فلا عجب
أن تجد أن أوتوليت هو الاسم الذى تدعمه القدرة الفنية الصحيحة .
ابحث إذن عن إسم أوتوليت على جميع أجهزة القيام والإضاءة والإشعال.
THE ELECTRIC AUTO-LITE COMPANY
Export Division
Chrysler Building, New York 17, N.Y., U.S.A.
AUTO-LITE
جهزة للقيام
لإضاءة والإشعال



Kodak



هذه مرتبة عالية جديدة
في جودة الإطارات
إطار چنرال
شركة چنرال تير أند رابر اكسپورت
اكرون . اوهايو . الولايات المتحدة
تلغرافيا : جنتيروكو اكرون اوهايو
مصانع في الولايات المتحدة وكندا ومكسيكو . وفنزويلا وشيلي . والبرتغال
The General Tire & Rubber Co.
AKRON OHIO.
The
GENERAL
TIRE
يقطع مسافة طويلة ليكسب الاصدقاء



حل ما يواجهك من مشكلات الطاقة باستعمال قوة "نوردبرج" ديزل

سواء كنت فى حاجة إلى وحدة ثابتة للخدمة فى محطة صناعية أو مركزية من محطات توليد القوة أو كنت فى حاجة إلى قوة لدفع سفينة فى الماء فإن اختيارك محرك «نوردبرج ديزل» يضمن لك حصولك على أقصى حد من القدرة والاقتصاد . ومحركات «نوردبرج ديزل» متاحة فى أطرزة ذات دورتين وذات أربع دورات وفى مجموعة واسعة من مختلف الأحجام تتدرج قوتها إلى ٨٥٠٠ حصان ، فيمكنك أن تختار المحرك الذى يقضى حاجتك الخاصة . وإذا شئت أن تظفر بقدر أوفى من التفاصيل ، اتصل بممثلينا فى البلاد الآتية :

فى القطر المصرى والسودان ، الحبشة ، شرق الأردن ، فلسطين ، تركيا ، قبرص ، سوريا ولبنان

الشركة الأمريكية الشرقية للتجارة والملاحة
٤١ شارع صفية زغلول ، بالإسكندرية
٢١ شارع سليمان باشا ، القاهرة

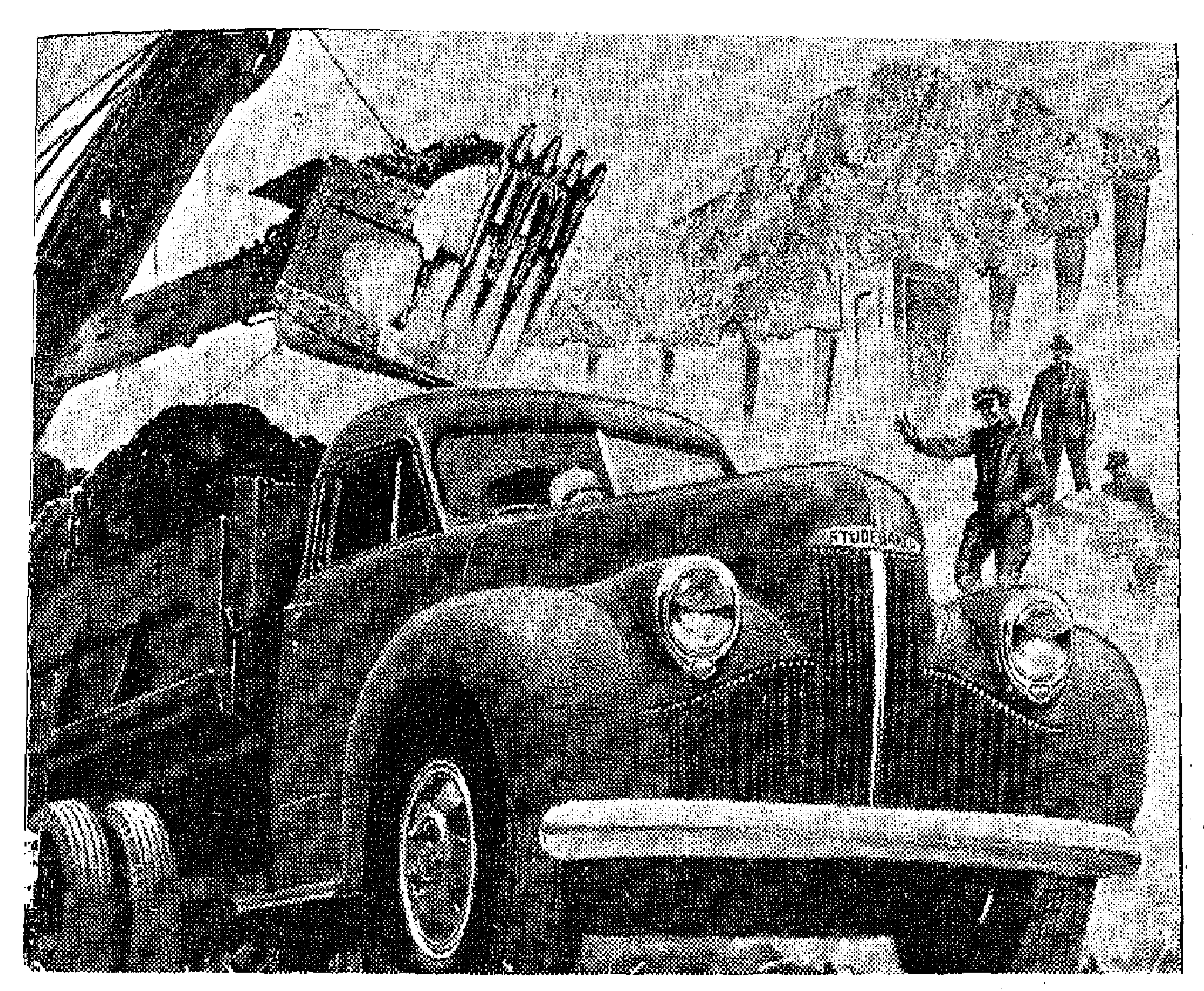
العراق : **الشركة العراقية للملاحة ليمتد**
٢٨٢/٩ شارع المستنصر ، بغداد
وشارع الملك فيصل ، البصرة

الحجاز : **أميريكان إيسترن كوربوريشن** ، جده
إيران : **أميريكان إيسترن ، ش . م . إ ،** ٩٢٦ شارع شاه ، طهران. وبناء نادى المحربة الأمريكية سابقاً ، خور امشاهر

NORDBERG MFG. Co. Milwaukee, Wisconsin, U. S. A.

NORDBERG محركات ديزل


لكي تحافظ على أسنانك
براقة ونظيفة
استعمل كل يوم معجون
LISTERINE
LISTERINE
TOOTH PASTE
معجون الأسنان Listerine
مركب من ١٤ عنصراً ، وهذه
العناصر قد أحكم انتخابها وجعلت
مقاديرها دقيقة التوازن حتى تهيئ
للأسنان أقصى حد من اللمعان
والنظافة دون أن تلحق بميناء الأسنان
أدنى ضرر . إن معجون Listerine
يترك فمك أكثر نضارة وأشد نظافة
وأطيب طعماً . جربه اليوم !



أخبار سارة! مقادير متزايدة من مركبات النقل ستوديبيكر تشحن كل أسبوع!

إن الطلبات التي تنهال من جميع أرجاء العالم على مركبات « ستوديبيكر » الضخمة القوية، بلغت مبلغاً هائلا، وهي تزداد يوماً بعد يوم.

على أن مصانع مركبات النقل «ستوديبيكر» التي وسّعت توسيعاً عظيماً، تسير في إنتاجها على وتيرة تضارع إنتاجها في زمن الحرب.

وستجد أنه من الخير لك أن تشترى بما خصصته من مال لمركبة نقل، سيارة «ستوديبيكر» المشهورة بمتانة بنائها، فتظفر بمركبة نقل قد صممت تصميماً باهراً لتعطيك أفضل أداء وأقصى حد من الاقتصاد في العمل. أما المال الذي تنفقه فتضمنه الشهرة التي نالتها مؤسسة «ستوديبيكر» خلال ٩٤ عاماً عرفت خلالها بأنها تصنع السيارة التي تركّب قيمتها الممتازة في كل جزء منها. استشر اليوم أقرب وكيل « ستوديبيكر » إليك.

The Studebaker Export Corporation
South Bend, Indiana, U. S. A. Cables: Studebaker

Studebaker

مشهور في جميع أرجاء العالم كرمز الامتياز في السيارات ومركبات النقل

معوان على تعليم الصغار

أحمد عيسى
مدرس اللغة العربية بمدرسة الدواوين الابتدائية

رئيس تحرير المختار

هذه ظاهرة لا أدرى ما الذى يدفعنى إلى أن أكتب لك عنها هذه الكلمة :

« ما يكاد تلاميذى يلمحوننى على باب الفصل حتى يهتفوا مسرعين إلىَّ (المختار . . المختار) . فكيف أصبح للمختار استيلاء سحرى غريب على هذه العقول الغضة التى ما تزال فى الفرقة الرابعة الابتدائية ؟ هذا المختار من ريدرز دايجست ، غذاء دسم من شأنه أن يفتح شهية العقول الناضجة التى نالت حظاً وافر من الثقافة ، لا أن يستهوى هذه البراعم التى لم تتفتح بعد .

ولكن العجيب أنها تجربة قمت بها على غير مثال سبق ، فأخذت أقص على تلاميذى من مجموعة المختار بعض ما كتب ألن ديڤو من (حكمة الحيوان) ، فإذا هم يلتهمونها التهاماً ، ويصرون على أن يشتفوا كل ما كتب فيها ، فأضطر إلى الرجوع إلى أعداد المختار أحملها إليهم فى دروس المطالعة ، ثم أقص عليهم من المختار قصة (لوبو ملك الذئاب) ، فإذا هم يصيحون من شدة الإعجاب ، وتسيطر عليهم انفعالات مركبة فأنا إذاً أمام رغبات فتية جامحة ، ماذا أصنع ؟ عدت إلى المختار أستزيده فإذا كنز آخر يستهويهم (شخصيات لا تنسى) ثم ماذا ؟ ، ثم كنز ثالث (من صميم الحياة) . أما قصة (هوديني الساحر) فلا تسلني كيف تركت هذه القلوب الغضة فى لجة من التساؤل الذى لا يستقر ولا ينقطع . أردت أن أقيس شعورهم نحو المختار بتجربة أخرى ، فقدمت عدداً واحداً منه (جائزة) للأول عليهم فى امتحان الفترة فكادوا ينهشوننى من غيظهم على أن خصصت بهذا الفضل واحداً منهم ولم أشمل بمثله الجميع وكأنهم أرادوا أن يتحدوا تشجيعى ، فأحضر كثيرون منهم فى اليوم التالى أعداداً من المختار يتباهون بها على من نال (الجائزة) كأنه لا فرق ثم دار همس بين سائر التلاميذ فى المدرسة عن المختار وجولته فى دروس المطالعة . وما زال المختار ضيف المطالعة الأثير ، وكانت تجربة عجيبة على غير مثال سبق » .

"صلة بين المرء ومعارف عصره"

حميد فرنجيه

وزير خارجية لبنان سابقاً، ورئيس الوفد
اللبناني في أول اجتماع لهيئة الأمم المتحدة

المختار بما تنشر من أبحاث ودروس فى مختلف شؤون العلم والاجتماع تساعد على رفع مستوى معارف العامة، وتؤدى خدمة من أجل الخدم الإنسانية.

وبديهى أن مجلات التبسيط العلمى، فى أنحاء العالم، وحتى فى البلدان التى بلغت الحضارة فيها ذروة المعرفة وتبوأ العمران مكانة رفيعة، تعمل عملها المهذب، ولا تلبث أن تكون شيئاً فشيئاً رأى الجماعات وتوجيه التوجيه الصحيح.

ذلك شأن المختار. على أن رسالتها أجدى لما بلغته من سعة الانتشار، ولما يرجى من ازدياده فى العالم العربى التواق إلى الأخذ بالحديث من كل علم وفن.

ولعله من الحق أن نقول إن المختار لا تتوجه برسالتها إلى العامة التى حرمت ثمار العلم فحسب، بل إلى سائر الناس ممن هم دون فئة العلماء ولو كانوا قد أصابوا من المعارف قسطاً غير يسير.

فأبحاثها، على ما فيها من تبسيط، جمة المنافع، حرية بانتباه المثقفين من غير أهل الاختصاص، والاطلاع عليها يجعل الناس على صلة بما يجرى قريباً وبعيداً عنهم فى العالم من كشف واختراع، ومن أحداث اقتصادية واتجاهات فكرية وسياسية. وهذه الصلة بين الإنسان ومعارف عصره — هذه الرابطة التى تحرص المختار على إيجادها بين قرائها والدنيا الواعية — إن هى إلا الشرط الأول لقيام ديمقراطية صحيحة عند الشعوب، إذ لا ديمقراطية حيث يسيطر الجهل ولا سلام.

رسالة المختار هى رسالة العلم، رسالة المعرفة والسلام.